

الشجر العربي

بين الجمود والنطور

تأليف
محمّد عبد العزيز الكفراوي



الطباعة والنشر والتوزيع



0093282



Bibliotheca Alexandrina

الشجر العرجي

بين الجمود والطور

تأليف

محمد عبد العزيز البقرلاوي



مكتبة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ المقدمة

الحاجة إلى هذا البحث

قد كان هناك إجماع أو شبه إجماع بين مؤرخي الأدب ونقاده على أن الشعر العربي ظل في صدر الإسلام والعهد الأموي صورة من الجاهلي حتى إذا جاء العباسي انحرف عن أصوله الجاهلية قليلا عند بشار وأبي نواس ، ثم اشتد به الانحراف في شعر مسلم بن الوليد ، وبلغ الذروة على يد أبي تمام . ولكنهم لم يفصلوا القول في ذلك مما أتاح لبعض نقاد الأدب ومؤرخيه^(١) أن يهاجم ذلك الإجماع ، ويتحداه بذكر أمثلة كثيرة ، حاول بها أن يستدل على تطور الشعر العربي أثناء العصر الأموي .

ومع أننا نؤمن بكثير مما قاله القدامى ، وقليل مما جاء به الناقد الفاضل ، فلما لنا نقدم بحثنا في صورة الهجوم حتى لا يجرّ إلى مثله فيلزم الدور والتسلسل كما يقول علماء الكلام . وبعد فله فضل إثارة هذا الموضوع وتوجيه الأنظار إليه ، ولا يضيره بعد ذلك أن يكون هناك بعض المآخذ على بحثه . والرأى عندنا أن الشعر العربي أصابه تغير حقا في العصر الأموي وصدر الإسلام ، بل وأصابه عدة تغيرات أثناء العصر الجاهلي ، لأنه كائن حيّ يخضع كغيره من الكائنات لعوامل النشوء والارتقاء . وكل ما هنالك أن ذلك التغير يسير جداّ وسطحى لا يمس العناصر الأولية ، والسمات الأصلية التي أئسم بها الشعر الجاهلي . وهذا هو السبب في إغفال جمهور النقاد له واعتباره مع الجاهلي كلا لا يتجزأ .

ولكى ننظّم الجدل حول هذا الموضوع اتخذنا نقطة ارتكاز نبدأ بها ونطور حولها . ونعني بها العناصر الأصلية للشعر الجاهلي . وهي تلك التي كان يقصدها القدامى حينما يتحدثون عن عمود الشعر العربي . وقد قسمنا بحثنا في ضوءها إلى الخطوات التالية : -

الباب الأول : - وهم بتحديد تلك العناصر ، وتعرّف الظروف الاجتماعية التي كوتها . والآثار التي ترتبت عليها في الشعر الجاهلي ، وقد تلمّسناها فاتيينا إلى أنها الطبع ، والصدق ، والميل إلى التصوير مع الدقة فيه ، والموسيقية ، وأخيرا بناء القصيدة التقليدي وتقسيمها إلى مقدمة وغرض :

(١) دكتور شوقي ضيف في كتابه « التطور والتجديد في الشعر الأموي » .

الباب الثاني : - وقد قسمناه إلى فصول .

الأول : في بيان الأسباب التي حالت دون تأثر الشعر العربي بالدين الجديد في صدر الإسلام ، وتلك التي وجهته شطر الجاهلية في العهد الأموي .
الثاني : - في ذكر نموذج من الشعر الأموي يؤكد جمود ذلك الشعر عند الحدود التي رسمها شعراء الجاهلية .

الثالث : في الرد على القائلين بتطور الشعر العربي في العصر الأموي . وذلك بالتعرض لما أشاروا إليه من فنون ونماذج يبدو عليها سمات التطور وإقامة الدليل على أنها ليست إلا امتداداً طبيعياً للشعر الجاهلي .

الباب الثالث : - في العصر العباسي ويتكون من أربعة فصول .
الأول : في بيان مدى ما أصاب بناء القصيدة العربية من تطور .
الثاني : في الأغراض وتطورها تبعاً لتطور الحالة الاجتماعية في ذلك العصر .
الثالث : في ذكر ما أصاب عناصر الشعر من تطور . وفيه موازنة بين العباسي والأموي .

الرابع : في استرداد الشعر العربي لحيته على يد أبي الطيب المتنبي . وقبل أن ندخل في تفاصيل هذه المباحث نلفت النظر إلى أن جميع ما ورد إلينا من الشعر الجاهلي الذي سيكون طرفاً فيما سنعقده من موازنات ، وإنما هو من نتاج القرن السابق لظهور الإسلام ، وقد يعجب القارئ لغزارة ذلك النتاج وروعه حين يقاس بقصر الفترة التي قيل فيها . ويزيد من عجبه سكوت المؤرخين عما كان قبل ذلك من شعر وشعراء ، وربما سأل نفسه عن السر في كل هذا .

والذي ينبغي أن نذكره إجابة عن تلك الأسئلة ، أن الشعر العربي مرّ بأطوار طويلة من التثقيف والتهديب قبل أن يصل إلينا مكتملاً ، وما أمرؤ القس ومعاصره إلا الذروة العليا لجبل ضخّم من الثلج يسبح معظمه هادئاً متثدّ في أعماق المحيط . ولم يُتَحَ لذلك الجبل أن يعرف لسبب يسير وهامّ في الوقت نفسه ، وهو أن الجزيرة العربية وثبت وثبة قوية أثناء القرن الخامس الميلادي^(٢) ، تردد صداها في حياتهم الاجتماعية والسياسية والأدبية ، بحيث صار البون شاسعاً بين ما ضيهم وحاضرهم في

(٢) أهم أسباب تلك الطفرة ما كان من حروب بين عرب الشمال والجنوب انتصر فيها الشماليون وتخلصوا من سيطرة الجنوبيين ، وقد خاض كليب بن ربيعة سيد تغلب ومن ورائه عرب الشمال أهم تلك المعارك وأبعدها أثراً في حياة الجزيرة العربية .

هذه الأمور جميعاً . ولما كان العرب يعتمدون في حفظ آثارهم الأدبية وحوادثهم السياسية على الذاكرة فقط فقد شغلوا بما كان لهم أثناء تلك الطفرة من مواقف ، وما سجل فيها من أشعار عما كان لهم قبل ذلك من هذا أو ذاك . وهكذا ألهمى بنى تغلب عن ماضيها أشعار مهلهل بن ربيعة وعمرو بن كلثوم . كما شغلت بكر بشعر طرفة بن العبد والحارث بن حلزة . وقريباً من ذلك فعلت كل قبيلة بشعر شعرائها . وضربوا عما كان قبل ذلك من أشعار لا تتسع لها الذاكرة^(٣) .

(٣) قال بعض الشعراء ينكم بنى تغلب :
ألهمى بنى تغلب عن كل مكرومة

قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

البَابُ الأوَّلُ

المناصر الأصلية للشعر الجاهلي

الطبع : كان الشعراء الجاهليون يجرون من طبائعهم فيسجلون كل ما تمليه عليهم شياطينهم ، أو تجود به قرائحهم ، دون مراجعة طويلة ، يجعلون الفكرة رائدهم وإصابتها هدفهم صارفين النظر عن الزخارف اللفظية والمعاني الغريبة ، وما سوى ذلك من أمور شُغف بها طائفة من شعراء العصر العباسي ، فأفسدت الطبع عندهم وأشاعت التكلف في أشعارهم .

وليس بعجيب أن ينحو الجاهليون هذا المنحى في أشعارهم . فقد كانوا بدؤوا يعيشون عيشة ساذجة لا تكلف فيها ولا تعقيد ، وقد فطرتهم الصحراء على الحرية والصرحة في أحاديثهم العادية التي يندفعون فيها اندفاع الرياح الهوجاء في عرض الصحراء . . وطبعي أن يسرى عدوى ذلك إلى آدابهم وأشعارهم .

وكأنما رأى الشاعر العربي أنه مرهق بأغلال وتبعات مختلفة من إقامة الوزن وتسديد القافية والتماس الروي وإصابة المعنى . فأحب ألا يشغل نفسه عن ذلك كله بزخرفة اللفظ وتقليب العبارة . أما العودة إلى الشعور بعد الفراغ منه ، وإعادة النظر فيه بقصد تنقيحه وتنخله ، فأمر وراء طبائعهم القلقة ، وأفكارهم التي لا تعرف الاستقرار إلا بقدر ما تعرفه رحالهم ، التي لا تفتأ تضطرب في عرض الصحراء من مكان لآخر . ولم يهتدوا إلى هذا النحو من تنقيح الشعر وتهذيبه إلا في أواخر العصر الجاهلي على عهد زهير بن أبي سلمى . وقبل أن نعرض لزهير نورد لك نموذجاً من المطبوع لعبيد بن الأبرص قالها لحجر بن عمر والكندى حين أقسم ألا تسكنه أسد بأرض وكان ملكا عليهم وعلى غطفان^(١) فطردهم من بلادهم بعد أن قتل كثيراً منهم ضرباً بالعصا حتى سموا عبيد العصا وفيها يقول :

(١) عصر ما قبل الإسلام للأستاذ مبروك نافع ص ١١٦ .

يا عين فابكي ما بنى أسد فهم أهل الندامة^(٢)
 أهل القباب الحمر والد م هم المؤبل والمدامة^(٣)
 وذوى الجياد الجرد والأ م سل المثقفة المقامة^(٤)
 جلاً أبيت اللعن ح م سلا إن فيما قلت آمة^(٥)
 فى كل واد بين يث م رب فالقصور إلى اليمامة^(٦)
 تطريب عان أودعا م . محرق أو صوت هامة
 ومنعهم نجدا فقد حلوا على وجل تهامة
 إما تركت تركت عف م هوا أو قتلت فلا ملامة
 أنت المليك عليهم... وهم العبيد إلى القيامة
 ذلوا لسوطك مثلاً... ذل الأشقيرو ذو الخزامة^(٧)

ونعود إلى زهير فنذكر أنه قد اجتمعت له عدة أمور جعلت منه أستاذاً للمدرسة ظهرت فى عهد النضج الاجتماعى الذى سبق ظهور الإسلام ومهدله . وعرفت بتجويد الشعر وتقيقحه . نشأ زهير قريباً من شيخ شعراء الجاهلية إذ ذاك أوس بن حجر فقد كان راويته^(٨) وعنه أخذ الأصول الفنية لصناعة الشعر ثم تفرغ لها فوقف عليها جهده ، وصرف إليها همه . وبلغ من ولوعه بتجويد شعره أن كلا من مطولاته كانت تستنفد عاماً كاملاً من وقته^(٩) . وقد خالف بذلك سنة العرب فى الارتجال على البديهة ، ولذا قال فيه الأصمعي^(١٠) زهير والحطيئة وأمثالهما عبيد الشعر لأنهم

(٢) ديوانه ص ٧٧ .

(٣) المؤبل: المتخذة للقيّة (بكسر فسكون) لا للديح .

(٤) جرد: قصيرة الشعر رقيقته من أثر التضمير . الأسل: مفردة أسلة ، شجر يتخذ منه الرماح فصار يطلق عليها . مقامة: مقومة مثقفة .

(٥) حلاً: تحلاً من يمينك . يشير إلى ما كان منه من إقسامه ألا يساكن أسدا بأرض آمة: عيب ، غضاضة .

(٦) القصور لعله يقصد قصور خيرين بالموصل .

(٧) الأشقيرو: الجمل الأشقرو - الخزامة: الحلقة التى توضع فى أنف البعير .

(٨) الشعر والشعراء ص ٤٤ .

(٩) البيان والتبيين ج - ٢ - ص ١٠ .

(١٠) الشعر والشعراء ص ١٦ .

نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . والقارىء لشعر زهير يرى فيه ثلاثة أمور دقة التصوير ، وتهذيب العبارة البراعة فى اختيار مواطن المدح ، أما الأول فلن نعرض له هنا ، لأنه سيأتى بعد قليل فى حديث عام يشترك فيه زهير مع غيره من معاصريه ، وأما الثانى والثالث ففيهما يبدو امتيازهما على سواه ، وإليك نموذجاً يوضحهما ، وفيه ينتقل من الحديث عن ناقتة إلى مدح هرم بن سنان فيقول (١١) :

إلى هرم تهجيرها ووسيجها تروح من الليل التمام وتغتدى (١٢)
إلى هرم سارت ثلاثاً من اللوى فنعم مسير الواثق المتعمد (١٣)
سواء عليه أى حين أتته أساعة نحس تُتقى أم بأسعد
أليس بضراب الكماة بسيفه وفكاك أغلال الأسير المقيد
كليث أبى شبلين يحمى عربته إذا هو لاقى نجدة لم يعرد (١٤)
وثقل على الأعداء لا يضعونه وحال أثقال ومأوى مطرد (١٥)
إذا ابتدرت قيس بن عيلان غاية من الجحد من يسبق إليها يسود
سبقت إليها كل طلق مبرز سبق إلى الغايات غير مجلد (١٦)
كفضل جواد الخيل يسبق عفوه الم سراع وإن يجهدن يجهد ويعد (١٧)

أرأيت لغة أعذب وأتق من هذه. ثم أرأيت اختيار الألفاظ وتكرار (إلى هرم) إشارة إلى أن السير إليه كان قصداً لا مجرد مصادفة ثم تأكيد ذلك بقوله « مسير الواثق المتعمد » أما الأوصاف التى أوردها فجميعها من أخص ما يعتز به أهل الجاهلية كما سندكر بعد قليل . وأخيراً انظر إلى البيتين الأخيرين من المقطوعة وانظر كيف شبه صاحبه فى سبق الناس جميعاً إلى الخير بالجواد مع الخيل يتقدم الركب

(١١) ديوانه ص ٩٣ .

(١٢) تهجيرها: سيرها فى الهاجرة - الوسيج: السير السريع - الليل التمام: أطول ما يكون من الليل .

(١٣) اللوى: منقطع الرمل - وأراد به هنا مكاناً بعيداً .

(١٤) أبو شبلين: له شبلان فى عريته وذلك أدعى لفتكه حتى يطعمهما ، وثورته على من يقترب منها -

نجدة: شدة - يعرد: يفر .

(١٥) ثقل على الأعداء: شديد الوطأة عليهم - لا يضعونه: لا يستطيعون التخلص من ضغطه عليهم .

(١٦) الطلق: الطليق غير المقيد أو الضاحك الوجه ساحة - مجلد مصروب .

(١٧) العفو: مآتى عن ساحة وبغير مجهود .

دون أن يُستحث ، كأنه يفعل الخير دون أن يدفع إليه أو يحمل عليه .
وهكذا يتضح أن امتياز زهير على إخوانه من أهل الجاهلية لم يكن لإدخاله شيئاً من البديع أو نحوه كما فعل العباسيون من بعد ولكن لهذه الدقة والحرص الشديد على تهذيب اللغة وضقل العبارة . وما دمننا نبحت الطبع والتكلف عند القدامى فلا بد لنا أن نذكر وجهة نظرنا في رأى سبقنا إليه الدكتور شوقي ضيف وذلك أن جميع شعراء الجاهلية بدون استثناء كانوا متكلفين ، وأن الجاحظ كان مدفوعاً بالعصبية للعرب حينما زعم أنهم كانوا يقولون الشعر ارتجالاً ، وبدون كد أو عناء . وحجته في ذلك أن قرص الشعر صنعة ، وكل صنعة لها قواعدها التي ينبغي مراعاتها . ففي الشعر لا بد للشاعر من ملاحظة الوزن والقافية والروى وما إلى ذلك . وهذا كاف لأن يقول أن الشاعر الجاهلي كان صانعاً ومتكلفاً ، وإن لم يبلغ مبلغ زهير . وأظنه يوافقنا على أننا نتفاوت فيما بيننا تفاوتاً كبيراً حين نتجه إلى قاعة من القاعات لإلقاء محاضرة عامة عن موضوع نعرفه جيداً ، أو لأخذ طرف في مناظرة من المناظرات ، فمنا من يقضى ساعة أو ساعتين منفرداً بنفسه كي يعد ما سيقول ، ويفكر فيما يمكن أن يلقيه الطرف الآخر فيعد الجواب عليه . ومنا من لا يكاد يفكر في الأمر إلا وهو على منصة الخطابة . إن هذا بالضبط هو ما نعينه حينما نقول إن العرب القدامى كانوا مطبوعين لا يطيلون الرؤية أو يعملون الفكر فيما قالوا أو ما سيقولون . وربما قال قائل : إن فرقا بين هذا وذاك ، فالشعر محتاج لإقامة الوزن وما إليه من تكاليف الشعر . والجواب على ذلك أن طول المراس وتمكن الملكة يجعل هذه الأمور أقرب منالا إلى الشاعر القديم المطبوع مما نتصور . وكيف ننكر على القدامى مثل هذا مع أن بعض الشعراء العباسيين ممن لم تكن اللغة الفصحى لغة أبيه ولا جده كان يقول : لو أردت أن أجعل كلامي كله شعرا لفعلت^(١٨) ثم يقول : إن الناس يتكلمون بالشعر في أحاديثهم العادية وهم لا يشعرون ولو أحسنوا تأليفه لكانوا شعراء^(١٩) .

وبعد فلا أظن إلا أن الجاحظ والأصمعي وأضرابهما كانوا أعرف بلغة العرب منا ، لأن التكلف في اللغة مقرون بالمشقة ، ولست أدري لأى مشقة تعرض

١٨) أغان ج ٣ ص ١٢٧ .

١٩) الأغاني ج ٣ ص ١٤٠ .

طرفة بن العبد حينما قال في حبيبته هـ وهو من خير شعره بشهادة الثقة من
النقاد (٢٠)

لا تلمني إنها من نسوة رُقد الصيف مقاليت نُزُرُ (٢١)
كبنات المَحْر يَمَآذُن كما أنبت الصيف عساليح الخضر (٢٢)
فجعوني يوم زَمُوا غيرهم برخيم الصوت ملثوم عطر (٢٣)
ولها كشحا مهابة - مطفل تقترى بالرمْل أفنان الزهر (٢٤)
تحسب الطرف عليها نجدة بالقومى للشباب المسبكر (٢٥)

ألا توافقني على أن البيت الأول والأخير يعبران إلينا أكثر من أربعة عشر قرناً
ليمتزجا بلغة أهل الفتوة والمرح من أبناء عصرنا . حقيقة هناك بعض ألفاظ غريبة
ولكنها غريبة عندنا فقط أما عند طرفة فإنها عادية ومفهومة جيداً ، وإن شئت مزيداً
فاقرأ الأبيات التي ختم بها قصيدته والتي يعتذر فيها إلى قومه من سابق لهُو وعبثه
عساك تظفر فيها بشيء من التكلف قال :

ولقد كنت عليكم جاتبا فعقبتم بذنوب غير مر (٢٦)
كنت فيكم كالمغطى رأسه فانجلى اليوم قناعي وخمر
سادرا أحسب عيى رَشَدًا فتناهيت وقد صابت بِقُر (٢٧)

(٢٠) الشعر والشعراء لابن قتيبة .

(٢١) ديوانه ص ٦٤ . مقاليت : لا يعيش لمن ولد . نزر : قليلات الأولاد .

(٢٢) بنات محر : سحائب بيض يأتين قبل الصيف - يَمَآذُن : يثنين - العساليح : ما أخضر ولان من
القصبان .

(٢٣) رموا العير: وضعوها في الأزمة للرحيل - ملثوم: عليه لثام آى نقاب .

(٢٤) الكشح: ما بين الخافضة إلى الضلع الخلف - تقترى: تتيج - أفنان: أنواع .

(٢٥) النجدة . الشدة - المسبكر: الممتد ، ولعله أراد بالممتد المتغطرس غير المكتثر بمى حوله - وتحسب
الطرف أى رفع الطرف .

(٢٦) عقبتم: جدتم - ذنوب: نصيب .

(٢٧) سادرا : لا أبالى بشيء ولا بأحد - صابت - من الصوب وهو النزول . قر : قرار ، وفي الأمثال

« صابت بقره أى نزل الأمر في قراره فلا يستطاع له تحويل .

«الصدق أو التزام الحقيقة» (*)

وقد فطرهم على ذلك صراحتهم مع أنفسهم تلك الصراحة التي لا بد وأن تكون قد تسلفت إلى نفوسهم من حياة البادية . فالبادية واضحة مكشوفة لا أدغال فيها ولا أحراش . بل ولابحار تطوى بين أمواجها أسرار من طوتهم من راكبي ظهورها . والسمااء بعد ذلك صحو والشمس نهراً والقمر ليلاً لا تكاد تترك بالبادية حجراً بل حبة رمل حتى تجعلها تتوقد ناراً ونوراً .

وأخيراً يأتي دور الخيمة - التي يولد فيها العربي ويموت - فهي تلقنه دروساً لا تنتهي في الوضوح والصراحة وذلك بفضل حوائطها الرقيقة التي لا تكاد تخفى شيئاً عن أعين الناس . وإن زهير بن أبي سلمى الذي رسم الخطوط العريضة لحياة العرب في الأبيات الأخيرة من معلقته (٢٨) لم يفته أن يشير إلى هذه الحقيقة حين قال :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وتبدو آثار تلك النزعة عند العرب في البعد عن المبالغة والإغراق وتوخي القصد في المدح والفخراقرأ ما شئت من الشعر فسترى دقة شديدة والتزاماً للحقائق . وإليك أبياتاً لطرفة بن العبد من القصيدة التي عرضنا لها منذ قليل هذه النزعة ، قالها يفخر بقومه بني بكر :-

لا تعزُ الخمر إن طافوا بها بسباء الشول والكوم البكر (٢٩)

(٥) كل أحكامنا تقريباً نسبية فحين نقول إن القدماء كانوا يلتزمون الحقائق لانعنى أنهم ماكذبوا قط . ولكن نعنى أن الغالب على شعريهم هو ذلك . وسنعرض لهذا الموضوع مرة أخرى حين نتحدث عن المبالغة عند المحدثين لنرى آل علو الجاهليين كان مع ندرته مستساغاً .

(٢٨) نقصد تلك الأبيات التي يبدوها عن الشرطية مثل :

ومن لم يصانع في أمور كبيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنم
ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله على قومه يستنن عنه ويدم

(٢٩) الشول : جمع شائلة وهي الناقة التي مضى على وضعها سبعة أشهر - الكوم : جمع كوما كحمر -

فإذا ما شربوها وانتشوا وهبوا كل أمون وطمر^(٣٠)
ثم راحوا عبق المسك بهم يلحفون الأرض هذاب الأزر
نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب فينا يتنقر^(٣١)
يجفان تعترى نادينا من سديف حين هاج الصنبر^(٣٢)
كالجوابى لا تنى مترعة لقرى الأضياف أو للمحتضر^(٣٣)
ثم لا يخزن فينا لحمه إنما يخزن لحم المدخر

وشبيه بهذا أبيات لبید التي ختم بها قصيدته وفيها يقول :-

إنا إذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جشامها^(٣٤)
ومقسّم يعطى العشيرة حقها ومغذمر لحقوقها هضامها^(٣٥)
فضلا وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب رغائب غنامها

فلم يزد لبید هاهنا على أن جعل أسرته من أعز الأسر في قبيلته ، ولم يسرف فيخلع عليها من الحماد والمفاخر ما ليس من شأنها . وهذا نفسه ما فعله طرفة من قبله . وقد ازداد هذا الأصل قوة بفضل زهير ومدرسته فقد جعله أساساً من أسسها ، والتزمه التزاماً استرعى التفات عمر بن الخطاب الذى قدمه على الشعراء جميعاً ولما سئل عن سبب ذلك قال : « كان لا يعاظم بين القول ، ولا يتبع حوشى الكلام ، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه »^(٣٦) وتبعه في ذلك حوارية الخطيئة . استمع إلى قوله يمدح بنى لأى بن شماس ابن أنف الناقة بن قريع ويهجو الزبرقان بن بدر ابن عمهم ورهطه

=وحمراء وهى الناقة العظيمة السنام - سباء الشول: شراؤها أى الحمر بالشول - البكر: الحديثات الس .

(٣٠) الأمون: مايؤمن عثاره من الإبل والخيل - الطمر (بكسر الطاء) الطويل . المشرف من الخيل .

(٣١) الجفلى: أن يعم بدعوته إلى الطعام .

(٣٢) الصنبر: بتشديد الصاد مع الكسر ، وتشديد النون مع الفتح أو الكسر ، الريح الباردة .

(٣٣) الجابية: الخوض الواسع يجرى فيه الماء أى يجمع - المحتضر: النازل على الماء .

(٣٤) لزاز عظيمة: ملازمها أى حالها .

(٣٥) مغذمر لحقوقها هضامها . مطلق اليد يعطى ويمنع من يشاء .

(٣٦) الشعر والشعراء ص ٤٤ .

وقد كان بين الفريقين تنافس وتحاسد^(٣٧)
أفلّوا عليهم لا أبا لأبيكم
من اللوم أو سدّوا المكان الذي سدوا
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا
وإن عاهدوا أوفوا إن عقدوا شدوا
وإن كانت النعماء فيهم جزّوا بها
وإن أنعموا لا كدّروها ولا كدّوا
مطاعين في الهيعة مكاشيف للدجى
بنى لهم آبائهم وبنى الجد
ويحسبني أفناء سعد عليهم
وما قلت إلا بالذى علمت سعد

فقد وصفهم بأجمل ما يتمنى أن يوصف به المرء من الوفاء بالعهد
والإبقاء على الصديق والسماحة والشجاعة وكرم المحتد ، كل ذلك في ألفاظ
يسيرة وعبارات عادية أو كالعادية لا أثر فيها لمبالغة أو إغراق .

وقوله في الزبرقان :-

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
آذاه رغم بساطته أشد إذاء حيث رماه بسقوط الهمة وتفاهة التفكير .
وقد بلغ من تأذى الزبرقان بها أن استعدى عليه عمر بن الخطاب ، فسيجنه
وهمّ بقطع لسانه . أو تظاهر بذلك على الأقل^(٣٨)

وبالرغم من أن مذكرناه كان الصبغة الغالبة على الشعر الجاهلى ، فقد
كانت هناك مخالقات اقتضتها الظروف السياسية والاجتماعية المختلفة .

(٣٧) تهذيب الكامل ج ٢ ص ١٠٦ .

(٣٨) نفسه ص ١١٠ .

فالدارس للشعر الجاهلي يدرك ميل شعراء تغلب إلى الغلو في تقدير شجاعتهم . ولم يحتمل منهم النقاد ذلك ، فقالوا في قول مهلهل بن ربيعة :-

فلو لا الريح أسمع أهل حجر . . . صليل البيض تفرع بالذكور^(٣٩)

أنه أول كذب سمع في الشعر ومن الإنصاف أن نقول إن مثل هذه الزلة لا ينبغي أن تذهب ما في بقية القصيدة من قصد يبدو في قول مهلهل :

وهام بن مرة قد تركنا عليه القشعين من النسور^(٤٠)
على أن ليس عدلا من كليب إذا طرد اليتيم عن الجزور
على أن ليس عدلا من كليب إذا ما ضيم جيران المجير
على أن ليس عدلا من كليب إذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلا من كليب إذا برزت مخبأة الخدور

أما ما نراه في شعراء بكر كطرفه بن العبد والحريث بن جِلْزة من قصد واتزان فيرجع فيما نعتقد إلى تلك الضربات المتوالية التي كالتها لها تغلب ، فقد ذاقت بكر مرارة الهزيمة بسبب اعتزال بعض بطونها الحرب ، ولذا كسبوا النصر النهائي بعد أهوال طوال ، ودفعوا له ثمنا غاليا من دمائهم وأموالهم ، فعلمتهم التجارب ألا يلقوا الكلام على عواهنه إلقاء .

وقد تعرضت هذه النزعة الكريمة إلى محنة أخرى على لسان المتكسبين بأشعارهم من أمثال النابغة الذبياني ، فقد انتهى به حرصه على إطراء الممدوح إلى مجاوزة القصد فيما يقول أحيانا كما ترى في قوله يصف سيوف الغساسنة :-

(٣٩) الأماي ج ٢ ص ١٣٣ - ١٣٤ حجر: قصة اليمامة ، والمركة بالجزيرة . البيض: الحور

(٤٠) المرجع السابق ص ١٣٢ ، القشعم: الهرم ، على أن ليس عدلا من كليب أي أن همام بن مرة أو بجير للذكور قبله لا يغني غناء كليب وقت الشدة ، لأن جميع الأمور التي ذكرها من طرد اليتيم أو العجر عن حياة الجار أو خروج النساء من خلدهن لا يحدث إلا في الأوقات العصيبة حين يشتد الجذب أو يحرق بهم العدو .

تقدَّ السلوقيُّ المضاعف نسجه . . . وتوقد بالصُّفاح نار الحُبَّاب (٤١)
ولكن مثل هذه الأبيات النادرة لا ينبغي أن تهدم القاعدة العامة التي
سار عليها الشعر الجاهلي .

ولعله قد صار من واجبنا وقد انتهينا إلى هذا الحد من البحث أن نشير
إلى أن أكثر الفضائل جريئاً على ألسنة العرب الشجاعة والكرم ويدخل
تحت الشجاعة حماية الجار ونجدة الملهوف . وإنما عظم تقديرهم لهاتين
الفضيلتين لأن حياة البادية تفرض عليهن ذلك ، فانهدام الحكومة
المركزية ، واضطراب الحال الاقتصادية عرضهم للغارات ، وجعلهم بحاجة
إلى من يرد عنهم ويلاتها ، وقلة الأمطار عرضتهم للجذب وأحوجتهم إلى
من يرد عنهم غوائله الميل إلى التصوير .

يظهر أن هذا الميل فطري في الإنسان ، فهو بطبيعته شغوف بأن ينقل
إلى غيره ما عساه أن يكون قد سبق إليه من مشاهد أو تعرض له من
تجارب . وقد وجدت هذه النزعة متنفساً عند الأمم الكاتبة القارئة ، فظهر
التصوير ممتزجاً بالكتابة عندها أول الأمر ثم استقل عنها بعد ذلك (٤٢) وفي
كلا الحالين استغلت تلك الأمم أيديها لتصوير تجاربها ومشاهداتها .

ولكن الشعب العربي لا يكتب ولا يرسم وهو مع ذلك محتاج كغيره من
الشعوب إلى نقل تجاربه . بل هو أشد حاجة إلى ذلك لقوة المشاركة
الوجدانية عنده ولم يجد وسيلة إلى ذلك سوى بضاعته الأولى وهي الشعر
يرسم فيه صوراً دقيقة لكل ما يقع تحت سمعه وبصره من مناظر وتجارب ،
ولذا تكثر تلك الصور في الشعر العربي أثناء العصر الجاهلي كثرة لا نرى لها
شبهاً في عهد آخر سوى العهد الأموي الذي يحاول دائماً أن ينسج على

(٤١) شعراء النصرانية ج - ٢ ص ٦٤٧ ، السلوقي الدرع نسبة إلى سلوق بيلاد الروم المضاعف نسجه .
نسحت حلقاته مثنى - الصفاح: حجارة عراض - الحاحب . ذئاب يرسل شرراً أو شعاعاً أثناء الليل
(٤٢) كانت الكتابة أول الأمر صورية ثم مقطعية ثم تحولت على يد الفينيقيين إلى رمزية

منواله ، وإذا أعوزك الدليل على ذلك فاقراً المعلقات السبع وتأمل وصف امرئ القيس لحبيته وفرسه ولا تنس الأبيات التي ختم بها معلقته وتحدث فيها عن الطبيعة . وإذا انتقلت إلى طرفة ومعلقته فقف قليلاً أو كثيراً عند وصفه أو بعبارة أدق تصويره لناقته ، وإنا لوائقون من أنك ستسأل نفسك عما إذا كنت أمام شاعر أو مصور وذلك لكثرة ما فيها من تشبيهات تتوالى في إسراف عجيب ، ويجمل بهذه المناسبة أن نذكر أن أسلوب أهل الجاهلية في التصوير هو الاعتماد على التشبيهات الحسية لتصوير الحسيات والمعنويات جميعاً ومثال الأول قول طرفة بن العبد :

وبلاد زَعَلٍ ظَلَمَها كالمخاض الجرب في اليوم الخدر^(٤٣)
ومثال الثاني قول طرفة أيضاً .

وظلم ذوى القرى أشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند^(٤٤)

واستعمال التشبيهات على هذا النحو مظهر من مظاهر البساطة والسذاجة والرغبة في الإيجاز حيث لا يستطيع المتحدث ذكر تفاصيل المنظر الذي يريد تصويره فيكتفي بذكر شيء شديد الشبه به ومعروف لكل من القائل والسامع مستغنياً بذكره عن التعرض لدقائق الموصوف ، ولكي يكون الغرض من هذه التشبيهات واضحاً نذكر لك مثالين يعينان على ما نريد أما أولها امرئ القيس يصف شعر حبيبته :-

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كَقَنُو النخلة المتعشك^(٤٥)
غداثرة مستشزرات إلى العلا تضل العقاص في مثنى ومرسل

(٤٣) زعل: نشيطة - المخاض: الحوامل من النوق - الخدر: الشديد البرد ، ديوانه ص ٦٦ .

(٤٤) معلقته .

(٤٥) القنو للنخلة مثل العقود لشجرة العنب ، وتعشك تمت عثاكيله وهى العيدان الرفيعة التي تحمل البلح .

فأنت تراه قد وصفه بأوصاف متعددة تؤكد غزارته وكثافته ولكنه مع ذلك لا يهدأ ولا يستريح حتى يقول بجانب ذلك كل ، «كقنو النخلة المتعشّكل ، وكأنى به يرى أن تلك الصفات مهما توالى لتنقل الصورة التى ارتسمت على مرآة فكره وهو يتطلع إلى شعر حبيبته ، صورة قنو النخلة ولذا يبادر بتسجيله فى شعره وشبيه بهذا قوله :-
وكشع لطيف كالجديل مخضّر وساق كأثوب السقيّ المذلّ (٤٦)
بعد أبيات قلائل من قوله :-

هصرت بفودى رأسها فتمايلت على هضم الكشح ربا المخلخل
وكانه رأى أن الإيضاح بالنعوت والصفات أقل دقة ووضوحاً منه
بالتشبيه ، فعمد بعد ذلك إلى تشبيهه بالجديل ، فإنه على بساطته يتضمن
الضمور واللفظ وتداخل بعض الأجزاء فى بعض مع الخلو من الفضول
والترهل .

وفى هذا الضوء يجب أن تقرأ الشعر الجاهلى ، وأن تنظر إلى
التشبيهات التى تمر بك فى كثرة أثناء قراءته متتبعا الشاعر وهو ينتقل بك
كالنحلة أو الفراشة من زهرة إلى أخرى أو من منظر إلى آخر واضعا بين
يديك الصورة التى انطبعت فى ذهنه عند رؤية هذا المنظر أو ذلك ، وفى
هذا الضوء ينبغى أن نتدبر أمثال قول طرفة فى ناقتة وقد خطرت به :-
فذالت كما ذالت وليدة مجلس ترى ربا أذيال سحل ممدد (٤٧)
أو قوله يصف امتلاء أطراف عشيقته :
كأن البرين والدماليج علقت على عُشْر أو خروغ لم يخضد (٤٨)

(٤٦) السقيّ: المذلّ: المثقل بالثقل ، شبه ساقها بأنابيب البردى أو القصب التى نشأت فى ظل
حل كثير الماء والثمار .

(٤٧) شبه الناقة فى سيرها بحارية ترقص أمام سيدها فى ثياب بيضاء (المعلقة)

(٤٨) نفسه . البرين والدماليج : الخلاخيل والأساور ، والعشر والخروغ نوعان من الشجر .

أو قوله متحدثاً عن حدة قلبه ونفاذه في الأمور:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقدة^(٤٩)
والتصوير اللفظي عند العرب يشبه اليدوى عند غيرهم من حيث
اقتصاره على منظر جزئي بسيط كقول طرفة:
وبلاد زِعِل ظلماتها كالخاض الجرب في اليوم الحذر^(٥٠)
أو اتساع أطرافه وتعدد جوانبه حتى يشبه اللوحات الضخمة .
وكانت روح الدقة التي تشيع في شعر زهير معينة له على تجويد هذا
النوع من التصوير كما ترى في قوله:

تَبَصَّرَ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنِ تَحْمَلْنَ بِالْعِلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جَرْتُمْ^(٥١)
جَعَلْنَ الْقَنَانِ عَنْ يَمِينِ وَحَزْنِهِ وَكَمْ بِالْقَنَانِ مِنْ مَحَلٍّ وَمَحْرَمِ^(٥٢)
عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ وَرَادٍ حَوَاشِيهَا مَشَاكِهِ الدَّمِ^(٥٣)
كَأَنَّ فَتَاتِ الْعَهْنِ فِي كُلِّ مَتَرٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبَّ الْفَنَاءِ لَمْ يَحْطَمْ^(٥٤)
فَلَمَّا وَرَدْنَ الْمَاءَ رَزَقًا جَمَامَهُ وَضَعْنَ عَصَى الْحَاضِرِ الْمُتَعَجِّمِ^(٥٥)

على أنه ينبغي ألا تغلو في تقدير زهير فإن معظم شعراء الجاهلية كانوا
مصورين مثله ، بل ربما كان من الواجب أن نذكر أنه مديناً لهم بأجمل
ما عرف له من التصوير ألا ترى أن قوله:

(٤٩) نفسه . الضرب : الخفيف اللحم ، الخشاش يفتح المعجمة : الماضي الذي لا يتردد .

(٥٠) راجع ص ٢١ من هذا الكتاب .

(٥١) ديوانه ص ٤ - الطعائن : النساء على الإبل جمع ظعينة .

(٥٢) القنان . جبل لبني أسد - والحزن ما غلظ من الأرض - المحل : الذي لاعهد له كأنه يستحل مال
الناس ودماءهم - المحرم : الذي له حرمة ودمية .

(٥٣) الأنماط : ما يفرش من المتاع - الكلة : السرير - وراد حواشيها : حمراء ، مفردة ورد .

(٥٤) العهن : الصوف - فتاته : ماتناثر منه - الفاء : شجر حبة أحمر .

(٥٥) الجمام : جمع جمة وجم وهو ما اجتمع من الماء وغزر - وزرقته دليل صفاته .

فينا نبغى الصيد جاء غلامنا يدبّ ويخفى شخصه ويضائله^(٥٦)
 مأخوذ من قول طرفة يتحدث عن بعض الفلوات .
 يظل بها غير الفلاة كأنه رقيب يخافى شخصه ويضائله^(٥٧)
 وإن أحببت أمثلة على ماتقول فاقراً قول النابغة حين يصور سعة
 عطاء النعمان مشبها إياه بالفرات .

فما الفرات إذا جاشت غواربه ترمى أو إذّيه العبرين بالزبد^(٥٨)
 يمدّه كل واد مترع لجب فيه ركام من الينبوت والخضد^(٥٩)
 يظل من خوفه الملاح معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد
 يوما بأجود منه سبب نافلة ولايحول عطاء اليوم دون غد
 أو حين يقول مصورا سعة سلطانه وامتداد نفوذه:

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المتأى عنك واسع
 خطاطيف حجن فى حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع
 ولكى يثق القارئ أن هذا النوع من التصوير كان عاما فى الشعر
 الجاهلى نزيده مثالين أحدهما لطرفة والآخر لأمير شعراء الجاهلية أما طرفه
 فيقول:

ونحن إذا ما الدجن أمسى كأنه
 سماحيق غيم وهى حمراء حرجف^(٦٠)
 وجاءت بُصراد كأن صقيعة خلال البيوت والمبارك كرسف^(٦١)

(٥٦) ديوانه ص ٢٧ .

(٥٧) ديوانه ص ٣٩ .

(٥٨) النابغة الذبياني ص ١٧٦ .

(٥٩) الينبوت: شجر الخروب - الخضد: الحشائش ،

(٦٠) ديوانه ص ٤٣ - سماحيق الغيم: الرقيق منه - حرجف: شديدة البرودة .

(٦١) الصراد كرماء: الغيم الذى لاماء فيه - الصقيع: ماينزل بالليل كأنه الثلج .

وجاء قريع الشول يرقص قبلها إلى الدفء والراعى لها متحرف^(٦٢)
تبيت إماء الحمى تطهى قدورنا ويأوى إلينا الأشعث المتجرف^(٦٣)

فقد وصف السماء والأرض وما يغطي إحداها من غيم رقيق كأنه
أغشية الدهن وما ينتثر على وجه الأخرى من صقيع كأنه القطن المنذوف
ووصف الإبل وقد عادت مساء وعاد فحلها يرتعش ويستحث الخطأ
طلباً للدفء على حين تخلف عنها الراعى خوفاً من البرد . كل ذلك
ليعطينا صورة مما كان يحل بالبادية من أزمات في الشتاء يتولون هم
تفريجها على المعسرين بإطعام الطعام في غير تقتير .

وأبيات امرئ القيس في وصف السيل وأثره في البادية معروفة
مشهورة ومنه في وصف الجبل والسباع والطير أثناء اندفاعه وعقب
إقلاعه :

كأن ثبيراً في عرانب وبله كبير أناس في بجاد مزمل^(٦٤)
كأن ذرا رأس الجحيم حوله من السيل والغثاء فلكة مغزل^(٦٥)
كأن السباع فيه غرق عشية بأرجائه القصوى أنايش سنصل^(٦٦)
كأن مكاسي الجواء غديّة صبحن سلافاً من رحيق مفلفل^(٦٧)

وهي وإن كانت جزئيات منفصلة إلا أن تجاورها يكون منها وحدة

(٦٢) قريع الشول فحلها - متحرف . متخلف عنها سبب البرد .

(٦٣) المتجرف المدم .

(٦٤) ثبير: جبل - عرانب وبله . أوائل المطر - البجاد . ثوب مخططة - مرمل: متلف

(٦٥) الجحيم . أكمة معينة - الغثاء: ماحاء به السيل من حشيش أو شجر ونحوه فلكة المغزل . رأسه ، شبه

دوران السيل حول الأكمة بدوران فلكة المغزل

(٦٦) العنصل: البصل البري - الأنايش: جذور النبات ، مفيدة انبوش (بالضم) لأنه ينبش عنها ، شبه

السباع وقد اختلط الطين بشعرها بجذور البصل البري حين يختلط بها الطين واختار البصل البري لأن حذوره أقرب للشعر .

(٦٧) المكاسي: ضرب من الطير مردها مكاء بضم الم وتشديد الكاف .

عامّة تعطينا صورة دقيقة لمنظر من مناظر البادية عند هبوب العواصف المطيرة .

وقد عرضنا لنظرية التصوير لأنها تفسر لنا تفسيراً تاماً ميل العرب إلى تحريّ الدقة في تشبيهاتهم واستعاراتهم . وقد مرّ بنا تشبيه طرفة للظلمان بالمخاض الجرب ولايكاد يخفى قوة وجه الشبه بينهما . وإليك صورتين أخريين أولاهما لشاعر جاهلي والأخرى لآخر عباسي .. قال امرؤ القيس في عقاب يشبه بها فرسه ثم يشير إلى كثرة ضحاياها من الطيور: كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي ويحدثنا بشار أنه ظل يحسد امرأ القيس على هذا التشبيه المزدوج حتى قلده بقوله:

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه وأظننا ندرك بسهولة قوة التشابه عند الأول فالرطب من قلوب الطير يكاد يختلط بالعناب حجماً وشكلاً ولينا كما أن اليابس منها يكاد يشبهه على المرء بالحشف من البلح ، والوضع بخلاف ذلك عند بشار لأسباب سنعلمها إن شاء الله عندما نتحدث عن التصوير وما أصابه من تطور في العصر العباسي .

« الموسيقية »

لا يكاد القارئ للشعر الجاهلي يخطئ سيطرة الموسيقى عليه ، فأبياته مقسمة إلى مقاطع متوالية متناسقة ، وقوافيه محوطة بسياج من الشروط التي توجب أن تكون صورتها متحدة في القصيدة كلها من حيث الحركات والسكنات .

والروى يجب ألا يتغير أو يتبدل مهما طالت القصيدة . والذي يمكن أن يصل إليه الباحث من هذا كله أن الشاعر العربي يهتم بإرضاء الأذن ، أنه يعلم أنها تتوقع عند سماع الشعر صورة صوتية خاصة تطرب لسلامتها وتضطرب لاضطرابها ، ولا سيما إذا كان ذلك الاضطراب في القافية ، الذي يمتد طنينها في الأذن أكثر من أى كلمة أخرى في البيت لوقوعها في آخره . وهذا هو السبب في أن قوماً سمعوا قول النابغة .

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك نخبرنا الغراب الأسود
لا مرحباً بغد ولا أهلاً به إن كان تفريق الأحبة في غد

فلم يغتفروها له وكبر عليهم أن يجمع بين الكسر والضم في الروى . واحتالوا للأمر فأوحوا إلى قينة بغناء الأبيات في حضرته على النحو السابق ، ففطن إلى خطئه^(٦٨) ويروى قول امرئ القيس :

كان ثبيراً في عرائن وبله
كبير أناس في بجاد مزمل

بكسر اللام في مزمل ، محافظة على حركة الروى ، مع أنها تستحق الضم لأنها صفة كبير والسبب في عناية الشاعر العربي بالأذن واهتمامه بالموسيقى تبعاً لذلك أن اللغة العربية لغة مسموعة لا مكتوبة . حيث يجهل أهلها القراءة والكتابة وقد كان

(٦٨) الشعر والشعراء ص ٣٨ .

لهذه الخاصة فوائدها وأضرارها ، أما من حيث المزايا فقد ساعدت على شيوع تلك الروح العذبة التي تطل من خلال الشعر الجاهلي ، وكل ما نسج على منواله من شعر العصور التالية ، روح لا تلبث أن تستولى على نفس القارئ والسامع فتعمل فيه عمل السحر . ونحن لا نشك في أن هذا هو شعور القارئ لقول المرقش الأكبر :

سرى ليلا خيال من سليمى فأرقنى وأصحابى هجود^(٦٩)
فبت أدير أمرى كل حال . وأرقب أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفى لنار يشب لها بذى الأوطى وقود
حواليها مها جم التراقى وأرام وغزلان رقاد^(٧٠)
نواعم لا تعالج بؤس عيش أوانس لا تروح ولا ترود
يسرن معا بطاء المشى بدا عليهن المجاسد والبرود^(٧١)
فما بالى أفى ويخان عهدي وما بالى أصاد ولا أصيد

ونحن نعتقد أن قدراً كبيراً من إعجابنا بهذه الآيات يعود إلى اتصالها الوثيق بعواطف مشتركة بين الناس جميعاً ، ولكننا لا نشك في أن قسماً كبيراً أيضاً من هذا الإعجاب يرجع إلى ما فيها من موسيقية . وأن هذا الإعجاب كان يمكن أن يضعف أو يتلاشى لو أن تلك العواطف قد صبّت في عبارات معقدة تنقصها السلاسة والعدوبة والموسيقية . وحتى لا يخذع القارئ فيظن أن التأثير كله أو معظمه عائد إلى موضوع الشعر فقط نثنى بقول أبى العلاء :

حياة عناء وموت عنا فليت بعيد حمام دنا^(٧٢)
يد صفرت ولهة ذوت ونفس تمت وطرف رنا
وموقد نيرانه فى الدجى يروم سناء برفع السنا

(٦٩) المفضليات ص ٢٣ .

(٧٠) جم جمع جماء كحمر وحمراء ، وهى التى غطى اللحم عظمها ، والتراقى جمع ترقوة بفتح فسكون فضم ففتح ، وهى أعلى الصدر فى مقدم العنق

(٧١) مجاسد . جمع مجسد بصيغة اسم المفعول ، وهو الثوب المصبوغ بالمجاسد أى الزعفران - البرد : الثوب المخطط بد . جمع بداء كحمر وحمراء . وهى الغليظة المخندين .

(٧٢) اللزوميات ص ٥٩

يحاول من عاش ستر القميص وملء الخميص وبرء الضنا
ومن ضمه جدث لم يُبَل على ما أفاد ولا ما اقتنى (٧٣)
يصير ترابا سواء عليه مسّ الحرير وقطعن القنا

فبالرغم من أنها تدور حول الموت فإننا على يقين من أن قارئها سيطرب لها سواء كان من عشاق الموت أو الحياة ، وأن جزءاً كبيراً من ذلك الإعجاب يرجع إلى موسيقيتها . وقد أشرنا في أول هذا الفصل إلى الشروط التي تتعاون على جعل الشعر موسيقياً وهي الوزن السليم وفقاً لبحر خاص من البحور المعروفة لدارسي العروض مع خفة القافية واتحاد الروى . ولكن هذه جميعاً قد لا تحقق سوى أدنى مراتب الموسيقية كما سنرى في الشعر المتكلف المصنوع ولا بد أن ينضم إليها أمور أخرى للارتفاع بالشعر إلى أعلى المراتب في هذه الناحية ، منها صدوره وعلى عاطفة جياشة وجريانه مع الطبع وخفة بجره (٧٤) ووضوح معانيه . ولعل أبرز شيء في القصيدة التي بين أيدينا بعد خفة بجرها ، ما نراه من اختيار مفرداتها بحيث يتفق معظمها مع التفعيلات العروضية كما هو واضح بأدنى ملاحظة .

أما الآثار السيئة التي يمكن أن تعزى إلى حرص الشعراء والنقاد على موسيقى الشعر فأهمها احتفاظه بالوعاء الشكلي الذي ورد عن الجاهلية من اتحاد الوزن والروى مع تشابه القوافي في القصيدة الواحدة (٧٥) وقد بلغ من عناية الشعراء والنقاد بالقوافي واحتفالهم لها أن قالوا : « إن حظ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت (٧٦) » .

وما من شك في أن هذه الأمور جميعاً ، رغم إسهامها في تحقيق الموسيقية تشبه السلاسل والأغلال التي تعوق الشاعر أحياناً عن متابعة ما يدور برأسه من أفكار ، أو يعتلج في صدره من عواطف ، لأن جزءاً كبيراً من نشاطه الفكرى يضع في ملاحظتها . ولعل الروى بخاصة أسوأها أثراً ، وأثقلها حملاً ، فإن الشاعر العربى

(٧٣) حذف الألف للتخفيف وعلى غير قياس (تاج العروس . مادة بلى)

(٧٤) لاشك أن بعض البحور أخف من بعض . وهذا هو السبب في تسميتهم المتدارك بالبحر المرقص .

(٧٥) وقد وضع النقاد وعلماء العروض كثيراً من الشروط التي تضمن تشابهها في جميع أبيات القصيدة .

(٧٦) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٦ .

ربما قصّ أغصاناً مثمرة من الفكر ، أو غيّرها ، بل ربما ضحّى بها جمعاء في سبيل المحافظة على وحدة الروى .

ولا يعلم أحد غير الله تعالى ما كان يمكن أن ينتهى إليه الشعر العربى من حيث اتساع الأغراض ، وقوة الأداء لو أنه صادف من أبنائه ما صادفه الشعر الإنجليزى على عهد إليزابث من مارلو الذى استطاع أن يحرره من وحدة الروى ، وبذلك مهّد لظهور الشعر المسرحى على يد شكسبير . حقيقة حاول الشعراء العباسيون كأبى العتاهية فى أرجوزته ، وأبان اللاحق فى نظمه لكتاب كليله ودمنة أن يحطّموا هذا القيد ، ولكنهم لم ينجحوا لشدة اعتزاز الأذن العربية بالروى . ونحن لا نشك فى أن هذه الفكرة لو اعتنقها شاعر فحل كالمتنبى لكان أبعد أثراً من هذين وأشباههما ولعل هذا الميل الطبيعى بين شعراء العربية ونقادها إلى المحافظة على موسيقى الشعر كان الصخرة التى تحطمت عليها محاولة أبى تمام تجديد الشعر العربى فى معانيه وأصباغه التى تستمد ألوانها من المحسنات البديعية . فقد كان غوّص أبى تمام على المعانى ويبحثه عن المحسنات صارفاً له عن العناية بموسيقى الشعر مما أضعف تحمّس الناس له ، بل أثار النقد عليه . وأكبر الظن أن عناية البحترى بموسيقى الشعر عناية فائقة لم تكن مجرد مصادقة ، بل كانت محاولة موفقة منه لاستغلال الظروف السائدة وتحويل ثورة النقد على أبى تمام إلى عاصفة من التصفيق له وقد نجح فى ذلك أيما نجاح ، وكان مما أثر عنهم فى بيان سبب تعصبهم له أنه يحافظ على عمود الشعر ولم يحدّوا بالضبط ما هية ذلك العمود وأوصافه إلا أننا نستطيع الاهتداء إليه بتتبع أبرز الخواص التى يمتاز بها شعر البحترى من جهة والتي يلتقى فيها مع شعراء الجاهلية من جهة أخرى وقد وجدنا بعد البحث الطويل أن أول ما يصادف المرء فى ذلك الصدد الطبع والموسيقية .

بناء القصيدة

ونختم حديثنا عن الشعر الجاهلي ببيان الخطوط العريضة في بناء القصيدة الجاهلية . ولعل أول ما ينبغى التنبيه عليه هنا أن الشعر الجاهلي كأخيه الإسلامي لم يرو جمعه في صورة قصائد مطولة ، بل منه مقطوعات قصيرة أنشدت في مناسبات غير خطيرة . أو اكتفتها السرعة ، فلم يشأ أو لم يتمكن الشاعر من إعطائها ما تستحقه من عناية واهتمام ، ومنه قصائد مطولة جمع لها الشاعر شعاب نفسه واستغل فيها فته ومواهبه إلى أبعد حدود الاستغلال . والنوع الثاني هو موضوع بحثنا الآن . أما الأول فليس له بناء خاص جدير بالدراسة بل كان يلقي به الشاعر دون أن يلتق له بالا .

ولعل أتم صورة للنوع الثاني المعلقة العشر وإن كان بجانبها ماث من القصائد الطويلة الرصينة الجديرة بالدراسة . وأول ما يلاحظ على القصائد الجاهلية بدؤها بالوقوف على ديار الحبيبات بعد رحيلهن ، والدعاء لها حيناً والبكاء عليها أحياناً ، ووصل ذلك بالحنين إلى صواحبه ، واستعراض شيء من ذكريات الشاعر عنهن ، أو علاقته بهن ، يمثل هذا يبدو معظم الجاهلين قصائدهم مسرفين أو مقتصدين . ثم يفترون بعد ذلك وفقاً لمشاربهم . فامرؤ القيس مثلاً ينتقل من التشبيب إلى الصيد وما التبس به من وصف الخيل .

وطرفة يذكرنا بأن له هواية غير الصيد وهي الضرب في عرض الصحراء على ظهر ناقته التي يسرف في الحديث عنها إسرافاً يضيق به من لم يألف الشعر الجاهلي . وبعد الفراغ منها يأخذ في غرضه الأصلي ، من الفخر بنفسه ، والدفاع عنها أمام لائمه على شربه وتبذيره .

على أن هناك أمثلة قليلة لمعلقة أو قصائد بدئت بالغزل والتشبيب دون تعرض للأطلال والدمن كمعلقة عمرو بن كلثوم . ونوع ثالث وإن كان أقل من القليل لم

يتعرض فيه صاحبه للتشبيب إلا تائباً منه مستغفراً . وقد استبدل به وبالأطلال
وصف الطبيعة والصيد من ذلك إلى المدح . ونشير بذلك إلى قول زهير بن أبي سلمى
يمدح حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى .

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعُزِّي أفراس الصبا ورواحله (٧٧)
وأقصرت عما تعلمين وسُدَّت
على سوى قَصْد السيل معادله
وغيث من الوسمى حُوّ تلاعه
أجابت روابيه النَّجاء هواطله (٧٨)
هبطت بممسود النواشر سابح
مُمر أسيل الخد نهْد مراكله (٧٩)

فأنه يستمر بعد ذلك في وصف حصانه رابطاً بين ذلك وبين الصيد ثم يخلص إلى
غرضه من مدح حصن بن حذيفة . ولندع هذه الأمثلة النادرة جانباً ، ونقدم
لنسأل أنفسنا عن السبب في حرص الشعراء الجاهليين على أن يبدؤا قصائدهم
بمقدمات تمهيدية خارجة عن الموضوع الأصلي الذي قد يكون مدحاً أو فخرأً أو
نحوه ، ولماذا لا يهدفون إلى الغرض الأساسي من القصيدة مباشرة ثم لماذا كان
النسيب وذكر الديار البالية أحب الموضوعات إليها ، وأخيراً ما الضرورة إلى ذكر
الناقة والصحراء بحيوانها ونباتها ؟

لقد نقل ابن قتيبة (٨٠) عن ناقد لم يذكره إجابة لهذه الأسئلة نذكرها مع
الاختصار قال « سمعت بعض أهل العلم يقول إن مُقَصِّد القصيدة إنما بدأها بذكر

(٧٧) ديوانه ص ٢٤ ،

(٧٨) الوسمى: أول المطر - التلاع: مسایل الماء - حو: جمع حواء ، أى أن أطراف النبات سوداء من
شدة الخضرة والخصب .

(٧٩) ممسود: مفتول - النواشر: جمع ناشرة وهو عصب الذراع - المر: المحكم - المراكل: جوانب
الفرس التي تركلها رحل القارس - نهْد: ضخم .

(٨٠) الشعر والشعراء ص ١٤ .

الديار فشكا وبكى ليجمع ذلك سبباً لذكر أهلها ثم وصل ذلك بالنسيب ليميل نحوه القلوب ويستدعى إصغاء الأسماع إليه لأن النسيب قريب من النفوس . فإذا تأكد من إصغاء الناس إليه عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهرة وإنضاء الراحلة فإذا علم أنه أوجب على صاحبه حق الرجاء بدأ في المديح فهزه على السباح وفضله على الأشباه .

وفي رأينا أن إجابة ابن قتيبة جزئية وجانبية ، لأنه إن أمكن في ضوءها تحليل قول الأعشى في مدح الرسول ﷺ .

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمداً	وبتَّ كما بات السليم مسهداً ^(٨١)
وما ذاك من عشق النساء لأتني	تناسيت بعد اليوم خلة مهديدا
ولكن أرى الدهر الذي هو خائن	إذا أصلحت كفاي عاد بأسداً
شباب وشيب وافتقار وثروة	فله هذا الدهر كيف تردداً ؟
وما زلت أبغى المال مذكنت يافعا	وليداً وكهلاً حين شبت وأمردا
وأبهذل العبس المراقيل تغتلي	مسافة ما بين التجير فصر خدا ^(٨٢)
ألا أيها السائر ابن يَمَمْت	فإن لها في أهل يثرب موعدا
فأليت لا أرى لها من كلاله	ولامن حتى حتى تلاقى محمداً ^(٨٣)
متى تُناخى عند باب ابن هاشم	ثُرِيحى وتُلْقَى من فواضله يدا ^(٨٤)
في يرى مالا يرون وذكره	أغار لعمرى في البلاد وأنجداً ^(٨٥)

حيث تدل روح القصيدة وهذا المزج بين الأسفار وحب المال أن الشاعر كان حريصاً على أن يلفت نظر الرسول إلى الغرض من تحمله هو وناقته المشاق . أو أمكن بها تحليل كثير من قصائد المدح التي جاءت بعد عصر الأعشى كقول جرير في عبد الملك مثلاً : -

(٨١) ديوانه ص ١٣٥ - الأرمد : الذي يشكو وجعا في عينه - السليم : الذي لدغته الحية - . .
(٨٢) المراقيل : التي ترقل في سيرها أى تسرع - تغتلي : تسرع - التجير : مكان بمحرموت - صرخذ : مكان الجزيرة .

(٨٣) الكلاله : الكلال والتعب .

(٨٤) أراح : رجعت إليه نفسه بعد الإعياء . تنافى : مبنى للمجهول .

(٨٥) أغار : سار إلى الفور وهو ما انخفض من الأرض ، وأنجد : سعد النجاد وهي المرتفعات .

أتصحو أم قوأك غير صاح عشية همَّ صبحك بالروح
حيث يذكر عدة أبيات في الغزل ثم ينتقل إلى ذكر رحلته باختصار فيقول : -

سيكفيك العواذل أرحبى هجانُ اللون كالفرْد اللّياح^(٨٦)
يعزُّ على الطريق بمنكيه كما ابتك الخليع على القдах^(٨٧)

فإنه لا يمكن في ضوءها ولا ظلالها تعليل كل ما ورد من ذلك قبل عصر الأعشى وإخوانه قبل أن يصير الشعر مرتزقا وطريقا لكسب المال والثروة . بل ولا تعليل ما جاء بعد ذلك من أشعار في غير المدح من أغراض كالغفر والمهجع . إذن فالمسألة في حاجة إلى نظرة أشمل وتوجيه أدق (وهذا ما نستعين بالله عليه) وإليك رأينا في هذا الصدد : -

يظهر أن الشعر العربي كما يفهم من اشتقاقه بدأ أول الأمر في صورة نجوى بين المرء ونفسه يترجم بها عن مشاعره ، ويتغنى فيها بآماله وآلامه . وعواطفه ونزعاته كلما طال عليه الليل . أو امتد به الطريق ، فيحيل تلك المشاعر والعواطف أُلحانا عذبة ، وأغاريذ شجية . وأى شيء أحب إلى نفسه وألصق بفؤاده من حبيبته يسترجع ذكرياته معها حلوها ومرها ، أو يبثها هواه وشكواه ، إن قدر له أن يلقاها أو يلتقي من يلقاها فإن حال الزمان بينهما فارتحلت عن ديارها على عادة البدو ، لم يجد سوى الربع الخالي يروى أرضه بدموعه حيناً ، ويسأله عن الحبيبة الراحلة أحيانا ، ويتلمس في جوانبه موطئ أقدامها ، ومضجع جنبها . فلذا أعياه التماسها هناك ، التمس صورتها في وجه القمر ، وتسمع حديثها في هديل الحمام ، وتنسم أنفاسها عند الأصائل والأسحار .

ومن يدرى لعل الشاعر العربي لم يكن يبكى حبيبته أو يرثى لعشها المهجور فقط ، بل كان يبكى من حيث لا يشعر ذلك الحظ التعس الذي مُني به هو أمثاله من البدو حين فرضت عليهم ضرورة الحياة ، ألا يزالوا متنقلين على رقعة الصحراء

(٨٦) أرحبى: نسبة إلى فحل لبني أرحب من همدات - الفرد : الثور المنفرد - اللياح : الأبيض .

(٨٧) يعز : يشتد - الخليع المقامر - القдах : سهام الميسر .

كانهم قطع الشطرنج ، تاركين في كل مكان فلذة من أكبادهم وقطعة من تاريخهم ، فهم دائماً غرباء وهم دائماً على سفر ، في اجتماع وافتراق ، ووصل وهجران ، مختارين حيناً ، ومكرهين أحياناً .

ولست أدرى مدى ما يمكن أن يكون في قولنا من صواب ، إذا ذهبنا إلى أن ارتباط الرجل العربي بالمرأة من جهة وبالبيت من جهة أخرى أقوى مما نتصور . فلم يكن عبثاً أن يقول الله تعالى وهو العليم بسرائر خلقه « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً » ويقول في آية أخرى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها » .

إن الشيء الذي يمكن أن يهدينا إليه مجموع هاتين الآيتين هو أن المرأة تمثل في حياة العربي بعامة والبدوي بخاصة عنصر الاستقرار النفسي والحسي الذي كان يود بجدع الآلف أن لو أدركه في بيئته المضطربة القلقة : أليس خباؤها هو المكان الوحيد الذي يأوي إليه من كل تلك الصحراء العريضة حين يفرغ من مشاكل البادية التي لا تنتهي فيصادف فيه نوعاً من الراحة والاطمئنان ، أليست الحياة دائماً في تجدد وتنكّر أمامه إلا وجهها ينظر إليه كلما دارت به الحياة ، فيدرك أنه لا يزال في يده شيء جوهرى من ماضيه العزيز يمكن أن يبنى عليه مستقبله ، ثم يستأنف رحلته في طريق الحياة الذي لا ينتهى إلا حيث ينتهى جميع الأحياء ، وهذا هو السرفى تعلقه بها ، وحنينه إليها ، وربطه بينها وبين الديار ، ديارها أولاً ، وديار الجنس المشرّد ثانياً وإذن فنحن نظلم العرب ، ونسئ إلى الشعر العربي ، حيناً نقول أن حب العربي للمرأة كان حب الجسد للجسد فقط ، فلو كان كذلك لما طال بهم الحنين إليها . فأشد الناس شغفا بالجسد أسرعهم نسياناً له حين يختنى عن نظره . ونظلم الحقيقة حيناً ندعى أن العرب أهانوا المرأة بتريد ذكرها في مطالع قصائدهم^(٨٨) .

شغل العربي إذن بنفسه وعواطفه أول الأمر ، وكانت المرأة وديارها أهم تلك

(٨٨) الشعر الأندلسى ص ٥٧ .

العواطف وأكثرها جريانا على لسانه^(٨٩) وقد حسن موقع أغانيه تلك من نفسه ومن نفوس السامعين ، وظهر تأثير الشعر على النفس البشرية ، فوجدت فيه القبيلة سلاحاً هاماً تدافع به عن نفسها في السلم والحرب ، واستعمله الشاعر رافعاً من شأنها ، واضعاً من شأن أعدائها ، وظل مع ذلك يبدأ بنفسه أول القصيدة ، متحدثاً كما كان يفعل من قبل عن مشاعره وعواطفه وأى خير فيه وفي شعره إن لم يكن له منه نصيب الأسد . بدأ الشاعر بنفسه اعتزازاً بها وبعواطفها من جهة ، وجرياً على قديم عاداته من جهة أخرى ، ولكنه مالبث أن أدرك بوضوح أن مثل هذا البدء يخدم غرضه الجديد^(٩٠) من ناحيتين أولاهما أن يقوى انفعاله ، ويدكى شاعريته ، ويرضى شيطانه ، فيمده بكل جديد وعجيب من المعاني والأفكار .

ثانيهما : أنه يخدر السامعين ويسحرهم بتلك العواطف الإنسانية العامة التي يرى فيها السامع صورة من عواطفه ومغامراته ، فتأخذه هزة ونشوة تنسيه المنطق الجاف ، بل والوقار والتعقل ، وتجعله أداة طيعة في يد الشاعر يوجه بها كيفما شاء ، فإن كانت دعوته إلى حرب هب القوم إلى سلاحهم فلبسوه ، وإن كانت إلى سلم عادوا إليه فخلعوه .

وبما قدمنا من أن تأثير هذه المقدمات مزدوج يتناول الشاعر والمستمع كليهما ، يبدو ما في تحليل ابن قتيبة من قصور ، حيث يفهم منه أن المتأثر هو السامع فقط ، ومن أجله حيكت تلك المقدمات ، ولكي نزيد الأمر وضوحاً نضرب مثلاً بالمقدمات الموسيقية التي تُعزف بين يدي الأغاني عند إنشادها . أيتأثر بها الجمهور المستمع فقط أم يشاركه المغني والمغنية ذلك الشعور؟ أكبر الظن أن جميع من شاهد المحافل الكبرى يؤكد معنا اهتزاز المغنين والمغنيات الشديد لتلك المقدمات مثل الجمهور تماماً ، بل أكثر وأعمق من الجمهور . وأكبر الظن أنهم بدون تلك المقدمات قد لا يحسنون الغناء ، بل ولا يستطيعونه .

(٨٩) إن معلقة امرئ القيس صورة مكبرة لذلك النوع الذي لم يفكر فيه الشاعر فيما وراء نفسه ، ولم يشغل بما وراء عواطفه . وهذه المعلقة تعتبر فريدة من هذه الناحية بين بقية المعلقات التي لم تحل من غرض هام بجانب اللهو والمرح ولعل السبب في ذلك أن امرئ القيس أنشدها في الفترة الأولى من حياته التي وهبها للذة وللشيطان ، ولم يكن أثناءها يحمل بما سواها من أمور الحياة .

(٩٠) العناية بشئون قبيلته .

على أن الظروف قد تجعل هذا الغزل ضرورة في بعض المواقف كما هو الحال في نقائض جرير والفرزدق فإن فيها كثيرا من السباب والترامى بالتهم وهذه الأمور يتقل على النفوس الأخذ فيها ابتداء ، وكأنتى بجرير حين يقول :

بكرت حمامة أيكة محزونة تدعو الهديل فهيجت أشجاني
لازلت في غلل يسرك نافع وظلال أملس وارف الأغصان

كأنتى به يخذل الأعصاب ، ويستميل الأسماع حتى تتجاوز عما يمكن أن يأتى به بعد ذلك من إبداء للذوق العام بهجومه على عرض خصمه ، ونهشه للحمه (٩١) .

وتدخل الظروف أحيانا لتخرج أحاديث الدمن والأطلال عن دورها التقليدى وتجعل منها موضوعا حيا ، ومن أبرز النماذج في هذا الصدد معلقة عنتره العبسى ، حيث استغل المقدمة الغزلية في تأليف قلوب بنى ذبيان النافرة ، وذكرهم بما بينهم ، وبين أبناء عمهم العبسيين من روابط عاطفية ، وعلاقات إنسانية ، وذلك حين راح يبكى في إثر فتاة ربط الحب بين قلبها وقلبه برباط مقدس ، ثم جاءت الحزازات الشخصية لتمزق تلك القلوب الغضة دون رحمة أو إشفاق ، وذلك إذ يقول :

وتحلّ عبلة بالجِواء وأهلنا بالَحَزْنِ فالصِّمَاءِ فالمتسلّم
حلّت بأرض الزائرِين فأصبحت عسيرا على طِلابك ابنة مَحْزَمِ (٩٢)
علّقها عَرَضاً وأقتل قومها زعماً لَعَمْرُأبيك ليس بمَرْعَمِ (٩٣)

(٩١) وفي هذا المعنى يقول ابن الرومى (ديوانه ١٣٥ ، تصنيف كيلانى)
ألم تر أننى قبل الأهاجى أقدم فى أوائلها النسيب
لتخرق فى المسامع ثم يثلو هجالى محرقا يكوى القلوبا
كصاعقة أنت فى إثر عيث وضحك البيض تتبعه النحيا
بمى بالشر الأخير أن السيوف حين تلمع كالضاحكة فى الحروب تنسب فى القتل ، وما ينعه من بكاء أهل الصحايا .

(٩٢) الزائرِين: الأعداء أى بنو دبيان ، شبههم بالأسود الرائرة ، وهذه خصومة شريفة .
(٩٣) علّقها بالبناء للمجهول: أحبّتها ، عرضا: دون تفكير أو تدبير سابق من جانبها أو جانبى ، وإنما نص على ذلك انقاء للغيرة الشديدة عند العرب ، أو ليشير إلى عنف جمالها ، حيث يسلب الإرادة من أول نظرة . زعما =

وقريب من هذا قول الحرث بن خِزلة في مطلع معلقته :

أذنتنا بسبتها أسماء رب ثاوٍ يمل منه الثواء
بعد عهد لنا يبرقة شمًا ۞ فأدنى ديارها الخُلصاء
فالمُحيَاة فالصَّفاح فأعنا ق فتاق فعاذبُ فالوفاء
لا أرى من عهدت فيها فأبكي اليوم ذلّها وما يردّ البكاء ؟
فتنوّرت نارها من بعيد بخزّارى هيات منك الصّلاء

أو قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

أقترت من عبد شمس كدّاء فكُدّي فالركن فالبطحاء
فنى فالجار من عبد شمس مقفرات فبلدح فحراء
فالخيام التى يعصفان فالجحفة منهم فالقاع فالأبواء
موحشات إلى تعاهن فالسقى قفار من عبد شمس خلاء
قد أراهم وفى المواسم إذ يغدون حلم ونائل وبهاء
إلى أن قال :

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرق أمورها الأهواء

فهذا الإسراف في ذكر الأماكن يدل على أن للشاعر غاية من ورائها أسى وأعمق من المحافظة على بناء القصيدة ، وغرض ابن قيس الرقيات واضح فهو يتفجع على مجد قريش . ثم يوازن بين عبد شمس وحفدتهم الأمويين فيذكر أن الأوائل كانوا أبر بالحجار وأهله من الأواخر فهؤلاء جمعوا قريشا تحت لواء واحد وأولئك فرقوا كلمتها وضيعوا وحدتها ونقلوا الخلافة من الحجاز إلى الشام في أحضان القبائل اليمنية المنتشرة هناك .

فاستعراض الأماكن المذكورة هنا يراد به إثارة الماضي حيث يمثل كل مكان مجموعة من الذكريات العزيزة على نفس كل حجازي وقرشي فهو أشبه بتلك المناظر

= لعمر أيك النخ : أى إن جبي لها . وطمعى فى وصلها رغم ما بين أهلى وأهلها من حروب خرافة حالم وهذيان محموم

التي تمر بخيال الحالم كلما عاد بذاكرته إلى الماضي . أو بلغة العصر الحاضر هو أشبه بتلك الصور والمناظر التي يقحمها مخرجون من رجال الخيالة فيما بين أيديهم من قصص فيقطعون بها سير الحوادث كلما أرادوا العودة بأبطال القصة والنظارة معهم إلى ماض بعيد ،

وأكبر الظن أن الحرث بن حنظلة لم يكن مشغولاً أثناء تعداده لهذه الأماكن بحبيته أسماء رغم الربط الظاهري بينها وبين تلك الديار ، بل كان مشغولاً بقومه وقبيلته . ولعله كاهن قيس الرقيات كان يشير إلى ما مضى من زمن كانت تغلب وبكر فيه أخوين متواصلين غير متقاطعين ، متقاربين غير متدابرين ، ويؤكد هذا قوله يعقب ذلك :

لا أرى من عهدت فيها فأبكي
اليوم دُلهاً وما يفيد البكاء

فإن اللاشعور قد فضحه في هذا البيت أراد أم لم يرد (٩٤) .

هذا ما كان من شأن المرأة وما يتصل بها من دمن وأطلال . والآن ما شأن الناقة والصحرَاء والرحلة والأسفار ؟ لقد رأينا صورة من ذلك في شعر الأعشى وجريز ، واتخذنا منه نموذجاً للمتكسبين بأشعارهم . فماذا كان موقف الناقة قبل أن يصير الشعر مطية لكسب المال ؟

أخطرت في شعر الأوائل من الجاهليين ، وما كان الغرض من ذكرها مع أنهم لم يكونوا إذ ذاك أمام سادة يمدحونهم ، ويعرضون لهم بما تحملوه في سبيل الظفر برؤيتهم من مشاق وأهوال ؟ وجواب ذلك أن أحاديث الناقة والضرب بها في عرض الصحرَاء وكبد البادية قد ورد كثيراً في شعر الجاهليين الأوائل على أنه نوع من تلك المغامرات الحبيبة إلى نفوسهم . فهم يستعدون بذكر الناقة والصحرَاء عصر المخاطرة

(٩٤) ذكر الدكتور عبد الله الطيب الأستاذ بجامعة الخرطوم في محاضرة له بجامعة مانستر أن حنظلة لم يكن يبكي فراق تغلب ، بل يبدي سعادته برحيلها ، معتمداً على قوله « رب تاو ميل منه الثواء » ونحن نرى أن هذه العبارة تحتمل تفسيرات كثيرة ، منها مثلاً « لعل أسماء لسؤ حطنا قد ملت الثواء قريباً ما »

والشعر والشباب الذي تركوه وراء ظهورهم . وهو لذلك جزء مكمل لما بدأه الشاعر من الحديث عن عواطفه وذكرياته أثناء الحديث عن المرأة . وهذا هو السبب في أن مالك بن الريب وقد حضرته الوفاة بمرور بعيداً عن دياره بجزيرة العرب قد لخص أمانيه من الحياة في بيتين (٩٥) :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة
بجنب الغضى أزجي القلاص النواجيا (٩٦)
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
ومثله قول جميل بثينة :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة
بوادى القرى إلى إذن لسعيد (٩٧)
وهل أزجن حرفاً علا شملة
بخرق تباريها سواهم قود (٩٨)
على ظهر مرهوب كأن نشوزه
إذا جاز هلاك الطريق رقاد (٩٩)
وهل أهبطن أرضاً تظل رياحها
لها بالشنايا القايات وثيد (١٠٠)

والتأمل في شعر الأوائل من الجاهليين يدرك صدق ما قدمناه ألا ترى طرفة مثلاً

(٩٥) ذيل الأمالي ١٣٥

(٩٦) أزجي القلاص النواجيا . أسوق الأبل السريعة

(٩٧) الأمالي ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٩٨) حرف: ناقة ضامرة - العلا: الناقة المشرفة - الشملة السريعة - الخرق: الفضاء الواسع - سواهم

ساهمة بمعنى ضامرة - قود : طيعة ، منقادة : جمع قوداء ، كسود وسوداء

(٩٩) نشوره: جمع نشز (فتح الشين وسكونها) وهو المكان المرتفع عما حوله - هلاك الطريق: المسافرون

سلك لهلاك فيه ، أى أقطع هذه الناقة طريقاً تبدو ونشوره حين أمرها وكأنها قوم يام .

(١٠٠) الثنايا: المعطفات - القايات: الحالبات - وثيد صوت .

ينوب في قصيدته الرائية بعد أن فرغ من التشيب حييته هو :

وبلا زعل ظلماتها

كالخاض الحرب في اليوم الحذر^(١٠١)

قد تبطنت وتحتى جسة

تتقى الأرض بملثوم معر^(١٠٢)

فترى المرو إذا ما هجرت

عن يديها كالفراش المشفر^(١٠٣)

ذاك عصر وعداني إنتى

نابنى اليوم خطوط غير سر

من أمور حدثت أمثالها

تبتري عود القوى المستمر^(١٠٤)

أُلت ترى أن البيتين الأخيرين يمكن أن يبسطا على النحو التالى : تلك أيام
عذبة جميلة مضت لسيلها ولن تعود ، فقد حلّ في اليوم من هموم الحياة ومشاغلها
ما حال بينى وبين المتعة والأسفار ، ويروى ذكر الرواحل مقتراً باللهو والهوى
والشباب في قول زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطلة

وعرّى أفراس الصبا ورواحله^(١٠٥)

على أن امرأ القيس قد قطع كل جدل حول هذا الموضوع بأبياته التى عدد فيها
هوايته في الحياة وجعل الضرب بالعيس في مناكب الأرض لمحاذاها ، وذلك إذ
يقول :

(١٠١) ديوانه . زعل : نشيط - ظلمان . جمع ظلم وهو الذكر من النعام - المحاض : الحوامل من البوق
الحذر : الشديد البرد .

(١٠٢) تبطنت : صرت في بطنها أى جست خلالها - حسة : ناقة عظيمة - معر : ذهب شعره

(١٠٣) المرو : الحجارة البيض - هجرت : سارت وقت الهجرة - المشفر : المتفرق .

(١٠٤) المستمر : ماض في شأنه لا يضعف ولا يلين .

(١٠٥) ديوانه (المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٣هـ) ص ٢٦ .

فأصبحت ودعت الصبا غير أننى
أراقب خللات من العيش أربعا^(١٠٦)
فتمن فولى للسندامى ترفقوا
يداجون نشاجاً من الخمر مترعاً
ومنهن ركض الخيل ترجم بالقنا
يبادرن سربا آمنا أن يفزعا
ومنهن نص العيس والليل شامل
ييمن مجهولا من الأرض بلقعا^(١٠٧)
خوارج من بريّة نحو قرية
يجدّدن وصلا أو يرجّين مطمعا

ومازال منظر الإبل وقوافلها يسحر الشاعر الأموى كما كان يسحر سلفه فى
الجاهلية فترى كثير عزّة فى معرض قسمة لها يرسم لنا لوحة بديعة لقافلة من الإبل
تسير بالحجيج إلى مكة رسماً يدل على رقة ومشاركة وجدانية فيقول :

حلفت برب الراقصات إلى منى
خلال الملا يمددن كل جديد^(١٠٨)
تراها رفاقا بينهن تفاوت
ويمددن بالأهلال كل أصيل^(١٠٩)
تواهقن بالحجاج من بطن نخلة
ومن عزور والخبت خبت طفيل^(١١٠)

(١٠٦) ديوانه ص ١١٢ .

(١٠٧) العيس . الأبل - نصها سوقها .

(١٠٨) الأمل ج ٢ ص ٦٣ الراقصات : اللون لأنها تهتز فى سيرها كأنها ترقص - الملا : الفضاء - الجديد :
الرمام لأنه مجدول أى معتول .

(١٠٩) الأهلال : قول (لا إله إلا الله) فلهلله يريد أن هذا الأهلال يفعل فيها فعل الحذاء فتسرع فى سيرها
وقت الأصيل .

(١١٠) تواهقن . تبارين - بطن نخلة ، عزور ، خبت طفيل أماكن بعضها .

بكل حرام خاشع متوجه
إلى الله يدعوه بكل نقي (١١١)
على كل مدعان الرواح معيدة
ومخشية ألا تعيد هزيل (١١٢)
شوامذ قد ارتجن دون أجنة
وهوج تبارى في الأزمة حول (١١٣)

وأخيراً أليست الناقة شريكة العربى في مسراته وأحزانه ومعوانه على بلوغ مآربه
وإمضاء همومه . وبذا قويت الرابطة بينهما حتى ليكاد يناجيهما بخلجات نفسه
وتناجيه . استمع إلى قول عروة بن حزام ، وقد ترك اليمن خلفه واتجه نحو العراق في
طلب حبيته وابنة عمه ، ثم انظر كيف يمزج بين عواطفه وعواطف ناقتة ، إن صح
أن للنوق عواطف وأهواء .

هوى ناقتى خلنى وقُدَّامى
وأنى وإياها لخلفان
هواى عرافى وتثنى زمامها
لبرق إذا لاح النجوم بمان
من تجمعى شوق وشوقك تظلمى
ومالك بالعبء الثقيل يدان (١١٤)

(١١١) الثقيل : الطريق .

(١١٢) المدعان : المذلة - معيدة : عاودت السير .

(١١٣) الشوامذ : الشانلات الأذئاب - حول جمع حائل وهى التى لاتلقح .

(١١٤) ظلع البعير غمز في مشيه لداء في قوائمه .

الباب الثاني

في صدر الإسلام ، وعصر بني أمية

ويتكون من فصلين ، أولهما في أسباب جمود الشعر في العصرين المشار إليهما
آثفا ، وثانيهما في مظاهر ذلك الجمود في العصر الأموي

الفصل الأول

في صدر الإسلام :

إن الشعر مثل غيره من الفنون والآداب يركد ويكسد حين تركز الحياة ، ويخطو
إلى الأمام حين تتطور الحياة وتتجدد بما يطرأ عليها من أحداث داخلية ، أو اتصالات
خارجية .

فلننظر إلى الإسلام ، أيمن أن يسمى حدثاً هاماً ؟ الذي لا شك أنه لم يكن
حدثاً وكفى ، بل ثورة ، يضاء هادئة ما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، حمراء صارمة ما
أعوزها الصبر ، وأعتيا الحيل ، ثورة على الأوضاع الاجتماعية الظالمة ، والأنظمة
السياسية البالية ، والخرافات الدينية المزرية .

لم تكن ثورة هوجاء أو عمياء ، بل ثورة متعلقة لها فلسفتها العملية والنظرية ومن
خلفها كتاب مقدس يمثل أعظم ثورة أدبية أعلنها كتاب من الكتب في أية لغة من
اللغات . فإين أثر ذلك جميعه أو بعضه في الشعر العربي ؟ إننا ننظر هنا وهناك فلا
نرى شيئاً ، اللهم إلا مفردات أو شبه مفردات اقتبسها من القرآن حسان وإخوانه
من شعراء الرسول ﷺ في ردودهم على شعراء قريش ، ردود لا تكاد تختلف عن

المهجاء الجاهلى فى قليل ولا كثير. فأين الإسلام وتسامحه ، وأين صرخاته المدوية فى سبيل العدل والمساواة ، ألم يأخذ كل ذلك طريقه إلى شعراء الصدر الأول للإسلام ؟ بل أين تأثر الشعر العربى بالقرآن من حيث الأسلوب والمعنى ، أسئلة كثيرة سنحاول الإجابة عليها فيما يلى :

لم تكن العداوة بين الدعوة الإسلامية والشعر سرّاً خافياً ، فقد كان الشعراء شديدي الوطأة على الرسول ﷺ ، آذوه فى شخصه وفى أهله ، وفى دعوته وكان يود مخلصاً لو هادنهم وهادنوه . ولذا بادر بإطلاق سراح أبى عزة الجمحى عندما وقع أسيراً فى يده يوم بدر دون فدية أو أذى ولكنهم أبوا إلا على أن يحتضنوا قضية الباطل فى تحمس وإخلاص . ومع أن مؤرخى الأدب ورواته قد تخرجوا^(١) من تدوين تلك المهجمات الشعرية التى شنّها القرشيون على الرسول وصحبه ، فإننا لا نشك فى أنها كانت لاذعة ومقذعة وإلا استحل الرسول وهو الرؤوف الرحيم دماءهم ، وأعلنها حرباً عليهم لا هوادة فيها ولا مهادنة فمنهم من قتل ومنهم من ألقى السلاح ، ورمى بنفسه بين قدمى الرسول عائداً تائباً .

ولم يتخلف القرآن عن تلك الحرب فهاجم الشعراء فى أكثر من موضوع وقد رسم للشعر دستوراً لا يعتداه وحداً لا يتخطاه فى قوله « والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وظاهر الآية أن الشعر بجميع أنواعه وألوانه غير مرغوب فيه إلا إذا جرى فى ركاب الدعوة الجديدة . وقد تقيد الصحابة بتلك الآية حرفياً ، فأقسم لبيد ألا يقول شعراً ووقف الباقر موابهم على خدمة الدعوة برد هجمات قريش ؛ حتى إذا وضعت الحرب الأدبية بين قريش والرسول أوزارها لاذوا بالصمت . وهكذا

(١) من العجيب أن القرآن نفسه لم يجد بأساً فى الإشارة إلى بعض ما ينسب المشركون إلى الرسول من الجنون والسحر والافتراء وعدم الانجاب . وبهذا صار الرواة ملكيين أكثر من الملك ، وضاعت تلك الآثار ، والغيل للمغلوب .

خمدت أنفاس الشعر في مكة والمدينة واضطربت قوائم عرشه في باقي الجزيرة العربية . ولعل ، الخطيئة خير من يمثل محنة الشعراء في تلك الفترة . فقد كان الشعر مرتزقه وصناعته ، أعداءها نفسه إعداداً كاملاً ، فلما جاء الإسلام شغل الناس عنه وعن شعره بالدعوة الجديدة ، وبكتابتها الذي فاق الشعر حتى كاد يكون سحراً ، فصبر مغيضاً محققاً ، حتى إذا قامت فتنة المرتدين خب فيها ووضع ، وود أن لو عادت جذعة حتى يستعيد هو وأمثاله مجدهم السالف وسلطانهم الغابر ، وقد حفظ لنا التاريخ شيئاً من شعره في ذلك الصدد وفيه يقول :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيالعباد الله ما لأبي بكر
أيورها بكرة إذا مات بعده لتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وفى المرتدون إلى ظل الإسلام الوريث ، ويعود الخطيئة معهم وعباءة الجاهلية فوق كتفيه ، وقوافيه المسمومة تتطاير هنا وهناك تطاير المريش من السهام ؛ فيضطر عمر بن الخطاب إلى إلقائه في السجن ، وتهديده بقطع لسانه حتى يكف عن الناس (٢) .

ولعل روح الدين الجديد الذي ينهى عن التعظم بالآباء ، ويحرم الخمر ، وينفر من التعرض لأحساب الناس بالهجاء ، وأعراضهم بالتشبيب - لعل كل ذلك كان سبباً في ضعف الشعر العربي بضعف الدوافع إليه . وإلا فإذا يقول الشعراء في مدائحهم وقد صار أبو هريرة وابن مسعود وبلال وغيرهم من المغمورين أكرم على الله وعلى الناس ، بفضل تقواهم من صناديد قریش وقادة العرب . ثم في أى شيء يخوض الشعراء ، وقد حرمت أهم الموضوعات التي تثير الشعور وتعين عليه ، من شرب وغزل وهجاء ونحوه ، وإذا كان الخطيئة قد زار السجن بسبب الهجاء ، فإن أبا محجن الثقفي قد زاره أيضاً في سبيل الخمر (٣) ؛ كما عزل نعان بن عدى عامل على البصرة بأبيات قالها فيها (٤) .

(٢) تهذيب الكامل - ٢ - ج - ص ١١٠

(٣) عمر بن أبى ربيعة ص ١٦٨ .

(٤) عمر بن أبى ربيعة ص ٦٦ ومن قوله فيها:

من مبلغ الحسناء أن حليلها بميسان يستقى في زجاج وحتم =

ولقائل أن يقول : فما بال الشعراء لم يتجهوا إلى الحديث عن المبادئ التي جاء بها الإسلام ، من زهد في الدنيا ، وعمل للآخرة وجهاد في سبيل الله ؟ والجواب على ذلك يتطلب الإلمام بعدة حقائق .

أولاً : أن المسلمين في الصدر الأول للإسلام كانوا على العمل أحرص منهم على القول . ولذا كانوا يرضون عواطفهم الدينية عن طريق الأول لا الثاني . وكانت فرص العمل أمامهم كثيرة بسبب الفتوح والغزوات .

ثانياً : أن سلطان الكتاب الجديد على نفوسهم كان أقوى من أن يدع لهم فرصة للتفكير في سواء وماذا كان ينقص القرآن في لغته وأسلوبه أو معانيه وأهدافه حتى يطلبوه في سواء ؟ ألم تقل عنه قريش : إنه سحر حيناً ، وشعر أحياناً . إذن فبحسب المسلم أن يتلوه آثناء الليل وأطراف النهار ، وله على تلاوته أجر كأجر الصلاة والصيام .

ثالثاً : إن لغة القرآن كانت مقدسة ومعجزة ، ولعل الجليل الأول من المسلمين قد ظنوا أن مجرد التفكير في محاسنها ، أو النسخ على منوالها يعد تحدياً لقول الله تعالى : « قل لمن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » إذا عرفت كل ذلك أدركت لماذا صمت الشعراء ، وجمد الدم في شرايين الشعر ثم أدركت بعد هذا لماذا لم يتردد صدى الثورة الإسلامية ، وروحها العالية في الشعر وأخيراً أدركت لماذا لم يحاول المسلمون محاكاة أسلوب القرآن بما فيه من محسنات بدعية مختلفة وخصائص أخرى ليس هذا مكان تفصيلها .

= إذا شئت غتني دهاقين قرية وصناجة تجلجو على كل مسه
إذا كنت ندماني فبا لأكبر اسقى ولا تسقى بالأغر المتسلم
لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمننا بالجوسق المتهدم
فلما بلغ عمر ذلك قال : أى والله إنه ليسوئى ذلك ، وعزله .

« العصر الأموى »

عرفنا أن الصبغة الغالبة على الشعر العربى فى صدر الإسلام كانت الصمت أو . يشبه الصمت . سمه توقفاً عن الحياة والحركة ، أو جموداً أو ما تشاء من الأسماء . ولكن ذاك العصر قد انتهى وانتهت معه الظروف التى أدت إلى شحوب ضوء الشعر — فالناس لا ينظرون إلى الشعر على أنه رجس من عمل الشيطان ، ثم هم لا يقفون طويلاً عند آيات القرآن ليروا ما تأمر به أو تنهى عنه^(٥) . وقامت أحزاب سياسية مختلفة من شيعة وزيريين وأمويين وخوارج . ووصل المسلمون فى الغرب إلى جبال البرانس وفى الشرق إلى الهند والصين وفى الشمال إلى أبواب القسطنطينية وسيطرت أساطيلهم على جزء كبير من مياه البحر الأبيض . واختلطوا بكثير من الشعوب والأجناس . وبالإجمال صارت لهم إمبراطورية بكل ما تتحمله هذه الكلمة من معان وأخيلة فأين كان الشعر العربى من كل ذلك أما زال يغط فى ذلك السبات العميق الذى سكن إليه خلال الصدر الأول للإسلام أم نهض منه ؟ وسؤال أشد من هذا أهمية ، وأكثر مناسبة لبحثنا^(٦) . إلى أى شطر ولى الشعر وجهه أثناء تلك الحقيقة ؟ كان الشعر العربى إذ ذاك يقف فى مفترق الطرق . فكان يستطيع أن يأخذ عن الدول التى فتحتها ، وبعضها كان أعرق حضارة من العرب ، وكان يستطيع أن يأخذ عن الدعوة الإسلامية وكتابها ، وقد كان يستطيع أشياء أخرى كثيرة إلى جانب ذلك ولكنه آثر أن يثب وثبة طويلة إلى الوراء فيعود إلى الشعر الجاهلى ينسج على منواله ، ويجرى فى ركابه بم تسمى مثل هذه الحركة إذن ؟ أنسميها جموداً لأنها إلى الوراء ، ولأن الشعر فيها جمد عند أصوله الأولى ، أم نسميها تقليداً لأنه أولع بتقليد الماضى تترك لك الخيار مرة أخرى فى أن تسميها بأحب الأسماء إليك ، وأعذبها وقعا فى آذان القارئين إلا التطور .

(٥) الإشارة هنا إلى قول الله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاؤون »

(٦) لأننا نبحت هنا عن تطور الشعر واتجاهاته لاقوته وضعفه .

فإن كنت لا محالة فاعل فلي معك حديث أرجو ألا يطول : وكأني بك تنسبني إلى الغلط أو المغالطة فيما أدعيه من تشابه تام أو شبهه بالتام بين الأمويين والجاهليين ، نتيجة لتقليد هؤلاء لأولئك . وأنا أعلم أن كتاباً قيمياً قد ألف في هذا الموضوع^(٧) وأن صاحبه قد أنفق كثيراً من وقته كي يقنعنا بأن تطوراً خطيراً قد أصاب الشعر العربي أثناء ذلك العصر ، ولكن ماذا أجده ذلك المجهود الجبار ، والجبروت لا يغني شيئاً ما دامت القضية من أساسها خاسرة .

لقد قيل لنا إن نقائض جرير مع الفرزدق والأخطل كانت بدءاً من الشعر ومن الهجاء وأن مثل ذلك أو قريباً منه يمكن بل ينبغي أن يقال في غزل عمر بن أبي ربيعة ، وحديث ذى الرمة عن البادية ، واحتجاج الكمي لآل البيت ، ونحن نعتقد أن في مثل هذا القول مخالفة كبيرة ، لا لرأى السابقين من النقاد فقط بل للشعر الأموي نفسه ، حيث لا ترى فارقاً كبيراً بينه وبين شعر الجاهليين .

ولا نقول هذا لأننا ننكر إنكاراً تاماً أن هناك فروقاً بين شعراء العهد الأموي وأسلافهم من الجاهليين ، وكيف يمكن هذا والحياة والأحياء في حركة دائبة مستمرة . ولكن الذي نحب أي ننبه إليه هو أن تلك الفروق يسيرة وهينة بحيث لا ينبغي أن تسمى تطوراً في الشعر العربي . وإنما كانت هينة لأنها لا تمس أحد الأصول التي يقوم عليها الشعر الجاهلي والتي أشرنا إليها من قبل .

والرأى الذي يمكن في ضوءه تحديد ما بيننا وبين غيرنا من تقارب أو تباعد في هذا الصدد هو أن الشعر العربي بعدما ثبتت أصوله في العصر الجاهلي كان جديراً كأي كائن حي أن يتطور ويبدأ ، وأن يلائم دائماً بين منهجه وبين الظروف التي مر بها . ولكن عواملاً خارجية كانت تتدخل من حين لآخر ، لوقف هذا التطور أو تعويقه كما حدث في صدر الإسلام وفي العصر الأموي أو لإذكاء روح التجديد والتطور كما تم في عهد بني العباس .

هذه كلمة عامة أحببنا أن نتهّد بها لحديثنا عن العصر الأموي ولو بقي أماننا
أمران :

(٧) التطور والتجديد في الشعر الأموي للدكتور شوقي ضيف .

أما أولها : فبيان الأسباب التي جعلت شعراء هذا العصر يترسمون خطا الجاهليين .

وأما ثانيهما : فبيان مظاهر وأمثلة ذلك التشابه في أشعارهم .
وسنبداً بالأول منها .

لماذا اتجه شعراء ذلك العصر

إلى الشعر الجاهلي

« من دخل الكعبة فهو آمن ، ومن دخل بيت أبي سيفان فهو آمن » يمثل هذا التكريم حاول الرسول ﷺ أن يتألف قلوب بني أمية النافرة ، وإنما نفرت لأنها كانت تعتقد أن ظهور أمر محمد سينال من ذلك المجد الذي أحرزوه في أواخر العهد الجاهلي .

ودخل بنو أمية الإسلام حين دخل الرسول مكة فاتحاً ، أى أسلموا حين لم يكن من الإسلام بد ، وخضعوا لما خضع له بقية المسلمين من سيطرة عمر وأبي بكر راغمين ، حتى ولى عثمان الأمر وهو منهم ، وإن كان خيرهم ، وثبوا إلى السلطة فشاركوه فيها ، وبذلك استردوا بعض ما كان لهم من سلطان في الجاهلية . وحين قتل عثمان كشفوا القناع عن حقيقة نواياهم وما قصة المطالبة بدمه إلا سلماً ارتقاه معاوية إلى مآربه وأطاعه ، وما حرب الجمل وصفين وتقسيم صفوف المسلمين إلا ثمرة من ثمار تلك الأطماع . أطاع لم يبق فيها معاوية على روح الإسلام إلا بقدر ما أبقى به عليها خلفاؤه من بعده حين أباحوا المدينة ، وحرقوا الكعبة .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
وكان محمداً لم يقف على منبرها منذ قليل داعياً إلى الأخوة والتسامح .

وإن دل كل هذا على شيء فعلى أن روح الإسلام لم تكن قد تغلغت في قلوب كثير ممن استظلوا بظله ، أو ساروا تحت لوائه . وبنو أمية دون شك من هؤلاء

الكثيرين . وكان معاوية بن أبي سفيان يمثل في كثير من تصرفاته شيوخ القبائل أكثر مما يمثل الخليفة الإسلامي الدّارس لأحكام الدين ، الواقف عند حدوده فهو يجمع الأنصار حوله على حساب بيت مال المسلمين . ويتصرف فيه كما يتصرف في ماله الخاص . وهو يسارع إلى التخلص من أعدائه السياسيين بالقتل ، وإن أعوزه الدليل على استحقاقهم له ^(٨) وهو يورث ابنه يزيد الملك بعد مسرحية سياسية تذكرنا بمسرحية التحكيم وبطلها عمرو بن العاص . لم يتعمق الإسلام إذن قلوب بني أمية . ومازال بها بقية من جاهلية ، والذي يهنا هو صدى تلك الروح الجاهلية في أذواقهم الأدبية ، فقد جعلتهم دائماً نحن إلى الشعر الجاهلي ، وتعود إليه من وقت لآخر لكي تجد فيه مثلها العليا في الشجاعة والكرم وما إليها ، وسيرتهم تؤيد ذلك وتؤكد . قال عبد الملك يوماً لجلسائه أى المناديل أفضل ؟ فقال قائل مناديل مصر كأنها غرقى البيض . وقال آخر مناديل اليمن كأنها نور الربيع فقال : بل مناديل عبدة بن الطيب حيث يقول ^(٩) :

لما نزلنا نصبنا ظل أخبية وقار للقوم باللحم المراجيل
ورّد وأشقر ما يأنيه طابخه ماغيّر الغلى منه فهو مأكول ^(١٠)
ثمّة قننا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل ^(١١)

لم يكن عبد الملك إذن مترفا يفكر في مناديل مصر أو غيرها وإنما كان فارسا محاربا يعيش بين مظاهر الحرب والقروسية بشخصه حيناً ، وبخياله وتفكيره أحياناً ، وهو بعد ذلك بدوى يحب البساطة فيحن إلى ظلال الخيام ويهوى الصيد والتهام اللحم على عادة البدو نيئاً أو كالتى ^(١٢) .

ويمدحه عبيد الله بن قيس الرقيات فيقول .

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

(٨) من ذلك قتل حجر بن عدى وصحبه تاريخ الفتح الإسلامي للأستاذ فخر الدين ص ٩١

(٩) تهذيب الكامل ج - ١ - ص ٣٠٤ .

(١٠) أنى يأتى كرمى يرمى : أمهل وانتظر .

(١١) ثم وثمة بفتح المثلثة اسم مكان بمعنى هنا وهناك .

(١٢) طعام نىء على وزن نيل : لم ينضج .

فيعرض عبد الملك قائلاً :

تمدحنى بالتاج كأني من ملوك العجم ، وتقول في مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء !
لم يكن عبد الملك إذن يريد أن يكون صورة من كسرى أو قيصر رغم عظم
ملكهم وقدم حضارتهم فأين كان يجد مثله الأعلى ؟ إن موقفه مع كثير عزة يجيب عن
ذلك السؤال ، فقد أخذ يوماً يمدحه حتى إذا وصل إلى قوله

على ابن أبي العاصي دلاص متينة أجاد المسددي نسجها فأذالها
قال عبد الملك : كان الأعشى خيراً منك حين قال في قيس بن معدى كرب .

وإذا تكون كتيبة ملمومة خرساء يخشى الدار عون نزالها
كنت المقدم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلماً أبطالها

فقال كثير : وصف الأعشى صاحبه يأمر المؤمنين بالخرق ، ووصفتك
بالحزم^(١٣) ولم يعلم كثير أن ممدوحه لم يكن يبالي أكان أخرج أم حازماً ، مادام
الشعراء يخلعون عليه نفس تلك الصفات البدوية التي خلعوها من قبل على أبطال
الجاهلية فأعجب بها أيما إعجاب وتاقت نفسه إلى أن يمدح بمثلها ، ومن أجل ذلك
جاهد وخطار وقاتل وقوتل .

وما قيل في عبد الملك يمكن أن يقال في الحجاج بن يوسف وغيره من ولاية
الأقاليم ، ورؤساء الدولة . بل لعل الحجاج وأشباهه كانوا أشد جهالة من الجاهليين
أنفسهم وما أظن أن كليلاً وتأبط شراً أو سواهما من طغاة الجاهلية وذؤبانها حين ولى
العراق في خطبته المشهورة^(١٤) .

وقد مدحته يوماً ليلي الأخيلية فقالت .

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها

(١٣) نقد الشعر لقدامه بن جعفر ص ٢٢ .

(١٤) نغى تلك التي بدأها بقوله :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

شفاها من الداء العضال الذى بها غلام إذا هز القناة سقاها
فقال لها : هلا قلت همام . أتبصر الروح الجاهلية من ثنايا تلك المراجعة إنه
لا يريد أن تلين لغة الشعر أو تتكسر ، ولذا يبادر بتقويم الشعراء كلما بدرت منهم
بادرة فى ذلك الاتجاه ، ولسنا بذلك نحاول أن نحمل رجل الدولة الأموية أوزار
ذلك العصر ، ولا أن نلقى عليهم وحدهم ما كان فيه من ثبوت الشعر العربى على
الأسس التى أرسل عليها الجاهليون بنيانه . وكل ما نود أن نقوله هنا : أن لهم نصيبهم
الموفور وحققهم المعلوم من هذه التبعة وتلك الأوزار ، فالملوك وأنصاف الملوك
كالسوق يحمل إليها الناس ما يروج فيها من بضاعة ، وأى غرابة فى ذلك ؟ ألم يكن
الشعر إذ ذاك سلعة تباع وتشترى ، فلماذا لا يتحرى فيها الشعراء رضا المشتريين ؟
وسترى حينما نعرض للشق^(١٥) الثانى من هذا البحث مدى التشابه بين شعر هذا
العصر والعصور السابقة .

على أننا نحسن الظن بشعراء هذه الفترة حينما ندعى أنهم كانوا بحاجة إلى من
يشجعهم على أن يتخذوا مثلهم العليا من حياة الجاهليين ، أو ينسجوا على منوالهم فى
أشعارهم فلسنا ندرى إلى أى حد ، أخلصت القبائل البدوية - وهم معظم
العرب - للإسلام حينما علقت شارته على صدورهم ولكن الذى نعلمه يقينا أن
الرسول ألف قلوبهم بالمال حتى أسخط فريقا من الصحابة . وأن الله تعالى يقول فيهم
«الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم
حكيم ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة
السوء والله سميع عليم» ولا تكاد الآية الكريمة تستثنى من أهل الجزيرة العربية إلا
سكان المدن الثلاث مكة والمدينة والطائف^(١٦) وقد صدقتها الحوادث حيث ارتدت
جميع القبائل العربية تقريباً عدا تلك المدن . على أن بعض القبائل رأت نفسها فى
غير حاجة إلى المسالمة كقبيلة تغلب التى اعترت بقوتها فرفضت الخضوع للإسلام ،
وبقت على جاهليتها الأولى قلباً وقالباً ، ولنسأل أنفسنا عن كبار الشعراء فى ذلك

(١٥) مدى مطاهر التشابه بين الشعر الأموى والجاهلى

(١٦) الأعراب معناها البدو أو سكان البادية .

العصر ، أهم الأخطل وجريرو والفرزدق ؟ إن الأول منهم لم يزر الإسلام قلبه ، إلا بقدر مازار الأعشى أو طرفه أو غيرهما من شعراء الجاهلية . أما الأخير فقد أوتسك الإسلام أن يمس قلبه يوماً من الأيام ، فحبس نفسه على القرآن يحفظه ، ولكنه ما كاد يعلم أن جريراً علا صوته فى هجاء قومه حتى قر من سجنه ، ولم يعد إليه حتى مات .

وبعد فقد كان أخذ الأمويين عن الجاهليين أمراً طبيعياً ، فهم يرون نموذجاً يحتذونه ، وقد عجز شعراء الإسلام عن أن يتندعوا لأنفسهم نوعاً جديداً من الشعر يستمدون من الدين روحه ، ومن كتابه لغته وأسلوبه ، بل عجزوا عن أن يتركوا فى الشعر أثراً يذكر إذا ذكرت الآثار . فلم يبق أمام الشعراء الأمويين إذن سوى الشعر الجاهلى يمدون أبصارهم إليه ، ويسيروا على ضوئه وهداه . أما الفتوح الأجنبية والاتصالات الخارجية ، فما كان لنا أن نتوقع منها أية مساعدة فى ذلك الاتجاه .

حېث كانت آثارها لاتزال محصورة فى الناحية الحربية والإدارية ، فإن تجاوزت ذلك قليلاً فإلى إقامة شعائر الدين وتدارس كتابه ، وحديث رسوله . أما فلسفة الإغريق وأدب الفرس والهنود فلم يكن قد وجد طريقة إلى اللغة العربية إذ ذاك وهكذا بقى الشعر الجاهلى وحده فى الميدان بلغته ومعانيه ، أو بعبارة أخرى بعناصره التى أشرنا إليها .

الفصل الثاني

ويبحث كما ذكرنا من قبل في مظاهر جمود الشعر خلال العصر الأموي وإنما لم نفعل مثل ذلك بعصر صدر الإسلام ، لأن حركة الشعر قد توقفت فيه تقريبا . ويشتمل هذا الفصل على ثلاث وسائل نتوسل بها إلى إبراز وجه الشبه بين الشعراء الأموي والجاهلي ، في الأولى منها نورد نصا أمويا ونوازن بينه ، وبين أخيه الجاهلي ، وفي الثانية والثالثة نقيم البراهين على أن النقائص والغزل في العصر الأموي كانا امتدادا لأشباههما في الجاهلي . وإليك الآن النص الأموي ، وليكن قول جرير مادحا عبد الملك بن مروان :

أتصحو أم فؤادك غير صاح	عشية همّ صحبك بالرواح ^(١)
يقول العاذلات علاك شيب	أهذا الشيب يمنغى مراحى
يكلّفنى فؤادى من هواه	ظعائن يجتر عن على رماح
ظعائن لم يدنّ مع النصارى	ولا يدرين ما سمك القراح
وبعض الماء ماء رباب مزن	وبعض الماء من سبّخ ملاح
سيكفيك العواذل أرحى ^(٢)	هجان اللون كالقرد اللّياح ^(٣)
يعزّ على الطريق بمنكيه	كما ابتك الخليع على القдах ^(٣)
تعزّت أم حزة ثم قالت	رأيت الواردين ذوى امتناح
ثقي بالله ليس له شريك	ومن عند الخليفة بالنجاح
سأشكر إن رددت على ريشى	وأنت القوادم فى جناحى
ألستم خير من ركب المطايا	وأندى العالمين بطون راح

(١) ديوانه ص ٩٦ .

(٢) الأرحى نسبة إلى أرحب من همدان - هجان اللون أبيض اللون الفرد اللّياح . الثور الأبيض

(٣) 'بمز' يسرع ويشتد - الخليع : المقامر .

وقوم قد سموت لهم فدانوا بدُّهم في مُلَمِّمة رَداح^(٤)
أبجت حمى تهامة بعد نجد وما شئ حميت بمستباح
لكم شم الجبال من الرواسي ومعظم سيل مُعتلج البطاح^(٥)
دعوت الملحدن أبا خبيب جاحاً قد شفيت من الجراح
فقد وجدوا الخليفة هيرزياً ألف العيص ليس من النواحي^(٦)
فما شجرات عصيك في قریش بعثت الفروع ولا ضواحي^(٧)

وأول ما يمكن أن نلاحظ عليها محافظتها على بناء القصيدة الجاهلية ، حيث أشار إلى انتقال الأحبة عن ديارهم ، وأثر ذلك في نفسه وعقله ، ثم مال مع الصبا بالحديث عن حبه وهواه ، وتحدث عن رحلته إلى الخليفة معروضاً بتأميله وتأميل من خلفه فيه . وبعد هذه المقدمة التقليدية الدقيقة يأخذ في غرض القصيدة الأصلي وهو المدح .

أما الطبع فيها فأقوى من أن يحتاج إلى إيضاح أو تبيان ، فالمتمل في انسياب الأبيات وعدوبتها ، وأخذ بعضها بحجز بعض ، مع خلوها من التعقيد ومن المحسنات ومن التكلف ، لايشك في أنها وليدة طبع خالص . وأما الموسيقى فتبدو في خفة ألفاظها وتلاؤم بعضها مع بعض ، كما تبدو في جمال البحر وعدوبة القافية . وكذلك يشيع فيها التصوير الذي يذكرنا بتصوير الجاهليين من حيث صيلته بالبادية ونقله عنها ، ووقوفه عند المظهر الخارجي المحسوس ، مع قوة التشابه بين الأصل والصورة ، ترى ذلك في تشبيهه لبعيره بالثور الوحشي ، وتشبيهه إكبابه على السير والجلد فيه بأكباب اللاعب على قداحه . أليس جرير في الصورة الأولى - وإن لم يشعر - يُصدر عن نفس العقلية التي أصدر عنها طرفة حين قال :

(٤) ململة: مجتمعة - رداح: ثقبلة لضخامة عددها .

(٥) معتلج البطاح: يفيض عليها في قوة وعزارة

(٦) هيرزيا: خالصاً من الشوائب - ألف العيص من دوحة ضخمة ، وأجمة متكاثفة (ليس من النواحي)

أى انه من وسط الأجمة وليس من الأطراف .

(٧) العشة: الدقيقة الفروع - الضواحي: المكشوفة للشمس .

وبلاد زَعِل ظلماتها كالخاض الجرب في اليوم الخدر

وفي الثانية يصدر عن تلك التي يصدر عنها عترة حين يقول :

وخلا الذباب بها فليس ببارح غردا كفعل الشارب المترنم
هَرِحاً يحك ذراعاه بذارعه قَدَحَ المكبَّ على الزناد الأجذم

وفي قصيدة جرير صورة ثالثة تلفت الأنظار وهي تشبيهه قريشا بأجمة يحتل بنو
أمية وسطها وذلك حين يقول :

فقد وجدوا الخليفة هبرزيا ألف العيص ليس من النواحي
فما شجرات عيصك في قريش بعشات الفروع ولا ضواحي

والمأمل في هذه الصبور الثلاث يجدها منتزعة من البادية بما فيها من الثيران
الرحشبة والإيل والعيص وما إليها .

وبعد فهل تلاحظ معي هذه الروح وذلك الجو الجاهلي البدوي الذي يبدو في
قوله :

وقوم قد سموت لهم فدانوا بدهم في ململة رداح

ألا تراه يرجع بذاكرته وخياله إلى منظر ذلك البدوي المتكشف الذي يتسلق
الجبال في طلب صيد أو شبيه به ، ثم ماذا ترى في ذكره نجدا وتهامة في قوله :

أبحت حمى تهامة بعد نجد وما شيء حميت بمستباح

مع أنه يريد العراق والحجاز حيث يتحدث عن قتل عبد الله بن الزبير بعد
مصعب أخيه ؟ أليست معي في أنه يحن إلى نجد وتهامة لأنها أكثر دورانا على السنة
القدامي من العراق والحجاز . وفي تكراره للفظ الحمى واستباحته إشارة إلى ما كان
يعتز به العرب من حاية حاهم والإغارة على من سواهم .

وأخيراً ينبغي أن نلاحظ أن الصفات التي نخلعها جرير على عبد الملك هي نفس
الصفات القديمة المرتبطة بحياة البادية من كرم وشجاعة وضخامة الأسرة وما إليها .

النقائض : إن نقائض جرير والفرزدق امتداد طبيعي للشعر القبلي في العصر الجاهلي ، ولا تمثل تطورا في الشعر الأموي .

ويرى بعض^(٨) النقاد أن نقائض جرير مع الفرزدق والأخطل تمثل تطورا خطيرا في الشعر العربي ، حيث يختلط الهجاء بالمدح ممتزجين بالتاريخ ، وحيث كانت تنشأ في مسارج أو شبه مسارج شعبية بقصد إلهاء الناس وإضحاكهم .

أما فيما يختص بالناحية المسرحية في هذا الحديث أو تلك النقائض فكم كان يسرنا أن لو استطعنا قبولها كي ندفع عن الشعر العربي عيباً طالما أخذه الناس عليه ، وحتى نفاخر مع المفاخرين بأن المسرحية الشعرية عند جرير والفرزدق سبقت أختها عند شكسبير بعدة قرون . وأنا لنعجب حين يدعى الدكتور شوقي أن تلك النقائض لم يكن يقصد بها سوى إلهاء الناس وإضحاكهم مع أن فيها أفدح سباب عرفه الشعر العربي^(٩) ونحن لا نشك في أن الدكتور قرأه . وأعتقد أنه كان ينم عن روح غير إسلامية وخصومة غير شريفة . وإذا أحببت أن تؤمن بما نقول فاقراً ما كان من ذلك في مأساة جعنين مع بني منقر وستجد إشارة إليها في جميع نقائض جرير تقريباً مع القصد حيناً والإسراف مع الإقذاع أحياناً . وأما فيما يختص باختلاط المدح بالهجاء وامتزاج هذا وذاك بالتاريخ فقد سبقت منه أمثلة كثيرة في العصر الجاهلي . فقد التقت الوفود في مجلس النعمان بن المنذر وعمر بن هند من قبله ، بل وفي مجلس الرسول ﷺ وجرى بينها من الفاخرات مثلاً كان يجري بين جرير وصاحبه ، ولم تقم الدنيا لذلك ولم تقعد ولم يقل أحد أن الحرث بن جلة وعمر بن كلثوم كانا بطلين من أبطال التمثيل ، ولعل الأخير كان أجدر من أي شاعر آخر بأن يكون بطل مسرحية حيث تناول سيف ابن هند من خلفه - على ما يقال - وقتله به . ولعلك لا تزال في شك ولو يسير مما نقول فإليك قصيدتين إحداهما جاهلية والأخرى أموية الأولى لعمر بن كلثوم وفيها يقول مفاخرأً بالسابقين من رجال قبيلته :

(٨) الإشارة هنا وفيما يلي إلى رأى الدكتور شوقي ضيف (التطور والتجديد) .

(٩) اقرأ رأى المؤلف بالتفصيل في كتابه « جرير ونقائضه مع شعراء عصره »

وَرثْنَا مَجْدَ عَلَقْمَةَ بْنِ سَيْفٍ أَبَاحَ لَنَا حِصُونَ الْمَجْدِ دِينَا
وَرثْتُ مَهْلَهْلًا وَالْخَيْرَ مِنْهُ زَهِيْرًا نَعَمْ ذَخِرَ الذَّاخِرِينَا
وَعَثَابَا وَكَلْشُومًا جَمِيعًا بِهِم نَلْنَا تَرَاثَ الْأَكْرَمِيَا
وَذَا الْبُرَّةِ الَّذِي حُدَّتْ عَنْهُ بِهِ نَحْمِي وَنَحْمِي الْمَجْهَرِيْنَا (١٠)
وَمَنَا قَبْلَهُ السَّاعِي كَلِيبُ فَأَيُّ الْمَجْدِ إِلَّا قَدْ وَلِينَا

والثانية لجريير وفيها يقول مخاطباً محمدَ بنَ عُميْر بن عطارِد وكان قد رشا الأخطل
كَي ينصر الفرزدق عليه .

لَمَّا انْهَزَمَتْ كَفَى الثَّغْوَرُ مَشِيعٌ مَنَا غَدَاةَ جَبْنَتَ غَيْرِ جَبَانِ (١١)
شَبَّتْ فَخَرْتُ بِهِ عَلَيْكَ وَمَعْقِلٌ وَمَا لَكَ وَبِفَارِسِ الْعُلَهَانِ
هَلَا طَعَنْتَ الْخَيْلَ يَوْمَ لَقِيَتْهَا طَعَنَ الْفَوَارِسُ مِنْ بَنِي عُقْفَانِ
كَذَبَ الْأَخِيْطَلُ إِنْ قَوْمِي فِيهِمْ تَاجَ الْمُلُوكِ وَرَايَةَ النِّعْمَانِ
مِنْهُمْ عَتِيَّةٌ وَالْمَحْلُ وَقَعْنُبُ وَالْحُنْتَفَانِ وَمَنْهُمْ الرُّدْفَانِ

ولاشك أنك ستدرك الشبه القوى بينهما من حيث التمدح بمن ظهر في قبيلة كل
منهم من أبطال والإسراف في تعداد أسمائهم . أما إذا أردت أن ترى صورة من تعداد
موقف الشجاعة هنا وهناك فاقراً للحرث بن حِلْزَة :

هَلْ عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يُتْتَبَعُ النَّاسُ سَ غَوَارًا لِكُلِّ حَيٍّ عَوَاءِ (١٢)
إِذَا رَفَعْنَا الْجَمَالَ مِنْ سَعْفِ الْبَحْرِ رَيْنَ سِيرًا حَتَّى نَهَاها الْحَسَاءُ
ثُمَّ مَلْنَا عَلَى تَمِيمٍ فَأَحْرَمَ سَنَا وَفِينَا بَنَاتُ قَوْمِ إِمَاءِ
لَا يَقِيمُ الْعَزِيزُ بِالْبَلَدِ السَّهْدِ لَ وَلَا يَنْفَعُ الدَّلِيلُ النِّجَاءُ
ثُمَّ اقْرَأْ لَجَرِيرِ :

أَبْنَا عَدَلْتَ بَنِي خَضَافٍ بِجَاشَعَا وَعَدَلْتَ خَلْكَ بِالْأَشَدِّ سَنَانِ (١٣)

(١٠) البرة بضم الموحدة: الحلقة ، والحجرين المضطرين إلى الدخول في الحجور لضعفهم

(١١) ديوانه ٥٧٠ - مشيع: موقد ، وغير جان صفة لمشيع

(١٢) المعلقة العشر.

(١٣) ديوانه ص ٥٧٠ ومابعدا والجزء الثاني من المنتخب ص ١١٠ وبعدها .

شهدت عشية رَحْرَحان مجاشع بمجارف جَحَفَ الحَزِيرِ بطان
وطُثت سَنابك خيل قيس منكم قتلى مصرعة على الأعطان
لله در يزيد يوم دعاكم والخيّل مجلبة على حَلَنان
لاقوا فوارس يطعنون ظهورهم نشط البزاة عواتق الخربان
إن رمت عبد بنى أسيدة عزنا فأنقل مناكب يذبل وذقان

والبيت الأخير يذكرنا بقول ابن حلزة من نفس القصيدة السابقة :

وكان المنون تردى بنا أر عن جونا ينجاب عنه العماء
مكفهرأ على الحوادث لآثر توه للدهر مؤيد صماء^(١٤)

الغزل :-

فإذا تقدمنا إلى الغزل بقسميه وجدناه صورة غزل الجاهلية . فشعر عمر بن أبي
ربيعة يكاد يختلط بشعر امرئ القيس . ولا عجب في ذلك فقد تشابهت حياتهما
شباباً وفراغاً وجدة فأخذ كل منهما يهذى بالمرأة وبنفسه . وإن من يتبع شعر هذا
وذاك لا يكاد يخطئ اتحاد العناصر الأساسية لكلا الشعيرين ضع إن شئت قول
امرئ القيس :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُّ حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالٍ
فَقَالَتْ سَبَاكَ اللَّهُ إِنَّكَ فَاضِحِي أَلَسْتُ تَرَى السَّمَارَ وَالنَّاسَ أَحْوَالِي
فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهُ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي
حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ حِلْفَةَ فَاجِرٍ لَنَامُوا فَمَا إِنْ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا صَالٍ
فَمَا تَنَازَعْنَا الْحَدِيثَ وَأَسْمَحْتُ هَصَرْتُ بِغَضْنِ ذِي شِمَارِيخٍ مِيَالٍ
وَصَرْنَا إِلَى الْحُسْنَى وَرَقَّ كَلَامُنَا وَرُضْتُ فَذَلْتُ صَبْعَةً أَيْ إِذْلالٍ
فَأَصْبَحْتُ مَعشوقًا وَأَصْبَحَ بَعْلُهَا عَلَيْهِ الْقَتَامُ سَيُّ الظَّنِّ وَالْبَالِ
يَغْطِ غَطِيطَ الْبَكْرِ شُدَّ خَنَاقُهُ لِيَقْتَتِلَنِي وَالْمَرْءُ لَيْسَ بِقَتَالِ

(١٤) وإذا قبل لنا : أن نقاض جرير وصحبه كانت تتحد غالباً في الروى والبحر، قلنا وكذلك كانت أشعار
قريش في الرد على حسان وإخوانه ، ومع ذلك لم يقل أحد أنها تمثل تطوراً في الشعر العربي ، لاتحاد مجراها
وزوجها .

-أَيَقْتَلَنِي وَالْمَشْرِفَى مُضَاجِعِي
يَلِيَقْتَلَنِي أَنَّى شَغَفَتْ فَوَادَهَا
ومسنونة زرق كَأَيَابِ أَغْوَالِ
كما شَغَفَ المَهْنُوءَةَ الرَّجُلَ الطَّالِي
ضَعِ هَذَا بِجَانِبِ قَوْلِ عَمْرِ:

فَلَمَّا فَقَدْتَ الصَّوْتَ مِنْهُمْ وَأَطَفْتُ
وَعَابَ قَبِيرَ كُنْتُ أَرْجُو غِيَابَهُ
وَنَفَضْتُ عَنِ الْعَيْنِ أَقْبَلْتُ مِثْلِيَّةً أَلْ
فَحْيِيَّةً إِذْ فَاجَأَتْهَا فَتَوَلَّيْتُ
وَقَالَتْ وَعَضَّتْ بِالْبَنَانِ فَضَحْنِي
مَصَابِيحَ شَبَّتْ بِالْعِشَاءِ وَأَنُورُ
وَرُوحَ رَعِيَانٍ وَنَوْمَ سُمُرٍ
حُبَاتٍ وَرَكْنِي خِيْفَةَ الْقَوْمِ أَزُورُ
وَكَادَتْ بِمَكْنُونِ التَّحِيَّةِ تَجْهَرُ
وَأَنْتِ امْرُؤُ مَيْسُورٍ أَمْرُكَ أَعْسَرُ

وَيَمْضِي فِي وَصْفِ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا حَتَّى يَسْمَعَا الْقَوْمَ وَقَدْ اسْتَيْقَظُوا فَتَضْطَرِبُ
وَتَسْأَلُهُ عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَا فَيُرِدُ بِهِذِهِ الْآيَاتِ :-

فَقُلْتُ أَبَادِيَهُمْ فَلَمَّا أَفَوْتُهُمْ
فَقَالَتْ : أَلَمْ أَحْقِيقْ لَمَّا قَالَ كَاشَحَ
وَأَمَّا يَنَالُ السَّيْفُ ثَأْرًا فَيَثَارُ
عَلَيْنَا وَتَصْدِيقًا لَمَّا كَانَ يُوَثِّرُ

وَأَتَتْهُي الْأَمْرُ بِأَنْ جَاءَتْ أَخْتَاهَا فَأَحْطَنَ بِهِ جَمِيعًا وَهَيَّأَ لَهُ سَبِيلَ الْخُلَاصِ
وَالْمَتَّبِعِ لِلْقَصِيدَتَيْنِ يَرَى الْأَخِيرَ يَسِيرُ فِي أَعْقَابِ الْأَوَّلِ شَبْرًا بِشَبْرٍ فَكُلَاهُمَا يَدْبُ
إِلَى حَبِيبَتِهِ لَيْلًا كَمَا تَدْبُ الدُّثَاثُ وَإِنْ لَمْ يَفْطَنَا إِلَى ذَلِكَ ، وَكُلَاهُمَا يَتَعَرَّضُ لِلْقَتْلِ
وَيَتَخَطَّى الْحِرَاسَ وَيَحْطِي بِمَا يَرِيدُ . أَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يَكْفِي لِبَيَانِ قُوَّةِ الشَّبهِ بَيْنَ
أَسْلُوبِهِمَا فِي الْغَزْلِ وَمَسْلُكِهِمَا فِي الْحَيَاةِ ؟ قَدْ يَقَالُ لَنَا كَلَّا فَإِنْ عَمَرَ غَيْرُ مَنْهَجِ الْغَزْلِ حِينَ
جَعَلَ نَفْسَهُ مَحْوَرِ عَوَاطِفِ الْمَرْأَةِ وَكَانَ الْقَدَامَى يَفْعَلُونَ عَكْسَ ذَلِكَ . وَيَكْفِي لِلرَّدِّ عَلَى
هَذِهِ الدَّعْوَى (١٥) أَنْ تَلَفْتَ النَّظَرَ إِلَى الْبَيْتَيْنِ السَّابِعِ وَالْعَاشِرِ مِنْ آيَاتِ امْرِئِ الْقَيْسِ
لَنَعْلَمَ أَنَّ عَمَرَ حَتَّى فِي هَذِهِ كَانَ تَلْمِيزًا وَفِيًّا لَتَعَالِيمِ أَسَازِهِ امْرِئِ الْقَيْسِ .

وَنَزِيدُ هُنَا كَلِمَةً قَدْ لَا تَرْضَى بَعْضُ النَّاسِ ، وَتِلْكَ أَنَّ عَمَرَ كَانَ يَحَاكِي امْرَأَ
الْقَيْسِ عَامِدًا وَيَعَارِضُهُ جَاهِدًا وَيَحْتَالُ عَلَى نَقْلِ بَعْضِ أَفْظَاظِهِ وَعِبَارَاتِهِ حَتَّى يَلْفِتَ
النَّظَرَ إِلَى تِلْكَ الْحَاكَاةِ وَالْمَعَارِضَةِ . وَإِلَّا فَهَلْ تَظُنُّ أَنَّ قَوْلَهُ : « فَاقْبَلْتُ مِثْلِيَّةً

(١٥) رَاجِعِ التَّطَوُّرَ وَالتَّجْدِيدَ لِلدَّكْتُورِ شَوْقِي ضَيْفِ .

الحجاب » وقوله : « وقالت وعضت بالبنان فضحتني وأشباهاها » على كثرتها كانت مجرد مصادفة لم يفظن لها ولم يقصد إليها عمر ؟ أكبر الظن أنه يغضب ويتألم لو علم أن القراء لا يدركون الشبه القوى الواضح بينه وبين أستاذه رغم حرصه الشديد على إعلانه وإيضاحه ، فقد كانت إحدى أمانيه أن يرى الناس فيه صورة من أمير الشعراء ، ولا يضيره بعد ذلك أن يكون مقلداً أو مجدداً .

والغزل المسمى بالعذرى أو العفيف مفترى عليه أيضاً أو على الإسلام فيه ، ويشق علينا أن نرانا مضطرين إلى مخالفة رأى بعض أساتذتنا حوله (١٦) حيث ذهب إلى أن هذا النوع من الغزل كان نتيجة من نتائج « التقوى والزهد والتصوف والمثل الأعلى في الحياة الخلقية ، وغير ذلك من الأمور التي جاء بها الإسلام » .

ولست أرى مبرراً لمثل هذه الدعوى ، فشعراء هذا الفن لم يكونوا زهاداً ولا أنصاف زهاد ، لا في حياتهم الخاصة ولا في غزلهم وفوق هذا فالمرء لا يكون زاهداً في أمور حتى يتمكن منه ثم ينصرف عنه ولم يكن الحال كذلك عند هؤلاء الشعراء . فقد تركوا من يحبون مرغمين ، فهذا الغزل نتيجة للحرمان لا للزهد .

ونرى أن كلا نوعي الغزل العذرى والحسى متفقان من حيث النشأة ، ففي كل منهما تتجه النفس البشرية إلى الاتصال بمن تحب من الجنس الآخر اتصالاً تتحد دوافعه وأهدافه . ثم تختلف وسائله ونتائجه تبعاً لاختلاف الشخصيات ، فيسلك أصحاب المذهب الحسى مسالك عملية يصحبها دائماً النجاح في الوصول إلى من يحبون ، بينما يتعثر أصحاب المذهب الآخر ، لأنهم في الغالب ممن تغلب عليهم العواطف وتنقصهم الجرأة والمرونة والخبرة العملية وغير ذلك من الأمور التي تمكن المرء من بلوغ أهدافه ، وتحقيق مآربه في الحياة ، فيقبضون الحياة على أبواب معبد الحب حيارى ، لا يدرون ماذا يفعلون سوى ترتيل أناشيد الشوق والهيام ، وإراقة الدموع ممزوجة بالآلام ، مشبعة بالأنات والزفرات .

وهكذا نرى أن الفرق بين النوعين من حيث الوسائل والنتائج لا يعود إلى زهد أو

(١٦) الدكتور طه حسين (حديث الأربعة) - ج ١ ص ١٨٥ .

ورع بقدر ما يعود إلى اختلاف الشخصيات من عملية إلى عاطفية وجدانية .
وما يؤكد براءة الإسلام من الغزل المسمى بالعفيف وجود أمثلة كثيرة منه في
العصر الجاهلي ، بحيث لا يكاد المرء يرى فرقا بين هذا وذاك . ويباعد بين
أصحاب هذا المذهب والزهد ، بل أدنى درجات التقوى ما عرف عن بعضهم
من التعلق بنساء ذوات أزواج شرعيين وناهيك بمثل هذا العمل بعداً عن الدين
والمروءة (١٧) .

وينبغي ألا ننسى أننا ننسى أو نتناسى في نشوة مما يثيره الغزل العذرى في أنفسنا
من عواطف وانفعالات ما يحنق تحت هذا الغلاف الخارجى من ضعف واضطراب
يؤكد أن معظم أبطال هذا الفن لم يكونوا من ذوى الشخصيات القوية ، وإلا لما
استرسلوا مع عواطفهم إلى هذا الحد المزرى . والشخصية المترنة فيما نعتقد هي التي
تزن الأمور بميزان العقل ، فإذا كانت فرص النجاح والظفر بمن تحب مواتية فيها وإلا
بمحت عن مخرج سريع ، أما ترك نفسه نهبا للعواطف الجائعة وفريسة للاضطرابات
النفسية المستمرة فمن علامات ضعف الشخصية . حقيقة أن الفن والأدب قد أثريا
على حساب هؤلاء البائسين ثراء عريضا ولكن هذا لا يعوقنا عن وضع الأمور في
نصابها .

وإن كل ما يمكن أن نتبعه من آثار الإسلام في ذلك الفن لا يخرج عن
أمرين .

أولها : إن الإسلام بما جاء به من قوانين صارمة في تحديد فرص الاتصال بين
الرجل والمرأة وتنظيم العلاقة بينهما تنظيما دقيقا قد أكثر من فرص الحرمان الذي
يعد السبب الأول في نشأة هذا النوع من الحب والغزل .

ثانيهما : ظهور بعض صور وأفكار جزئية منقولة عن الدين أو القرآن ربما دل
ظهورها على تأثر الغزل بوصفه فنا شعريا بهما ، ولكنها لا تدل على تأثر عاطفة

(١٧) من ذلك قول كثير . - .

يقولون ودع عك لى ولاتهم مقاطعة الأقران ذات حليل
الأمالي ح - ٢ - ص ٦٤ .

الحب نفسها بالدين ولا بالقرآن . ومن أمثلة ذلك تلك الصورة أو اللوحة البديعة التي عرضها كثير في قصيدته .
 ألا حيا ليلي أجد رحلي وأذن أصحابي غداً بقفون
 وفيها يصف قوافل الإبل متوجهة بالحجيج إلى مكة وقد سبق ذكرها^(١٨) وقد حاول بعض الزملاء أن يتبع أثر الإسلام في الغزل العذري فأنتهى إلى رأى لا يختلف كثيراً عن رأى الدكتور طه حسين ، وإن فصل أحدهما وأجمل الآخر .

وإننا لثرنا مضطرين إلى أن نستعرض ما ساقه الزميل من أدلة ذاكرين وجهة نظرنا فيها . وأول ما يلفت نظرنا من ذلك قوله : إن القرآن ضرب مثلاً لعفة المؤمن في قصة يوسف كمداعا إليها الرسول حين جعل أهل العفة من المحبين بين أولئك الذين يشملهم الرحمن بظله يوم لا ظل إلا ظله^(١٩) .

ويضرب لنا مثلاً على مدى تأثير أمثال هذه الآيات والأحاديث في أهل ذلك العصر بما كان من عبد الرحمن القس حين قالت له سلامة : أنا أحبك . فقال : وأنا والله أحبك قالت : فما يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لخال ؟ فأجاب سمعت الله تعالى يقول : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

والذى نعتقده أن أثر الإسلام قد ظهر في أهل النسك والورع من أمثال عبد الرحمن القس المذكور وعروة بين أذينة وأشباههم ولكن هؤلاء من سوء من الحظ لم يكونوا من كبار الشعراء ، ولم يخلدوا عواطفهم ، ولا تأثير الدين عليهم في أشعار ، ولو فعلوا ذلك ، ولو قال قائلهم مثلاً قال ابن فرج الجياني^(٢٠) :

وطائفة الوصال عفت عنها وما الشيطان فيها بالمطاع
 بدت في الليل سافرة فبانت دياجي الليل سافرة القناع

(١٨) يمكن أن يضاف إلى ذلك فكرة الشهادة لمن قتل في سبيل الله ، والقضاء والقدر

(١٩) ليلي والمجنون . للدكتور غنيمي هلال ص ١٢ .

(٢٠) نفع الطيب ج - ٢ - ص ١٤٣ .

وما من لحظة إلا وفيها إلى فتن القلوب لها دواعي
فلكت النهى جمحات شوق لأجرى في العفاف على طبعي
وبت بها مبيت السقب يظا فيمنعه الكعام من الرضاع^(٢١)

لقلنا إن الغزل في تلك الفترة قد تأثر أو على الأقل يحتمل أن يكون قد تأثر
بالإسلام فصار يدعو إلى إظماء النفس رغم سهولة المورد محافظة على الدين ، أما
وإنهم لم يقولوا شيئاً من ذلك ، أما وزعيم تلك المدرسة يقول :

ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني أظل إذا لم ألق وجهك صاديا^(٢٢)
ويقول :

ألا ليت أيام الصفاء جديد ودهرا تولى يابثين يعود^(٢٣)

فلا نستطيع أن ننسب إليه زاهداً ولا عفة إنه زهد العاجز وعفة اليائس ترى لو
كان جميل مخطوطاً مثل ابن أبي ربيعة تسعى النساء إليه أكان يفرمنهن إلى قبة أحد
الجبال ، ثم يرتل أناشيد العفة والزهادة ؟ ألا حدثني بريك ماذا كان يستطيع أن
يفعل جميل أكثر مما فعل لو أنه كان أشد كفراً بالله من فروعون وهامان . أكان
يستطيع الحديث عن مقابلات وهمية ومغامرات خيالية ، وهو عاجز محروم لم يحظ
بحبيته يوما من الأيام كما حظى عمر بن أبي ربيعة ؟ إن كل ما بينه وبين ابن أبي ربيعة
من فرق هو أن الحب عنده وقف عند مرحلة أولية رغم أنه لسوء حظه وعجزه عن
متابعة خطواته بتوفيق ، ولذا ظل يندب حظه ، ويتمنى أنفه أنواع الوصال من
حبيته ، أما الزهد وأما انتظار ثواب الله على هذا الجهاد الذي يتفضل به عليهم
بعض أساتذتنا وزملائنا الكرام^(٢٤) فلم يخطر لهم ببال ، فقد كانوا أعرف بأقدارهم ،
وأعظم تواضعاً فيما بينهم وبين أنفسهم من أن يدعوا لها شيئاً من ذلك ولو عرف
جميل أن بعض الباحثين يجعلون قوله :

(٢١) السقب ولد الناقة - الكعام مايشد به فه .

(٢٢) الأدب العربي في صدر الإسلام ص ٢٩٠

(٢٣) الأمالي ج - ٢ - ص ٢٩٩ .

(٢٤) ليلي والمجنون ص ١٢ .

يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأى جهاد بعدهن أريد (٢٥)
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد

دليلاً على أنه كان يعتقد حقاً أنه سيموت شهيداً إذا سقط صريعاً تحت إقدام
بشينة ، لتواري حياء وخجلاً من تلك السذاجة التي يرميه الناس بها لمجرد أنه شاعر
يقول ما لا يعتقد كغيره من الشعراء . بل وربما تذكر شيئاً مخجلاً بجانب ذلك وهو أن
يذهب شباب المسلمين لجهاد عدوهم من الفرس والروم ، ويظل هو بجانب حبيته
يجاهدها حيناً ويجاهد نفسه أحياناً ثم يدعى بعد ذلك أنه مسلم زاهد ، وأنه متأثر في
حبه وزهادته تلك بالإسلام . ويروى أصحاب هذا المذهب الأبيات التالية لكثير
ويجعلها مظهراً من مظاهر التقديس الذي ظهر في الغزل العذري أبان العصر
الأموي :

رهبان مكة والذين عهدتهم سيكون من خوف العذاب قعوداً (٢٦)
لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعزة ركعاً وسجوداً
والميت ينشر أن تمس عظامه مسا . ويجلد أن يراك خلوداً

مع أن بعض هذه الأبيات يكاد يكون نقلاً حرفياً عن قول النابغة في المتجرده :
لو أنها عرضت لأشمط راهب يخشى ألا له ضرورة متعب
لرنا لبهجتها وحسن حديثها ولخاله رشداً وإن لم يرشد
أما الثالث فمأخوذ من قول المرقش الأكبر في حبيته :

أينما كنت أو حلت بأرض أو بلاد أحييت تلك البلاد (٢٧)
مما يدل على أن العذريين كغيرهم من أصحاب الغزل المكشوف كانوا ينسجون
على منوال الجاهليين . ويحتدون مثلهم . وإذا كنا لم نتبع تلك الشواهد والأدلة
واحدًا واحدًا فما ذلك إلا لأن الأمر في نظرنا أيسر من أن نأخذ به وجد .

(٢٥) نفسه ص ١٣ .

(٢٦) ليلى والمجنون ص ١٥ .

(٢٧) المفضليات ج ٢٠ - ص ٢٢١ .

على أننا نجد من بين شعر الجاهليين مقطوعات لا تقل في نغمتها العفة الصابرة
المحتسبة عن غزل العذريين . وإن شئت فاستمع لقول المرقش الأصغر :

وإني لأستحيي فطيمة جاثعا خميصا وأستحيي فطيمة طاعما^(٢٨)
وإني لأستحييك والخرق بيننا مخافة أن تلقى أخا لي صارما
وإني وإن كُلت قلوصى لراجم بها وبنفس يافطيم المراجما
أفاطم إن الحب يعفو عن القلى ويحشم ذا العرض الكريم الجاشما
ألا يا اسلمى بالكوكب الطلق فاطما وإن لم يكن صرف النوى متلاهما
أفاطم لو أن النساء ببلدة وأنت بأخرى لاتبعتك هائما

إننا نظم الجاهليين كثيراً ، ونعتقد أنهم كانوا جميعاً طلاب متعة وأصحاب لهو ،
مع أن شاعراً من شعرائهم ، بل صعلوكاً من صعاليتهم ، قد ترك لنا صورة المرأة
الثالية عنده فإذا بها تفوق في الدلالة على عفته وعفتها ما رسمه لنا جميل زعيم مدرسة
الغزل العفيف في العصر الأموي حين قال :

ألم تعلمي يا أمّ ذى الودع أننى أضاحك ذكراكم وأنت صلود
أما الشاعر الجاهلى فهو الشُّقْرِى ، وأما أبياته فتلك التى يقول فيها :

لقد أعجبني لاسقوطا قناعها إذا ما مشت ولا بذات تُلُفْتُ^(٢٩)
تحلُّ بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالمذمة حُلَّتْ
كأن لها فى الأرض نِسْياً تقصّه على أمّها وإن تكلمك تَبَلَّتْ
أميمة لا يُخزى نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلَّتْ
إذا هو أمسى آب قُرّة عينه مآب السعيد لم يسئل أين ظلت
فدَقَّت وجلَّت واسبكرت وأكملت فلو جُنْ إنسان من الحسن جُنَّتْ

وأخيراً نحب أن نعرف موقف الزهاد والمتصوفين من الآيات التالية لجميل

(٢٨) مفضليات ح - ٢ - ص ٤٦ .

(٢٩) نفسه ح - ١ - ص ١٠٧ .

سبتني بعين جودر وسط ربرب وصدر كفاثور اللجين وجيد (٣٠)
تزيّف كما زافت إلى سلفاتها مباهية طيّ الوشاح ميوّد
إذا جثتها يوماً من الدهر زائراً تعرض منقوض اليدّين صدود
يصدّ ويغضى عن هواي ويجنّي ذنباً عليها إنه لعنود
فأصرمها خوفاً كأني بجانب ويغفل عنا تارة فنعود

ضع البيت الثاني من هذه المقطوعة بجانب أبيات الشفري ، وانظر إلى ما في هذه من فتنة وإغراء وعبث بجانب ما في تلك من جد وعفة . وأخيراً ليت شعري من هذا الذي كان يحرسها من شيخ الزهاد ، لعله زوجها الشرعي ، ولا ينبغي أن نعجب أو نأسى لما ناله من أذى ، فإن حظه على أية حال كان خيراً من حظ زوج عزة الذي يقول فيه شريكه أو منافسه فيها كثير :

يكلّفها الخنزير شتمى وما بها هواني ولكن للمليك استذلت (٣١)

وأخيراً أرجو أن يتسع صدر القارئ الكريم لي إذا قلت : إنني لا أرى بل لا أرى أن يكون بين مثل هذا الحب والإسلام صلة ما من قرب أو بعد . إنه مثل حب عمر ابن أبي ربيعة تماماً سوى أن أحدهما بلغ غايته والآخر تعثر دونها .

أما ذلك العفيف الذي يمكن أن نلمس أثر الإسلام فيه فهو حب الزهاد من أمثال عبد الرحمن القس كما أسلفنا .

وأخيراً نحب أن ننبّه القارئ إلى أن واجبنا وأدلتنا على قرب الشعر الأموي من الجاهلي وبعده عن العباسي لم ينتهيا بعد . وكل ما أسلفناه إنما هو مجرد إزالة لما قد يعلق بالأذهان من قول القائلين بتطور الشعر العربي في العهد الأموي .

وستنخذ من هذه القضية موقفاً إيجابياً بناءً حين نتحدّث عن تحوّل الشعر العربي عن أصوله الأولى خلال العصر العباسي ذاكرين بعض النماذج التي تؤيّد نظريتنا من الشعر الجاهلي والأموي القديم ، والعباسي الحديث .

(٣٠) الأمل ج - ٢ - ص ٢٩٩ .

(٣١) ذكر صاحب الأغاني في سبب هذا البيت أن روح عزة ثار عليها حين عرف أنها استعانت به في بعض

أمورها فكلّفها سه (الأغاني ج - ٨ - ص ٣٧ .

الباب الثالث

مقدمة

العصر العباسي

سمع ابن الأعرابي أبا تمام ينشد شيئاً من شعره فقال: «إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل»^(١) وهذه العبارة على ما فيها من بساطة ومبالغة عذبة تصوّر رأى ذلك العصر في شعر أبي تمام وكل من سلك مسلكه من الشعراء فشعره فيما نعتقد يمثل حركة انفصال عن القديم أو ثورة عليه ، بدأت في أوائل العصر العباسي ثم مازالت تستشري وتستفحل ، وتقوى وتعنف ، حتى كان لها في أذهان الناس ومخيلاتهم ذلك الصدى العميق الذي تصوره العبارة السابقة .

وبدء حركة الانفصال عن القديم مع قيام دولة بني العباس ليس مجرد مصادفة ، وربطنا بين الحديثين أو الحركتين ليس من قبيل التأريخ بالحوادث العامة بل كانت هذه ناشئة عن تلك ، ومرتبطة بها أوثق ارتباط ، ولكن الإنسان دائماً ينسى الأحداث الماضية التي ما تزال تتضاءل وتتلاشى على مر الأيام ، حتى يضعف إحساسه بخطورتها ، وحتى تبدو كأنها شيء لا يستحق الذكر ، فمن منا يذكر شيئاً عن الحروب الصليبية وأهوالها أو بعض أهوالها ومن منا يذكر الطوائف المختلفة التي ناهضت الخلافة الإسلامية في جميع عصورها من خوارج ، وزنج وقرامطة ؟ بل ومن يذكر أو يتخيل أن الأمة العربية قد شملها أثناء القرن الثاني للهجرة - على أيام المهدي والرشيذ والمأمون - من التحول السياسي والتطور الاجتماعي ، والتقدم الثقافي ما لم تشهد له مثيلاً في عصر من العصور . وبوصفنا مؤرخين للأدب سيكون من واجبنا استعراض هذه الظواهر الثلاث مع الإشارة إلى صداها في الشعر العربي . أما التحول السياسي : فأهم مظاهره تغلغل النفوذ الفارسي في شئون الحكم .

(١) الموازنة ص ٨ .

فقد قامت الدولة العباسية على أسنة الرماح الزاحفة من الشرق بقيادة أبي مسلم الخراسانيّ. فلم يكن هناك بد من مجاملة هذا الشريك الجديد ، فصار منهم قواد الجيوش وحكام الأقاليم والوزراء والحجاب . وما مقتل أبي مسلم على يد المنصور والبطش بالبرامكة في عهد الرشيد إلا محاولة جريئة من ملوك العرب لوقف النفوذ الفارسي المتحفز للطغيان والسيطرة .

وقد كان لهذا النفوذ السياسي صدهاء في الحياة الأدبية ، فقد أضعف العصبية لكل ماهو عربي من أشعار وآداب وتقاليد ، وسرى بعد قليل أن ذلك قد كال ضربة قوية لبناء القصيدة العربية . كما ارتفعت أصوات الموالى بمفاخرة العرب فنشأ عن ذلك شعر الشعوبية .

وقد صاحب هذا النفوذ السياسي نفوذ ثقافي اجتماعي ، استحث خطوات الشعر العربي نحو التطور والتحول . وقبل ذلك كان اتصال العرب بغيرهم من الدول محصورا في دائرة ضيقة لاتتجاوز الناحية الحربية والإدارية ، وإزالة الصعوبات التي قد تعترض نشر الدين في أبسط مظاهره وتعاليمه ، أما في هذا العصر فقد صار التفاعل بين العرب والدول الطارئة على الإسلام قويا ولاسيما الدولة الفارسية التي أعطت العرب وأخذت منهم الكثير في النواحي الدينية والأدبية^(٢) .

وإذا كان تأثير الفرس قد انحصر في الناحية الأدبية . فإن تأثير الروم كان أقوى وأعظم فقد أخذ العرب عن الروم علومهم المختلفة من منطق وفلسفة وما إليها . وقد طبعت هذه العلوم الدخيلة مناهج البحث في العلوم الشرعية بل واللغوية بطابع جديد مالبث أن تسرب إلى الشعر فظهر واضحا في إنتاج هذا العصر . أما من الناحية الاجتماعية فقد تغير وجه الحياة أمام العرب تغيرا كبيرا فاتخذوا القصور الشماء ، والرياض الفيحاء ، واستمتعوا بكل ما نستمتع به ، أو بعبارة أدق يستمتع به المترفون فينا من ألوان الترف والنعيم وغزتهم الدول الشمالية بسيل جارف من الجوارى والغلمان ذوى الجمال البارع ، فكان منهم الخدم والمغنيات في

(٢) نعى بالناحية الدينية أخذ الفرس الإسلام عن العرب وإعطائهم مذهب ماني ومزدك .

القصور ، وسقاة الخمر في الحانات ، وطوائف أخرى كثيرة في أماكن مشابهة وقد لقي منهم المجتمع بلاء كبيرا ، فقد كانوا يفوقون العرب رقة وجمالا ، وحذقا لفنون الإغراء . وكان تأثيرهم يتفاوت باختلاف الظروف ، فسلك أهل الدين والشرف في الاتصال بهن مسلكا شرعيا عن طريق الشراء والمتعة أو الزواج ، أما المتحررون أو المتحللون من الشعراء ومن لف لفهم ، فقد أعلنوها حربا صريحة على المجتمع والتقاليد ، وراحوا يهذون في أشعارهم بالغزل في هؤلاء الغلمان غزلا لا يقل عن تشبيب امرئ القيس بفاطمة أو المرقش بسلمى .

ويغفل المؤرخون عادة أمرين أو تيارين خطيرين التقيا معا وتعاونتا سويا على خلق هذا النوع الشاذ من السلوك وأنواع أخرى يجانبه لا تقل عنه غرابة وإن تزيّت بأزياء مغرية ، وتسمّت بأسماء لامعة كتزاهد أبي العتاهية ، وتشاؤم ابن الرومي وثورة أبي العلاء . ونعني بهذين التيارين :

أولا : خيبة آمال أهل العراق وهزائمهم المتوالية . فقد ضحّوا بما لم يضح به شعب في سبيل نقل الأمر من يد قتلة الحسين إلى أهله وعشيرته . ولكنهم تبنوا أخيرا أن مجهوداتهم ذهبت مع الريح ، وأن بني العباس استبدوا بالأمر دون بني علي ، وهم بعد ذلك لا يقلون عن سلفهم من بني أمية جرأة على الله ، واستهانة بحفدة رسوله (٣) ﷺ .

ثانيا : تعاليم ماني ومزدك التي دخلت بغداد تحت ظلال رايات أبي مسلم ومن معه ، فصادفت بيئة صالحة ، وأمة سيئة الظن بنفسها وبولادة أمورها ، يائسة من مستقبلها ، شاكّة أو كالشاكّة في دينها .

وكان أن انقسم الناس حيال هذين التيارين أو تحت تأثيرهما إلى طوائف مختلفة فمنهم من لبس سلاحه ، واستأنف جهاده ضد العباسيين كما كان يفعل مع سلفهم ، ومنهم من آثر العافية ، واستعمل التقية ، فأقام ساخطا متربصا ،

(٣) قام أهل العراق بثورات مختلفة هدفها نقل السلطان إلى بي علي . ولكن بني العباس انصموا إلى صفوف الدعوة السرية واستطاعوا بمهارتهم وخداعهم أن يستولوا على السلطة دون أبناء عمومهم . ولما حاول بنو علي اغتصابها منهم قابلهم بنو العباس بقسوة وعنف أنستهم وأنست شيعتهم كل مارأوه من نكال أيام الأمويين .

وفريق ثالث غلب عليه الشقاء فقويت عنده عوامل الشك، فأقبل على الحياة يغترف من معينها غير مفرق بين حلال وحرام ، مستمتعا بحاضره مطرحا وراء ظهره ما عسى أن يأتي به المستقبل من ثواب أو عقاب . وإلى الفريق الثاني ينتسب الساخطون من الشعراء أمثال أبي العتاهية وابن الرومي وأبي العلاء . وشعر الأول كان يلقي من بقية الطائفة عطفًا وتأييدًا ظاهرا ومستورا . وإلى الفريق الأخير ينتسب بشار بن برد وحماد عجرد ومطيع بن إياس ووالبة بن الحباب والحسين بن الضحاك ووارث أديهم جميعا بما فيه من خير قليل وشر كثير أبو نواس .

ونكتفي بهذه المقدمة العامة في إيضاح ما طرأ على الحياة خلال هذا العصر من تطور وتحول على أن نعود إليها مع شيء من التفصيل كلما عرضنا لفن من الفنون أو ظاهرة من الظواهر الأدبية التي تأثرت بذلك التغير والتطور .

الفصل الأول

بناء القصيدة

آثرنا أن نبدأ بالحديث عن بناء القصيدة ، وإن لم يكن أخطر ما أصاب الشعر من تطور لأنه كان أسبق ظهوراً من غيره ، ولأن حامل لواء الدعوة إليه لم يصانع أو يداهن في نشر مبادئه بل رفع عقيرته بها ما وسعه ذلك .

وقد عرفنا فيما سبق صورة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، وعرفنا أنها تتكون من مقدمة وغرض ، وأن المقدمة تجمع عادة بين الحنين إلى الأحبة الراحلين والبكاء على ديارهم إلى آخر ما قلناه هناك . وقد ظل لهذا الوضع قداسته طوال العصر الأموي فلم يمار فيه أحد من الشعراء ، بل على العكس من ذلك كانوا يحاولون تأكيد ولائهم لسلفهم من الجاهليين بنقل بعض مطالبهم نقلاً حرفياً . وما زال جرير يتحرى حتى اختار لكبرى قصائده مطلعاً جاهلياً فقال .

لمن الديار ببرقة الرُّوحان إذ لا تقيس زماننا بزمان

أخذه من قول عبيد بن الأبرص في مطلع إحدى رواثعه :

لمن الديار ببرقة الروحان درست وغيرها صروف زمان

وأخذه الأخطل أيضاً فقال :

لمن الديار بحايل فوعال درست وغيرها سنون خوال

وشبيه بهذا ما فعله الأخطل حين قال يمدح بشير بن مروان :

صحا القلب عن أروى وأقصر باطله

وعاد له من حب أروى أخابله

أخذه من قول زهير يمدح حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعُزّي أفراس الصبا ورواحله^(١)

والناس يخطئون إذ يظنون أن مثل هذا من الشعراء مجرد عبادة للقديم ، والحقيقة أن الشاعر يستغل إعجاب الناس بروائع الفن القديم التي بهرت عقولهم ولعبت بمشاعرهم وعواطفهم حيناً من الدهر ، فيجعل في نتاجه شياً منها كي يضمن عليه شيئاً من قداسة القديم وروعته . وهم يصيبون في تقديرهم هذا فنحن نظير إعجابنا بكل خطيب أو ممثل أو مغن يبدأ تمثيله أو غنائه بما يشعرون أنه تممّص شخصية بطل معروف من أبطال التمثيل أو نجم لامع من نجوم الغناء . ولهذا يخطئ النقاد حين يضعون هذا الاقتباس العلني في باب السرقات . دارت الأيام بعد ذلك دورتها وتحولت الخلافة إلى بني العباس ، حاملة على جناحها كل ما أشرنا إليه من تطورات ، وهناك في حانة من حانات بغداد لعب الشيطان أو لعب الخمر برأس طائفة من المتحررين الذين أشرنا إليهم سابقاً فأقبلوا على ما يقبل عليه أمثالهم في كل عصر وبلد من استعراض الحياة الأدبية حولهم ، وجرّهم الحديث إلى الأطلال والدمن ، فناقشوها في جو مطلق ، وب عقلية متحررة وانتهوا فيها إلى رأى اتخذ صورة شعرية في قول أحد أفرادها :

لأحسنُ من بيد يحاربها القطا ومن جيل طي ووصفكما سلّعا^(٢)
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى

(١) وربما تجاوز الشاعر هذا القدر اليسير من الاقتباس كما فعل الكيت حين قال .
قف بالديار وقوف زائر وتأن إنك غير صاغر
ماذا عليك من الوقو ف يهامد الطللين داسر
درجت عليه الغاديات الرا نحات من الأعصاصر
بعد قول امرئ القيس بن عابس .
قف بالديار وقوف حابس وتأن إنك غير آيس
ماذا عليك من الوقو ف يهامد الطللين داسر
لعبت بين العصفات الرا نحات من الروامس

الوساطة ص ١٩١ .

(٢) الأغاني ج - ١٢ - ص ١٠٣

وسرعان ما تلقف أبو نواس هذه الهمسات فكون منها مذهبا جديداً أخذ يدعو له ويتناضل عنه حتى نسب إليه وعرف به .

ويتلخص هذا المذهب في استهجان المقدمات الجاهلية بكل ما تشتمل عليه من وقوف على ديار الأحبة ، أو تعرض للصحراء ، بل وتشيب بالمرأة وحجته في ذلك أن الحياة قد تغير وجهها ، حيث هجر العرب البادية ، واستقروا بالمدن ، وصار الشاعر يقيم على بعد خطوات من الممدوح ، فالعودة إلى البادية وأطلالها والصحراء ورمالها إذ ذاك ضرب من العبث المضحك ، أو الضحك المزرى . والمتبع لشعر أبي نواس يرى مذهبا أحسن صاحبه تحديده والاحتجاج له . ولكي نوفّي هذا البحث حقه يجب أن ننظر إليه من النواحي التالية :

أولاً : سبب تحمس أبي نواس لهذا المذهب وبلائه في سبيله ، بلاء انفرد به عن شعراء عصره بل وشعراء العربية جميعاً .

ثانياً : احتجاجه لمذهبه .

ثالثاً : مدى تقيده في شعره برأيه ومذهبه .

رابعا : مدى تأثيره أو تأثير دعوته في شعراء عصره ، ومن جاء بعدهم .

أما الأسباب التي دفعت بأبي نواس إلى تكوين هذا المذهب^(٣) فينبغي أن نتلمسها في شخصيته . وهي شخصية معقدة متعددة النواحي ضللت الباحثين ، حتى حاول بعضهم أن يطبق عليها علم النفس فأجهد نفسه وأجهد الدارسين معه^(٤) ولكننا نفضل أن نفهمه في ضوء أحاديثه وتصريحاته . ولعلنا لا نكون بمعزل عن الحقيقة إذا ربطنا بين هذه الثورة الفنية ونقمة الشاعر على العرب بعامة وعرب

(٣) نغني بذلك تعصبه ضد ذكر الأطلال مع أن كثيرا من معاصريه كانوا يشاركونه هذا الرأي ، فلم يشغلوا أنفسهم أو الناس به مثلاً فعل هو . بل لانكون مبالغين إذا قلنا أن الشك في جدوى مثل هذا البكاء كان أقدم من أبي نواس وعصره ، من هذا قول الأعشى

مابكاء الكبير بالأطلال وسؤالي ومبايرد سؤالي
دمنة ففرة تعاورها الصي ف بريحين من صبا وشمال

(٤) الأستاذ عباس العقاد .

الشمال بخاصة لأسباب سنشرها فيما بعد^(٥) . وقد رأى أبو نواس في التغنى بتلك الأطلال تمجيذاً وذكرًا للعرب وباديتهم وآثارهم وتقاليدهم ، فأعلنها ثورة على الأمرين جميعاً . ومما يؤكد وجهة نظرنا هذه ربط الشاعر بينهما في قوله :

دع الرسم الذي دثرا يقاسى الريح والمطرا^(٦)
وكن رجلاً أضاع العد سم في اللذات والخطرا^(٧)
ألم تر ما بنى كسرى وصوابور لمن غبرا
منازه بين دجلة والفرات أحفها الشجرا
بأرض باعد الرحم ن عنها الطلح والعشرا
ولم يجعل مصايدها يرا بيعا ولا وجرا
ولكن حور غزلان تراعى بالملا بقرا

ثم يتكلم بالمرأة البدوية ويفضل الغلمان عليها فيقول :

تعد الشَّيخ - والقَيْصو م والقَفْعاء^(٨) والسَّمرا
جَنَى الآسِ والتَّسريد من والسُّوسان إن زهرا
ويغنيها عن المرجا ن أن تتقلد البعرا
وتغدو في برا جدها تصيد الذئب والتمرا
أما والله لا أشرا حلفت به ولا بطرا
لو أن مرقشا حيّ تعشق قلبه ذكرا
كأن ثيابه أطلع من من أزراره قرا
يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

أما الحجج التي يقدمها شاعرنا بين يدي دعواه ، فقد مر بعضها في الأبيات

(٥) كان أبو نواس متحيزاً لعرب الجنوب لأن ولاءه فيهم .

(٦) ديوانه ص ١٦٤ .

(٧) لعل أبا نواس في هذا البيت يشير إلى ما في دعوته من مخالفة لدراسته المستفيضة لأشعار العرب دراسة كانت تفيده كثيراً لو أنه أحسن استغلالها .

(٨) القَفْعاء : مسك البر (مخصص ج ١١ - ص ١٩)

السابقة حيث يسخر من تلك الأطلال التي أطل العرّب النوح عليها مع أنها لا تعد شيئاً بجانب ما تركته الدول الأخرى من آثار ، ويضرب مثلاً لذلك ببلاد فارس ومنازلها الجميلة ، وسهولها الخصبة ، مقارناً بينها وبين بادية العرب التي لا ترى فيها من النبات سوى الأعشاب الشوكية ، ولا من الحيوان سوى الوجر واليرابيع ، وغيرها من الحيوانات والنباتات التي يصّر شعراء العرب على التغنى بها ، وكان جديراً بهم أن يستحووا من ذكرها ، أو العودة بأذهانهم إلى ماضيها البغيض .

وكأنه لم يقنع بمهاجمة الأطلال وحدها بل هاجم الغزل أيضاً ولم يعدم قولاً ، فقد وصف البدوية بالتخلف عن ركب المدنية ، مما يضعف ناحية الإغراء فيها ، وبرغم بعد ذلك أن الغلمان الوافدين إلى الجزيرة العربية من بلاد الترك والفرس أقدر على خلب العقول وتصيد الألباب منهم ، حتى أن مرقشاً لو تأخر به الزمن إلى العصر العباسي لما ترك هؤلاء الغلمان في قلبه فضلاً لسلمى ولا ليلي .

ويقول في مطلع قصيدة أخرى يمدح بها العباس بن عبيد الله بن المنصور :

ديار نوار ما ديار نوار^(٩) كسونك شجواهن منه عوار^(٩)
يقولون في الشيب الوقار لأهله وشيبي بحمد الله غير وقار
إذا كنت لا أنفك عن طاعة الهوى فإن الهوى يرمى الفتى ببوار
فها إن قلبي لا محالة مائل إلى رشأ يسعى بكأس عقار
كأن بقايا ما عفا من حبابها تفساريق شيب في سواه عذار

فهو يبدأ قصيدته متكبهاً من نوار وديارها ، متسائلاً عن مدى ما لها من خطورة استحققت عليها كل ذلك الاهتمام ، ويلفت النظر إلى أنها حجارة صماء لا تعي ولا تعقل ، تثير في أنفسنا أشد العواطف مرارة ، وفي الوقت نفسه لا تشاركنا في حمل شيء منها .

ثم يعلن بعد ذلك اطراحه للوقار في سبيل ملذاته ، كما أعلن في القصيدة السابقة

(٩) ديوانه ص ٧٢ .

إضاعته للعلم في سبيلها أيضاً . ومن فوق منارة عالية^(١٠) ، يرسلها صرخة مدوية في الآفاق ، فيخبرنا بأن آماله وأمانيه قد تبلورت في أمرين وإن شئت في أمر واحد ، غلام كأنه الطبى الغرير يسعى بكأس من الخمر ، وما دامت تلك هي أمانيه في الحياة ، وشغله الشاغل ، فلماذا لا يكون من حقه أن يبدأ بها شعره ، وأن يسترضى بها شيطانه ، وإذا كان القدامى قد بدأوا بالأطلال أو غيرها ، فلأن ذلك كان يستهوى عقولهم ، أما هو فهواه وعواطفه تدور حول أمور أخرى .

ولعل الأبيات التالية من خير ما قاله أبو نواس في الدفاع عن مذهبه .

مالي بدار خلت من أهلها شغل	ولا شجاني لها شخص ولا طلل ^(١١)
ولا رسوم ولا أبكى لمنزلة	للأهل عنها وللجيران متقل
ولا قطعت على حرف مذكرة	في مرفقيها إذا استعرضتها فتل
بيداء مقفرة يوماً فأنعتها	ولا سرى بي فأحكيه بها جمل
ولا شتوت بها عاماً فأدركني	فيها المصيف فلبى عن ذاك مرتحل
ولا شددت بها من خيمة طنبا	جارى بها الضب والحرباء والورل ^(١٢)
فهاك من صفتي إن كنت مختيرا	ومخبرا نفراً عني إذا سألوا

وحجته هنا في غاية البساطة والوضوح . إنه لا يعرف البادية ولا صلة بينه وبينها فلماذا إذن يبكي لها أو عليها ، ولم يركب إلى الممدوح ناقة ولا جملاً فما حاجته إذن إلى وصفها ، أليس من الخير إذن أن يتحرى الصدق ويلتزم الواقع فيتحدث عما امتطاه حقيقة إلى ممدوحه ؟ إن هذا هو ما فعله حين قال في مدح الفضل البرمكي ، مشيراً إلى الأحذية .

إليك أبا العباس من دون من مشى

عليها امتطينا الحضرمي الملسنا^(١٣)

(١٠) يدل على ذلك استعماله «ها» التي للتنبيه .

(١١) ديوانه ص ٣٢٢ .

(١٢) الورل على وزن جمل دابة على خلقة الضب إلا أنه أضخم منه .

(١٣) ديوانه ص ٧٦ الحضرمي الملسنا . الرقيق من النعال .

قلائص لم تسقط جنيثا من الوجى
ولم تدر ما قرع الفنيق ولا الهنا^(١٤)
نזור عليها من حرام محرم
عليه بأن يعدو بزائره الغنى

مدى تقيده برأيه هذا : -

قد يعجب المرء حين يرى بعض قصائد لأبي نواس مبدوءة بذكر الأطلال والدمن رغم هذه الحملة الشعرية التي أعلنها عليها . ولكن مهلاً فالأمر أدق من ذلك ، فلم يكن شاعرنا يخطط بحط عشواء ، ولكنه كان يتلون ويتصرف حسب الظروف والمناسبات ، فإذا مدح شخصاً يتهيه كهرون الرشيد ، سلك مسلك القدامي طوعاً أو كرهاً أو وقع قريباً منهم ، فهو يعلم أن هرون يكره منه الخروج على تقاليد العرب ، ولا سيما إذا كان ذلك عن كراهية أو احتقار لهم ، ويعلم أن سخط الخليفة ربما انتهى به إلى السجن^(١٥) ولذا نراه يشتمل شملة الأعراب حين يمدحه فيقول :

حَيَّ الديار إذ الزمان زمان وإذ الشباك لنا حَرَى ومَعَان^(١٦)
يا حبذا سفوان من مترجع ولربما جمع الهوى سفوان
وإذا مررت على الديار مسلماً فلغير دار أمية الهجران
إن نسبنا والمناسب ظنة حتى رُميت بنا وأنت حصان

وكأنما عز على أبي نواس أن يخالف مذهبه حتى في أدقّ المواقف وأحرجها ، فإذا

(١٤) قلائص جمع قلوس وهى الشابة من الإبل - الوجى : الحفا - قرع الفنيق ضراب الصل - الهنا : القطران يطلى به الأجر من الإبل . وأصله الهناء فقصره

(١٥) ربما جاهر الشاعر بأنه إنما يعود إلى ذكر الأطلال أحياناً خوفاً من الخليفة وامتنالاً لأمره كما في قوله .

أعر شعرك الأطلال والمزل القفرا فقد طالما أزرى به نعتك الحمرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت جشمتنى مركباً وعرا

(١٦) ديوانه ص ٥٨ . حرى ومعان علان على مكابن

به ينز الأطلال والدمن وخزة خفية في البيت الثالث .

وفي قصيدة أخرى يقول :

خلق الشباب وشِرتي لم تخلق ورميت في غرض الزمان بأفوق^(١٧)
تقع السهام وراءه وكأنه إثر الخوالب طالب لم يلحق
وأرى قواى تكاءدتها رِيثة فإذا بطشت بطشت رِخْو المرفق
ولقد غدوت بدستبان^(١٨) معلم صخب الجلال في الوظيف مسبق
حر صنعناه لتحسن كفه عمل الرفيقة واستلاب الأخرق

ويستمر في الحديث عن صقره واستعانه به على صيد البط والأوز من بعض
البرك القريبة من بغداد فيذكرنا بما يجري في عصرنا الحاضر أحياناً . وقد ينحى إلى
المرء أن أبا نواس مبتدع هنا ، والحقيقة أنه يسير في خطا زهير بن أبي سلمى في
قصيدته التي يمدح حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري والتي يبدوها بقوله :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطلة
وعُرى أفراس الصبا ورواحله

وفيها يأخذ في وصف الطبيعة ، ثم ينتقل إلى الصيد ومنه إلى المدح وكل ما هناك
من فرق بين زهير وأبي نواس أن كل منهما ذكر نوعا من الرياضة والصيد يناسب
عصره فالأول كان يصيد الغزلان وحمر الوحش ، أما الثاني فيتحدث عن رياضة
هينة لا يعنى بها إلا أهل الترف والنعيم .

ومن هذا الباب قصيدة قالها في الفضل بن يحيى البرمكي ، وكان معروفا
بالصرامة والجد واحترام النفس ، ويبدوها بقوله :

أربع البلى إن الخشوع لباد عليك وإني لم أحنك ودادى^(١٩)

(١٧) نفسه ص ٦٠ . وبشره بكسر المثلثة وتشديد الراء: الطيش

(١٨) دستان: صقر.

(١٩) ديوانه ص ٧٣ .

فعدرة منى إليك بأن تُرى رهينةً أرواح وصوب غوادى
ولا أدراً الضراء عنك بحيلة فما أنا منها قاتل لسعاد
وإن كنت مهجور القنا فيأرمت يد الدهر عن قوس المنون فوادى
وإن كنت قد بُدلت بؤسى بنعمة فقد بُدلت عيني قذى برقاد
سأرحل من قُود المهارى شِيلة مشخرة لا تُستحث بحاد
مع الريح ما قامت وإن هى أعصفت تهوس برأس كالسعادة وهاد (٢٠)

وقد تعجب إذا قلنا لك إن هذا المطلع من خير ما قيل فى الأطلال حتى ذلك
العصر؛ حيث كان القدامى يمرون عليها مر الكرام فى بيتين أو ثلاثة ويكتفون
بقطرات من الدمع يريقونها على أرضها الصادية، أما أبو نواس فيربط بين صنيع
الزمان به وبالربيع ربطاً عجيباً وجميلاً. وإنما عجبنا لأنه من رافع لواء الثورة على
الأطلال. ويظهر أنه اعتصر ذهنه هنا ليثبت لمنافسيه أنه قادر على وصف
الأطلال لو شاء، أو كأنه يقول لهم إذا شتم بكاء الأطلال فهكذا وإلا فلا.

أما إذا كان بينه وبين الممدوح ألفة تذهب بالتوقر والتكلف فإنه يسترسل على
طبيعته ويقدم لمدحه بالخمر والغزل بالمذكر كما رأينا فى قصيدته التى أنشدها فى
العباس بن عبد الله. وربما جاوز المذكر والغزل فيه إلى ماهو شر منه كما ترى فى
إحدى مدائحه للفضل بن الربيع وفيها يقول:

ياربيع شغلكت إني عنك فى شغل لاناقتى فيك لو تدرى ولاجملى (٢١)
على عين وأذن من مدكرة موصولة بهوى اللوطى والغزل
كلاهما نحوها سام بهمته على اختلافهما فى موضع العمل (٢٢)
يافضل غاية خلق الله كلهم إذا ضررنا بجود غاية المثل
أثر أبى نواس فى غيره من الشعراء -

(٢٠) هاس: مشى معتمداً على الأرض اعتاداً شديداً، فلعله يعنى أنها حين تسرع تضغط الأرض نتيجة
لمركبة رأسها وعقها

(٢١) ديوانه ص ٨٦.

(٢٢) يشبه إلى أن الأول يهيم بدبرها والثانى بفرجها.

لقد نجح أبو نواس في أن يسلط الأضواء على قضية المطالع ، وجعلها موضوع دراسة ومناقشة وشكك الناس في قداستها وبذلك فتح الطريق لكل ما أصابها بعد ذلك من تغير وتطور . ومع أن كثيراً من الشعراء لم يتقيدوا بمذهبه حرفياً ، إلا أنهم رغم ذلك تأثروا به من قريب أو بعيد . وكان أسرع الشعراء استجابة له معاصره ومنافسه أبو العتاهية^(٢٣) ، وقد ظهر ذلك في قصيدة يمدح بها موسى الهادي وفيها يقول :

لهفي على الزمن القصير بين الخورنق والسدير^(٢٤)
إذ نحن في غرف الجنا ن نعووم في بحر السرور
في فتية ملكوا عنا ن الدهر أمثال الصقور
مانهم إلا الجسو ر على الهوى غير الحصور
يتعاورون مدامة صهباء من حلب العصير
عذراء رباها شعاع ع الشمس في حر الهجير

وإذا جاز لقائل أن يقول : إن تأثر أبي العتاهية كائن بالجو العام المسيطر على العصر أكثر منه بشعر أبي نواس ، فإن هناك شاعراً آخر من معاصريه^(٢٥) تبدو المحاكاة في شعره واضحة ، ونعني به أبا الشمقمق في قصيدته التي مدح فيها يزيد بن مزيد قائله الرشيد فقال :

رحل لم يكن بايزيد مطيةً فجعلتها لك في السفار مطيةً^(٢٦)
تخذي أمام العملات وتغتلي في السير تترك خلفها المهرية
واذا ركبت بها طريقاً عامراً تنساب تحتي كانسياب الحية
لولا الشراك لقد خشيت جاحها وزمامها ما إن يمس يديه

(٢٣) يظهر أم أبا العتاهية خشي أن يبه أبو نواس بفخر ذلك النوع من التجديد ، فأشدد القصيدة المشار إليها ، وهي كما ترى حافلة بالحديث عن الخمر وجلسها وسقاتها .

(٢٤) الأغاني ج - ٣ - ص ١٥٦ .

(٢٥) معاصري أبي نواس .

(٢٦) تاريخ بغداد ٤ / ٣٣٦

حيث نرجّع أنه قد تأثر في ذلك بقصيدة أبي نواس النونية التي مدح فيها الفضل البرمكي ، وأشار فيها إلى الأحذية ، وقد مرت بك منذ قليل .

وقد كان لثورة أبي نواس الفضل فيما شاع بعد ذلك من اقتضاب المطالع ، فإن كان لابد لبعض الشعراء من الإلمام بالناقة والصحراء في صدور قصائدهم احتراماً للعرف الأدبي ، وإبقاء على التقاليد ، فأولى بهم أن يملأوا بذلك مَرَّ الكرام ، كما فعل أبو العتاهية في لاميته التي مدح بها عُمر بن العلاء والتي يقول فيها .

إن المطايا تشتكيك لأنها قطعت إليك سباسباً ورمالاً
فإذا وردن بنا وردن مخفة وإذا رجعن بنا رجعن ثقلاً

وقد كان سرور ابن العلاء بهذا الاقتصاد شديداً ، حيث يروى (٢٧) أنه أعطاه سبعين ألف درهم أثارت حسد زملائه من الشعراء وبخاصة مروان بن أبي حفصة فجمعهم عمر وقال لهم: يامعشر الشعراء عجباً لكم ، ماأشد حسد بعضكم بعضاً ، إن أحدكم يأتينا ليمدحنا بقصيدة يشب فيها بصديقه بخمسين بيتاً ، فما يبلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه ورونق شعره ، أما أبو العتاهية فقد شب بأبيات قليلة ثم قال: وذكر البيتين السابقين ، ويروى صاحب تاريخ بغداد (٢٨) أن مروان روى واقفاً بباب الجسر كئيباً أسفاً ينكت بسوطه في معرفة دابته فقيل له: ماالذي نراه بك ياأبا السَّمُط؟

قال: أخبركم بالعجب ، مدحت الأمير فوصفت له ناقتي من خطامها إلى خفيها ، ووصفت الفياثي من اليمامة إلى بابه أرضاً أرضاً ، ورملة رملة حتى إذا أشفيت منه على غنى الدهر جاء ابن بائعة النواخير - يعني أبا العتاهية - فأنشده بيتين ضعضع بهما شعري . وأشار إلى البيتين السابقين:

ويصعب على الباحث أن يضع المحاولات المختلفة التي قام بها الشعراء بعد دعوة أبي نواس لتطويع المطالع لظروف العصر وظروف الموضوع تحت عنوان أو اثنين

(٢٧) ابن خلكان ج - ١ - ص ٧٢ .

(٢٨) تاريخ بغداد / ٢٥٨

لكثرتها وافتتان الشعراء فيها . وبالرغم من ذلك يمكن مع شيء من التساهل تقسيمها إلى نوعين :

الأول منها حاول الشعراء فيه خدمة الغرض الأساسى من أول القصيدة مباشرة . وذلك بتكييف الجو العام للغزل تكييفاً خاصاً بحيث يلقي أضواء وظلالاً مختلفة ويحدث ارتباطات متنوعة شعورية ولا شعورية ، تلتقى فتألف وتتعاون جميعاً على إصابة الهدف الذى يرمى إليه الشاعر ، وأهم ما يتوسلون به إلى ذلك اختيار ضمائر الخطاب فى الغزل بحيث تصلح للمذكر والمؤنث ، ثم دسّ المعانى أو الشكاوى التى يريدون إيصالها إلى أذن الممدوح ، فتصل إليها بين التعريض والتلميح . وتقع من النفوس أجمل موقع وأعذب . ومن أمثال ذلك قول أبى العتاهية فى مطلع مدحته لعمر بن العلاء (٢٩) .

يا صاح قد عظم البلاء وطالا	وازددت بعدك صبوة وخبالا
حُمِلْتُ من لا أنوّه باسمه	ثقلًا كأن به علىّ جبالا
ماذا لقيت من الهوى وسقامه	فيها تبارك ربنا وتعالى
يامن تفرد فى الجبال فلا ترى	عيني على أحد سواه جبالا
أكثرت فى شعري عليك من الرُّق	وضربت فى شعري لك الأمثالا
فأبيت إلا جفوة وتمسعا	وأبيت إلا صبوة وضلالا

وقول البحتري يمدح المتوكل :

عذيرى فيك من لاح إذا ما
شكوت الحب حرقنى ملاما (٣٠)
فلا وأبيك ما ضيَّعت عهدا
ولا أبيتك ما قارفت ذاما
ألام على هواك وليس عدلا
إذا أحببتُ مثلك أن ألاما

(٢٩) برائق فى أبى العتاهية ص ١٧٧ .

(٣٠) ديوانه ص ٢٢٤ .

لقد حرّمت من وصلى حلالا
وقد حلّت من هجرى حراما

وقوله يمدح الفتح بن خاقان ويعاتبه :

عنت كبدى قسوة منك ما إن تزال تجدد فيها ندوبا (٣١)

ومنه أيضاً قول أبى الطيب المتنبى ، يعاتب سيف الدولة ويمدحه :

واحر قلباه ممن قلبه شيم ومن يجسمى وحالى عنده سقم (٣٢)
مالى أكتّم حبا قد برى جسدى وتدعى حب سيف الدولة الأهم
إن كان يجمعنا حب لغرته فليت أنا بقدر الحب نفتسم

وقول ابن المعتز مفتتح مدحه للمعتضد ، وقد نفاه وحال بينه وبين مجالسه :

أتسمع ما قال الحمام السواجع وصائح بين فى ذرا الأبك واقع
منعنا سلام القول وهو محلل سوى لمحات أوتشير الأصابع
وإنى لمغلوب على الصبر إنه كذلك جهل المرء للحب صارع

فظاهر هذه المطالع جميعها التشبيب بفتيات معروفات للشعراء . ولكننا مع ذلك واثقون من أن قول أبى العتاهية مثلا :

يا من تفرد فى الجبال فلا ترى
عينى على أحد سواه جمالا

لابد أن يسترعى انتباه ابن العلاء ، حتى ليكاد يظن أنه المخاطب به دون غيره
من البشر ؛ لأن خلوه من ضمير المؤنث يجعله صالحا لأن يوجه له مباشرة أليس من
الجبال ما هو خلقى يصلح للرجال وغير الرجال ؟

ومثل هذا يمكن أن يقال فى قول البحترى للمتوكل .

(٣١) ديوانه ص ١٥ . عناه الأمر يعنيه بفتح ياء المضارعة أهـ .

(٣٢) ديوانه ج - ٣ ص ٣٦٢ .

ألام على هواك وليس عدلا إذا أحبت منك أن ألاما
وأما قوله للفتح بن خاقان :

عنت كبدى قسوة منك ماإن نزال تجدد فيها تدوبا
وقول ابن المعتز للمعتضد :

منعنا سلام القول وهو محلل سوى لمحات أوتشير الأصابع
وقول أبى الطيب لسيف الدولة :

وأحر قلباه ممن قلبه شيم ومن بجسمى وحالى عنده سقم
فلا بد أن يلفت نظر المدوحين إلى موقفهم من الشعراء عند بدء القصيدة
مباشرة . ولثل هذه المبادرة خطرهما حيث تثير شكوى الشاعر بطريق غير مباشر ؛
فتخف على الأسماع وتسرع إلى القلوب .

ولعلنا الآن قد أدركنا الفرق بين غزل هذا العصر وغزل العصور السابقة من مثل
قول كعب بن زهير :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متمم إثرها لم يفد مكبول
فإنه على جودته محصور فى دائرة ضيقة هى دائرة الغزل بالمرأة . أما الأمثلة التى
سقناها آنفا فهى كالقطعة الثينة من الماس يحسن الصانع صقلها بحيث ترسل
إشاعات مختلفة ، تخلب الأبصار ، وتبهر العقول .

ومما لا شك فيه أن الشعراء الأوائل لم يكونوا يلغون بالا إلى مثل تلك المعانى
الجانبية والأشارات الخفية ، فقصيدة « بانت سعاد » السالفة الذكر متضمنة لأمر لم
تسرع التفات الشاعر ولا الرسول ، وإلا لكانت هجوما صريحا على الأخير
كقوله (٣٣) .

(٣٣) ذهب الدكتور عبد الله الطيب فى محاضراته التى ألقاها عما نشستر ، والتى أشرنا إليها من قبل أن الشاعر
كان يلوح هنا بغضب الرسول عليه ، فهو بذلك لا يرى رأينا .

فيا لها خلة لو أنها صدقت
 بوعدها أو لو أن النصيح مقبول (٣٤)
 لكنها خلة قد سيط من دمها
 فجج وولع وإخلاف وتبديل
 فما تدوم على حال تكون بها
 كما تَلَوْنَ في أثوابها السغول
 ولا تَمَسَّكَ بالوعد الذي وعدت
 إلا كما يمسك الماء الغرابيل
 كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً
 وما مواعييدها إلا الأباطيل

ولنما بدءوا يفتنون لها في عصور متأخرة بعد أن لفت المدحون أنظارهم إليها ، إذ يبدو أن المدوح وهو المقصود والمخاطب بالقصيدة يكون من أدق الناس ملاحظة عند إنشادها . رووا أن ذا الرمة لما أنشد عبد الملك قوله :

ما بلل عينك منها الماء ينسكب
 كأنه من كلي مفرية سرب (٣٥)

وكان يعين الأخير علّة فهي تدمع أبداً ، قال : وما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة ، وأمر به فأخرج من المجلس وأشباه ذلك كثير . ومنذ ذلك الحين بدأ الشعراء والنقاد يفتنون لمثل تلك الارتباطات الخفية ويتجنبون التورط فيما تورط فيه سلفهم من أخطاء . وكان مما قاله أبو هلال في ذلك : « ينبغي للشاعر أن يحتري في أشعاره ومفتتح أقواله بما يتطير منه ، ويستجنى من الكلام - ولا سيما في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني . . . فإن الكلام إذا كان مؤسساً على هذا المثال تطير منه سامعه وإن كان يعلم أن الشاعر يخاطب نفسه دون المدوح (٣٦) » .

(٣٤) سيرة ابن هشام ح - ٤ ص ١٥٤ .

(٣٥) الصناعتين ص ٤٣١

(٣٦) نفسه .

ولم يكتف الشعراء بهذه الناحية السلبية التي فطن إليها أبو هلال ، بل كانوا إيجابيين على النحو الذي أشرنا إليه .

أما المحاولة الثانية فقد قام بها أبو تمام ، وإن لم يشعر كثير من الناس بجهوده في تلك السبيل . وبيان ذلك أن أبا تمام مداح يستغل كل وسيلة ممكنة ، وكل لفظ في القصيدة لتحقيق الهدف الذي يسعى إليه من إطراء الممدوح والتأثير عليه . وطبيعي والحال هذه أن يحمل المقدمة نصيبها الموفور من خدمة تلك الغاية . ولذا لم يستطع أن يهبها للغزل التقليدي الذي دب إليه الفتور في آخر أيامه ، وكانت وسائله إلى ذلك كثيرة ومتنوعة ، إلا أننا نحب أن نسجل هنا أجر تجربتين قام بهما في هذا الصدد . في الأولى منها حاول أن ينحو بالمقدمة منحى كتاب القصص في عصرنا الحاضر من حيث استعراض الماضي في لحظات خاطفة قبل الدخول في الموضوع^(٣٧) ترى ذلك في مثل قوله يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري^(٣٨) :

أطلأهم سلبت دوماها الهيفا	واستبدلت وحشا بهن عكوبا
يامتزلا أعطى الحوادث حكمها	لامطّل في عدة ولا تسويها
أرسي بعرصتك الندى وتنفس	نفسا بعقوتك الرياح ضعيفا ^(٣٩)
شغف الغمام بعرصتيك وربما	رؤت رباك الهائم المشغوبا
ولئن ثوى بك مقلبا أجرامه	ضيف الخطوب لقد أصاب مضيفا
وهي الفجائع لم تزل نكباتها	بألفن ربع المنزل المألوبا
خلفت بعقوتك السنون وطالما	كانت بنات الدهر عنك خلوبا
أيام لا تسطو بأهلك نكبة	إلا تراجع صرفها مصروفا
وإذا رمتك الحادثات بلحظة	ردت ظباؤك طرفها مطروفا

إلى آخر ما قاله في تلك المقدمة . ونحن لا نشك في أن القارئ لها يدرك بسهولة

(٣٧) هذا التشابه يجعلنا نعتقد أن الفكر العربي في تلك الفترة من الزمن كان قد تهيأ للقصص ولكنه تحت ظروف مختلفة وقف عند هذا القدر المتواضع في الشعر ، كما وقف عند المقامة في النثر .

(٣٨) ٢٠٤ ديوان .

(٣٩) العقرة : فبح المهمة وسكون المثانة الفراغ المحيط بالدار .

الفرق بينها وبين قول امرئ القيس مثلاً :

قما نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحول
فتوضّح فالحمقراة لم يعف رسمها لماً نسجتها من جنوب وشمال
تري بحر الارآم في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل

حيث قنع امرؤ القيس بتصوير الأثر المائل بين يديه والوقوف عند حدوده ، بينما يحاول الطائي أن يربط بينه وبين الماضي ، مستثيراً هذا بذكر ذاك ، على أن مجهوداته كانت أبعد أثراً وأشد وضوحاً في ميدان آخر هو ميدان المطالع الطبيعية ، ونعني بها تلك المطالع التي تتحدث عادة عن الطبيعة وعن الأمطار والسيول ، وما ينبت عليها من ورود وأزهار ونحوها ، وإحلال ذلك محل الدمن والأطلال والنساء والغزلان .

وقد ظهر ذلك النحو من المطالع في العصر الجاهلي ومنه قصيدة زهير بن أبي سلمى التي أشرنا إليها سابقاً^(٤٠) ولكنه كان قاصراً حيث لم يربط بين وصف الطبيعة والمدح^(٤١) على عادة الجاهليين من الفصل الظاهري بين المقدمة والموضوع ، اللهم إلا ما كان من ربط ضعيف في مثل قول أوس بن حجر :

يامن لبرق أبيت الليل أرقبه في عارض كيباض الصبح لمّاح
دانٍ مسفٍ فوق الأرض هَيْدبه يكاد يدفعه من قام بالراح

ثم وصله بالدعاء والمدح فقال :

سقى ديار بني عوف وساكنها ودار علقمة الخير بن صباح
وأما أبو تمام فشرع طريقة جديدة استمد عناصرها الأولى من زهير ومن بعده ،

(٤٠) نقصد قوله : صبحا القلب عن سلمى وأقصر باطله . وعرى أفراس الصيا ورواحله ويظهر أن الجاهليين فعلوا ذلك تجنّساً للملل وطلباً للتجديد فلم يكن محرد مصادفة أن يظهر هذا النحو من التجديد عند إمامي الصنعة في العصرين الجاهلي والعباسي بل كان عن قصد . ومغزاه في نظرنا أن كلا منهما يبذل جهده في الرق بصناعة والافتتان فيها .

(٤١) وهذا متفق مع عادة الجاهليين من عدم الربط بين المقدمة والغرض الأصلي بأكثر من مثل قول زهير .
دع ذا وعد القول في هرم خير السداة وسيد الحضر
فتأويل هذا عندهم : دعك من أحاديث الدمن والأطلال وانتقل بنا إلى ما هو أهم من ذلك .

ولكن أبا تمام بعقليته الجبارة استطاع أن يحيل تلك العناصر الأولية إلى مثل تلك الصورة البارة التي نراها في قوله بمدح المعتصم .

رَقَّت حواشي الدهر فهي تُمرِّمُ وغدا الثرى في حَلْيِهِ يتكسر^(٤٢)
بذلت مقدمة المصيف حميدة ويد الشتاء جديدة لا تكفر
وقد أخذ في وصف الطبيعة حتى قال :

يا صاحبيّ تقصّيباً نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تُصوّر
تريا نهراً مشمساً قد شابه زهر الربى فكأنما هو مقرر
دنيا مبعاش للورى حتى إذا حل الربيع فأنما هي منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها نوراً تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة تَرَفِّقُ بالندى فكأنها عين إليك تَحَدَّرُ
تبدو ويحجبها الجحيم كأنها عذراء تبدو تارة وتَحْفَرُ^(٤٣)
حتى غدت وَهَدَاتِهَا ونجّادها فئين في حلل الربيع تبخر

وبعد عدة أبيات على هذا النسق يصل الحديث عن الطبيعة بالمديح فيقول :

خَلَقَ أَهْلٌ من الربيع كأنه خلق الأمام وهدية المنتشر
في الأرض من عدل الأمام وجوده ومن النبات الغض سُرْج تزهّر
تُنسى الرياض وما يُروّض فعله أبدأ على مر الليالي يُدْكَرُ

والدارس لمثل هذه القصيدة ينبغي أن يفتن إلى أمرين : أولها إخراج الورود في صورة العذارى ، وكأن أبا تمام وهو يبحث عن شيء جديد تشترك العواطف الإنسانية جميعها في التعلق به ليحله محل المرأة طلباً للتجديد وفراراً من التكرار - لم يجد شيئاً أيسر من الأناث . ولذا نراه يمزج بين البذل والمبدل منه ليلفت الأنظار إلى أنه لم يسرف في تجاهل تقاليد الشعر العربي حين وضع الطبيعة موضع المرأة ، وأسبغ عليها من عواطفه وأعجابه ما كان سواه من الشعراء يسبغه على المرأة وديارها .

(٤٢) يقال مرمر جسم الجارية أى اهتز وترجرج .

(٤٣) الجحيم: نبت يطول حتى يصير مثل جمّة الشعر ، كذاني اللسان .

وثانيهما الربط القوي البديع بين الحديث عن الطبيعة والموضوع الأصلي وهو أمر لم يسبق إليه^(٤٤) مما يجعل المقدمة تبدو كأنها جزء من المدح ، أو المرحلة الأولى من مراحلها .

وليست هذه القصيدة هي المحاولة الأولى لأبي تمام في هذا الصدد بل له أكثر من محاولة مشابهة نذكر منها قصيدة أرسلها إلى إبراهيم والفضل كاتبى عبد الله بن طاهر يعتذر إليهما حين حبسه المطر عنهما وفيها يقول :

منع الزيارة والوصول سحائب شم الغوارب جأبة الأكثاف^(٤٥)
ظلت بنى الحاج الملح وأنصفت عرض البسيطة أيما إنصاف^(٤٦)
إلى أن قال :

إن الشتاء على شتامة وجهه هو المفيد طلاقة المصطاف
وكأنما آثارها من مزنة بالميث^(٤٧) والوهداث والأخفاف
آثار أيدى آل مصعب التي بسطت بلا من ولا إخلاف

وربما جمع أبو تمام بين وصف الطبيعة والحديث عن الخمر في مطالعه كما فعل في تلك القصيدة التي مدح بها محمد بن حسان الضبى^(٤٨) .

ومعزس للغيث يخفق فوقه رايات كل دجئة وطفاء
نشرت حدائقه فصرن مطارفا لطرائف الأنواء والأنداء

(٤٤) لأستاذه مسلم بن الوليد محاولة كان فيها أقل نضجا من أبي تمام ، ونشير بذلك إلى قصيدة ربط فيها بين الخمر والمدح ربطا صمغيا فقال :

إذا شتئا أن تسقياني مدامة فلا تقتلاها كل ميت محرم
خلطنا دماً من كرمه بدمائنا فائر في الألوان منا الدم الدم
فن لامي في اللهو أو لام في الندى أبا حسن زيد التدى فهو ألوم
وظاهر أن مسلم وهو أحد أقطاب الصنعة في العصر العباسي لم يقنع بما كان يفعله سلفه أبو نواس من التمهيد بذكر الخمر بل ربط بينهما وبين المدح كى تبدو كأنها جزء منه .

(٤٥) ديوانه ص ٢٠٤ جأبه : عريضة .

(٤٦) الحاج . جمع حاجة .

(٤٧) الميث : الأرض اللينة ، والوهداث : الحصر ، والأخفاف : سفوح الجبال أو نحوها في الارتفاع .

(٤٨) شرح ديوانه للخطيب التريزى تحقيق محمد عبده عزام ص ٢٢ .

فسقاه مسك الطل كافر الندى وانخل فيه خيط كل سماء
غنى الربيع بروضه فكأنما أهدي إليه الوشي من صنعاء
صبحته بسلافة صبحتها بسلافة الخلطاء والندماء^(٤٩)

وكان أهل الأندلس أشد الناس ولوعاً بهذا النوع من المقدمات ، ولعل هذا
راجع إلى جمال البيئة الأندلسية نسيها واختلاطهم بالأجانب ثم ميلهم إلى اللهو
والمتعة وعشقهم للطبيعة وحرصهم على الاستمتاع بها ، وقدرتهم على تذوقها ، فقد
روى أن نهر أشيلية على عهد العرب كانت تحف به جنان متصلة من الجانبين ،
وكانت الزوارق تتهاذى فوق سطحه ليلاً ونهاراً بطلاب المتعة وفيهم المغنون
والموسيقيون ويؤكد الشقندى صاحب هذا الخبر أنه زار مصر ورأى نيلها فكان في
هذا دون نهر أشيلية^(٥٠) وأول نص يصادفنا من الشعر الأندلسي في هذا الباب قول
أبي عمر يوسف بن هرون الرمادى من شعراء القرن الرابع الهجرى يمدح ابن
القرشية :

تأمل بآثر الغيم من زهرة الندى
حياة عيون متن قبل التغميم^(٥١)
تعجبت من غوص الحيا في حشا الثرى
فأفشى الذى فيه ولم يتكلم
ثم قال بعد عدة أبيات رابطاً بين الطبيعة والمدح على طريقة أبى تمام :
وإن جئتما بالشمس والبدر والحيا
مفاخرة جاءت بأسنى وأكرم
بعبد العزيز ابن الخلائف والذى
جميع المعالى تنتمى حيث ينتمى

واستغل الجزيرى من شعراء القرن الرابع أيضاً الطبيعة في إطراء المنصور
ومدحه أيما استغلال ومن ذلك قوله :

(٤٩) السلافة الخالص من كل شيء - والمراد بالسلافة الأولى الحمر والثانية المدوح .

(٥٠) راجع الشقندى في الجزء الثانى من نفع الطيب ١٥٠ .

(٥١) الحلة السيرة ص ١٠٩

وعلى يمينك سوسنات أطلعت
فكأنما هي في اختلاف رقومها
في مجلس جمع السرور لأهله
ويقول في قصيدة أخرى:

حيّتك ياقر العلا والمجلس
زهر تريك بحسنها ويلونها
ملّكن أفشدة الندامى كلما
ملك الهام العامريّ محمد

ويظهر أن تعلق المظفر بن أبي عامر بالأزهار ، أو بالمدح ، أو بكليهما قد زاد من اهتمام الشعراء بهذا الفن الجديد ، فقد روى^(٥٤) صاحب البيان المغرب أن المظفر بن أبي عامر اقترح على شعرائه في بعض أوقات الربيع من دولته قطعا نوارية في المنشور وهو الخيري وفي الزهر وغير ذلك من أنواع النوار . وكان شديد الإعجاب بذلك ، كثير الطلب لأنواعه في مظانه ، وأحب أن يدخلها قيانه في أغانيه ، واكتب كثير منه في وقته لحسنه وغرابتة في معناه وكان من مستحسنه قول أبي العلاء صاعد بن الحسين البغدادي في الآس:

من كان وده للآس متها
نعم الصديق فما يخشى تلونه
إذا رآه أبو مروان ذكّره
فإن عندي ودغير متهم^(٥٥)

وقوله في الترنجان: م
لم أدر قبل ترنجان مررت به
من طيبه سرق الأترجج نكهته
أن الزمرد قضبان وأوراق^(٥٦)
ياقوم حتى من الأشجار سراق

(٥٢) نفع الطيب - ج - ١ - ص ٢٤٩ .

(٥٣) المرجع السابق .

(٥٤) ج ٣ ص ١٨ .

(٥٥) نفسه .

(٥٦) نفسه الذي ورد في اللسان ترنجج بجلف الألف والنون .

يشارك الخمر في نقي الهموم إذا ماشمه مُؤثر بالهجر مشتاق
 كأنما الحاجب الميمون علّمه فعل الجميل فطابت منه أعراق
 والمتأمل في هذه المقطوعات يراها تجرى على نسق شعر أبي تمام والرمادي
 والجزيري من حيث إدماج الأزهار في النسيج العام للقصيدة ، فتبدو وكأنها
 وشى يطرز به الشعراء ما يخلعونه على سادتهم من حلل المدح والثناء . وفي عصر
 ملوك الطوائف الذي يمثل العصر الذهبي للأدب في الأندلس ، أقبل الشعراء على
 هذا الفن إقبالا شديداً . ولدينا قصائد كثيرة بعضها وشيت مطالعه بوصف
 الطبيعة ، وبعض بالخمر ، والثالث بهما جميعاً . ومن أمثلة الأول قول أبي
 حفص بن الشهيد يمدح المعتصم بن صمادح من ملوك الطوائف :

سقى كل غيث صادق البرق وابل منابت نوار الربى والخائل (٥٧)
 فروى غصونا كالقدود تطلعت من أوراقها في مثل خضر الغلائل
 خليلي عوجا بي على الربيع دراساً نحبي رياضا أهدقت بجداول
 ملاعب كاسات ونزهة أعين ومسلى لمشتاق وذكرى لغافل
 وأحسن من روض تحلى بنوره محيا ابن معن في حلي الفضائل
 جواد كأن الأرض جمعاء راحة له وبحور الأرض خمس أنامل

وينبغي أن يلاحظ الدارس مافي البيت الثاني من مزج بين صور الطبيعة
 الإنسان ، يتفق مع ماذكرناه في غير هذا المكان من أن الطبيعة حلت عندهم
 محل المرأة ، والإشارة إلى الربيع الدارس في البيت الثالث يؤكد هذا المعنى حيث
 أخذ يبكى ديار الأزهار كما كان العرب فيما سبق يبكى ديار الأحبة (٥٨) ومن
 الثاني قوله في ابن صمادح أيضاً :

فشربتها كلف ألفؤاد عميدا راحا وكانت مرة عنقودا (٥٩)
 ختمت بطينتها وزمزم حولها قس وغادر بابها مسدودا

(٥٧) الدخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ٩٦ .

(٥٨) وقد صرح الصنوبري من شعراء الشام بأن الرياض صرفته عن الأطلال - الطبيعة للدكتور نوفل ص

(٢١١) .

(٥٩) الدخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص ١٩٩ .

وثنوسيت فكان صفّ دنانها في الحان أصحاب الرقيم وقودا
وكأنما الخمار كلهم وقد ألقى ذراعيه وسد وصيدا
فإذا شمت فسكة مفتوقة وإذا لحظت فبارقا معقودا
وإذا طمعت فريق أشنب واضح شفّ المشوق تجتبا وصدوداً
خُذِيَتْ على خلق ابن معن فاغتدت أملا وكنزا للسرور عتيدا

ومن الثالث قصيدة لأبي عامر بن شهيد أرسل بها إلى المؤمن عبد العزيز ابن
أبي عامر وفيها يقول عن المطر وأثره في الرياض^(٦٠) ويصل ذلك بالخمير
ومجالسها:

أما الرياح يجو عاصم فحلين أشطار الغمام
سهر الحيا برياضها فأسالها والنور نائم
حتى اغتدت زهراتها كالغيد بالّج العوام
من ثيبات لم تُبل كشفت الخدود ولا المعاصم
وصغار أبكار شكت خجلا فعادت بالكائم
ورد كما خجلت خدو د العين من لحظات هائم
بكر الحسان يردنها من كل واضحة الملاغم^(٦١)
وضحك عجباً فالتقت فيها المباسم بالمباسم
وكانني فيهم لقي م ط قاد من أحياء دارم
وتكاوست فيها الأبـا رق وهى فاهقة الخلاقم^(٦٢)
فكاننا فيها العفارت والكؤوس من الرواجم
وأغن من سـدن الملو ك سليل أقيال خضارم

(٦٠) أرسلها إليه ضمن رسالة طويلة يستحديه ضيعة . والمؤمن من أحفاد المصور مؤسس دولة بني عامر
بالأندلس في النصف الثاني من القرن الهجري الرابع . ولما زالت دولتهم في أواخر ذلك القرن ظل موالى آباءه
وأتباعهم متربصين حتى إذا سقطت الدولة الأموية في صدر القرن الخامس الهجري وانقسمت الأندلس إلى
دويلات يحكمها أمراء يسمون بملوك الطوائف أمر هؤلاء المولى المؤمن المذكور عليهم في بلنسية بشرق الأندلس
وأقام لنفسه ملكا هناك الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ١٦٩

(٦١) الملاغم بالغين المعجمة مأخاط بالمقم

(٦٢) تكاوست . تراكمت

يشكو الرُّعات تنعمًا ويضجمن حمل الثائم
لاستحيه الراشفا ت ولاتباليه اللوائم
لازمت باب محله والنجح من قنص الملازم
وبعيدة الأرجاء نا زحة على أيدي الرواسم
من فتنة قد أسبلت ظلماتها بيد المظالم
فكأننا عمى نسا ق على العمى في ظل عاتم
حتى انتضى عبد العزيز ز عزيمة من صدر عازم
فبدت لنا سبل الهدى بنواجيم غير الهواجم
ضرب الأعاجم سودها بالسد من بيض الأعاجم

وقد عز على أهل المجون ألا يستغلوا بضاعتهم في التمهيد لمذائهم ، مع أن
المجون جدير بأن يبعث السرور والانتعاش في نفس الممدوح ، فيزيد في عطاء
الشاعر ، ويبالغ في إكرامه . وأبو الشمقمق من أسبق الشعراء إلى هذا النوع من
المقدمات . وقد روى له ابن المعتز في طبقاته قصيدة خفيفة الظل يمدح فيها هارون
الرشيد ويقول في أولها:

عاد الشمقمق في الخسارة وصبا وحنً إلى زارة (٦٣)
ويقول في ثنائها:

إن العيال تركتهم بالمصرأ كلهم العصارة
وشراهم بول الحما ر مزاجه بول الحمار
وحينما استفحل المجون في الشعر ، وكلف الناس به ، واشتد إقبال الرؤساء
عليه ، وعظمت عطاياهم لأصحابه في القرن الرابع للهجرة - حين ذاك طالت
المقدمات المأجنة حتى كادت تغطي على الغرض الأول وهو المدح . ومن ذلك
قصيدة أبي حامد الأنطاكي التي يقول فيها:

ولقد دخلت على الصديق ق في البيت في اليوم المطير (٦٤)
متبخرا متشمرا للصفع بالدلو الكبير

(٦٣) ص . (٦٤) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٨٤ .

فأدرت حين تبادروا
يا للرجال تصافعوا
لاتغفلوه فإنه
هو في المجالس كالبخو
ولأذكرن إذا ذكر
ولأحزنن لأنهم
رحلوا وقد خبزوا الفطير
لا والذي نطق النبي
ما للإمام أبي علي
دلوى فكان عمى المدير
فالصفع مفتاح السرور
يستل أحقاد الصدور
ر فلا تملوا من بخور
ت أحبتي وقت السحور
لما دنا نضج القدور
ر ففاتهم أكل الفطير
ي بفضله يوم الغدير
ي في البرية من نظير

وواضح أن الممدوح لم يحظ من القصيدة إلا باليتين الأخيرين وإن كان في الحقيقة قد فاز بها جمعاء حيث استمتع بما فيها من فكاهة ومجون وإطالة المقدمات على هذا النحو تذكرنا بابن الساعاتي ، (٦٥) فقد كان يسرف في الغزل إسرافا يجعل القارئ لمدائحہ يتساءل عما إذا كان موضوعه الأصلي هو الغزل أم المدح .

المتنبي والمقدمات:

إن الوظيفة الطبيعية للمقدمات هي رفع الحال المعنوية وتقوية الانفعال عند المنشد والسامع ، ومن أجل هذا خاض القدامى في ذكر البوادي وحيوانها ، ومن أجله أيضا ثار أبو نواس على البوادي ، وأحل الخمر وسقائها محلها ، وقد عرفنا من قبل مدى ما في ثورته من منطق، خلاصته أن شيطانه يهيج في محارِب الحانات بنفس الدرجة التي يهيج بها شياطين أسلافه عند رؤية الدمن البالية ، والأطلال الدارسة .

ثم تنتقل إلى أبي الطيب لنقول ، أنه كان ذا شخصية متمردة ، لا تخضع لقانون ، ولا تحنى هامتها أمام نير العرف ، ولذا نراه يجهر بمهاجمة المقدمات الغزلية

(٦٥) من شعراء القرن السادس الهجري .

لما فيها من نفاق لا تحتمله طبيعته ، وتكلف لا تطمئن إليه نفسه ترى شاهدا على ذلك في قوله مادحا سيف الدولة :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعرا متيم ؟
لحُبِّ ابن عبد الله أولى فإنه به يبدأ الذكر الجميل ويُحتم
أطعت الغواني قبل مطمح ناظرى إلى منظر يصفرن فيه ويعظم

والآن وقد ثار على أكثر الموضوعات التي يقدم بها الشعراء لقصائدهم شيوعا ، وهو الغزل أين يتجه ؟

الجواب يسير ، فإذا كان القدامى قدّموا بأحب الموضوعات إلى أنفسهم ، وإذا كان أبو نواس قد تحول بتلك المقدمات إلى ما يعنيه من متع الحياة وملاهيها ، فلماذا لا يطلق هو أيضاً نفسه على سجيته ، ويضع في مقدمات قصائده أهم ما يشغل نفسه ويقصّ مضجعه من شئون هذه الحياة ؟ وأي خير فيه وفي شعره إن لم ينفس بعض ما يجيش في صدره من نقمة على الزمان ، وعتاب للذوى السلطان ، وتعال على الأقران ، واعتزاز بالنفس ، واعتداد بالمواهب ، وغير ذلك من دعاوى عريضة ، وشكاوى مرة ، تستخفي فتأخذ صورة الحكمة والمثل ، ثم ترمى النقاب جانبا ، فتكون هجوما عنيفا وثورة عارمة . وبين يدي قصيدتان تفسران صنيعه في هذا الميدان تفسيراً دقيقاً ، أولاهما بائيته في مدح كافور الإخشيدي ، ويبدوها بقوله :

مُنَى كُنْ لِي أَنْ الْبِياضُ خِضابُ

فيخفى بتييض القرون شباب (٦٦)

ليالى عند البيض فوداى فتنة

وفخر وذاك الفخر عندي عاب

فكيف أذمّ اليوم ما كنت أشتهى

وأدعو بما أشكوه حين أجاب ؟

جلا اللون عن لون هدى كل مسلك
 كما انجاب عن ضوء النهار ضباب
 وفي الجسم نفس لا تنيب بشيه
 ولو أن ما في الوجه منه حراب
 لها ظُفر إن كلَّ ظُفر أعدّه
 وناب إذا لم يبق في الفم ناب
 وإني لنجم تهدي بيَّ صحبتي
 إذا حال من دون النجوم سحب
 غنيَّ عن الأوطان لا يستغزني
 إلى بلد سافرت عنه إياب (٦٧)
 وما العشق إلا غيرة وطاعة
 يعرض قلب نفسه فيصاب
 وغير فؤادي للغواني رمية
 وغير بناني للزجاج ركاب
 تركنا لأطراف القنا كل شهوة
 فليس لنا إلا بهن لعباب

أما القصيدة الثانية فهي تلك التي مدح فيها مغيثا العجلى ، ويبدأها بقوله :

فؤاد ما تسليّه المدام وعمر مثلاً تهب اللثام (٦٨)
 ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
 وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
 أرايب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام
 وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنا بدنيانا الطغام (٦٩)
 ولولم يعلّ إلا ذو محل تعاني الجيش وانحطّ الفئام

(٦٧) استفزه . استخفه واستدعاه .

(٦٨) ديوانه ٢ - ٣٣٨ .

(٦٩) الطغام بفتح الطاء المهملة أوغاد الناس وأراذلهم .

والآن ماذا يمكن أن يفهم الدارس من هاتين القصيدتين ، أو بعبارة أدق هذين المطلعين ؟ الذى أراه هو أن الأبيات الأولى تمثل تطورا خطيرا فى عقلية الشاعر العربى وتفكيره – وإنما قلنا الشاعر العربى لأنك سترى بعد قليل أن معاصرى أبى الطيب ومن جاءه بعد من الشعراء ما لبثوا أن نسجوا على منواله لتشابه ظروفهم وظروفه إلى حد كبير .

وفى الحق أن أبا الطيب رائدا فذاً ولكن ما كان لسواه من الشعراء أن يحاكيه بنجاح واضح لو لم يكونوا فى قرارة أنفسهم مؤمنين بالكثير مما جاء به ، ولو لم تكن عقولهم وقلوبهم مهيأة للتجاوب معه ، وفى إيضاح ما أجملنا نقول :

إن الشاعر العربى فى القرن الرابع الهجرى ، بل والحياة العامة فى مجموعها قد وصلت درجة من النضج الفكرى درجة لم تصل إليها من قبل وقد يبدو هذا القول وكأنه من باب المبالغات الرخيصة، فقد درج الناس على جعل أيام الرشيد والمأمون العصر الذهبى للشعب العربى ، ونحن لا نمارى فى ذلك ، ولا نجهل أن الأمة العربية كانت تعيش إذ ذاك أجمل أيامها ، سياسيا ، واقتصاديا ، وأديبا وثقافيا واجتماعيا ، ولكننى ألفت الأنظار إلى عنصر هام وهو النضج ، ففى رأى أن القرن الثانى للهجرة كان عصر الغزو العلمى إن صحّ ذلك التعبير ، أقبل فيه الشعب العربى بتحمّس شديد على تراث الإغريق والفرس ، ولكن هذه الثروة المكتسبة لم تؤت أكلها ولم تنضج تمام النضج إلا فى القرن الرابع وما بعده .

ولن أخوض فى ذكر الفلاسفة من أمثال الفارابى وابن سينا ، وإخوان الصفا ولا النقاد من أمثال الآمدى وعبد العزيز الجرجاني ، فإنى لمثل هذه المباحث مكان آخر ، ولكنى ألفت النظر فقط إلى أن أبا الطيب ومعاصريه من أمثال ابن نباتة السعدى ، ومن جاء بعده من أمثال أبى العلاء وابن الحيات والطغرائى وعشرات آخرين بجانبهم قد أتوا فى الميدان الفكرى النفسى الاجتماعى بروائع ترتفع فوق مستوى بشار بن برد وأبى نواس بقدر ما ارتفعا فوق جرير وأشباهه من القدامى .

والذى يهمنى من مظاهر ذلك النضج هنا هو أن الشاعر العربى متمثلا فى أبى

الطيب قد أخذ ينظر إلى أحاديث الغزل على أنها نوع من البراءة والسذاجة التي كانت تناسب أسلافهم من أهل الدعة والترف وخلو البال والتخفف من أعباء الحياة وأزماتها ، أما في عصر المتنبي وصحبه فقد تعقدت الحياة ، ومَرَّ الشعب العربي بمراحل كثيرة اختلفت فيها ظروفه رفعة وضعة ، وقوة وضعفا ، وعسرا ويسرا ، وأخيراً تبدلت حاله من حاكم إلى محكوم ، وسيد إلى مسود ، ومزقه الخلافات ، وأنهكت الثروات . ولا بد أن تترك هذه الأمور جميعا صداها في نفوس الناس ، ولا سيما من كان منهم مستعدا بفطرته ، أو مهيبا بما يحيط به من ظروف إلى إدامة التفكير فيما يجري حوله من مآسى ومظالم ، وما يمثّل على مسرح الحياة من مهازل ومناقضات .

وشاءت الظروف أن يعيش المتنبي المتمرد الطموح الناقم التأثير في هذه الفترة من الزمن ، وشاءت له أن يكون شاعرا ، وأن يكون المديح هو وسيلته الأولى للشهرة ، بل ولكسب لقمة العيش ، وكأني به يسعى إلى إنشاد بعض الناس مدائحهم ، وهو مشغول عنهم تماما بما يعتلج في نفسه ، ويحول في صدره من المعاني التي أشرنا إليها سابقا ، ولذا يُغلب الرجل على أمره ، وتستبدّ به عواطفه ونزعاته ، فتظفر تلك المعاني إلى لسانه ، وتأخذ مكان الصدارة من مدائحهم وقد يكون ذلك بطريقة لا شعورية تماما ، وقد يكون مدركا تمام الإدراك لما يفعل ، وسواء كان هذا هو الشأن أو ذاك فإن النتيجة واحدة ، وهي أنه كان يتصرفا طبيعيا تماما ، وأنه لا يختلف عن القدامى حين قدّموا بالبوادى وبقايا ديار الأحبة ، وغيرها من أمور كانت هي كل ما يشغل بالهم حين يفرغون من زحمة الحياة ، بل ولا يختلف عن أبي نواس حين أصرّ على أن يكون له من قصائده نصيب الأسد ، وأن تحتل الخمر وسقاتها صدور تلك القصائد .

وبعد هذا التمهيد الضروري رغم طوله نعود إلى أبيات أبي الطيب لنرى أنها تسائر الفكرة التي بسطناها خطوة خطوة ، فهو لا يتباهى بسواد اللّمة ووفرته ، وغير ذلك من مظاهر الشباب التي تزكّيه عند المرأة بل يفكر تفكيرا غريبا لم يسبق إليه . فقد تمنّى أن يكون هناك خضاب أبيض حتى يقطع ما بينه وبين الجنس اللطيف من

أسباب ، ويتنقل إلى عصر الشيخوخة ، حيث التجربة والحكمة والاتزان والوقار ، وكأنما أحسن المتنبي بغرابة موقفه ، وسمع همسات النقاد ، وهم يتساءلون عن سر عزوفه عن الغزل ، وإعراضه عن المرأة ، فأخذ يدافع عن نفسه في الأبيات الثلاثة الأخيرة ، مينا أن الحب من هوايات الشباب الذين لم تعركهم الحياة ، ولم يعركوها .

أما هو فقد هجر جميع الشهوات بما فيها الخمر ووصال الغواني ، واستبدت به شهوة واحدة هي شهوة النضال في سبيل المجد بلسانه حيناً وبرمحه حيناً آخر . وفي الأبيات الباقية من المقدمة يفصح بطريق لاشعورى عن الحبيب الذى استولى على مشاعره ، فأصبح فيه غزله ونشيدته ، وفي محرابه صلاته تسيحه ألا وهو نفسه التى يكيل لها الثناء كيلا ، وسواء كان مبالغا في ذلك ، أو مقتصدا ، فإن شيئا واحدا لا يسعنا أن نجحده ، وذلك أنه أجاد القول ، وأحسن الثناء . وحب أبى الطيب لنفسه يؤيده من شعره ، ألا تراه في قصيدة أخرى يقول : خليلك أنت لامن قلت خلّى وإن كثر التجمل والكلام أما الأبيات التى قدّم بها لمدح مغيث العجلى فتمثل جانبا آخر من نفسه العديدة الزوايا والجوانب ، لعله أشد تلك الجوانب استيلاء عليه وعنفا به ، ونعنى به النعمة على الحياة والأحياء ، ولا سيما السادة والحكام . وأحد الأسباب الهامة في نغمته عليهم هو ضآلة عطاياهم ، كما ترى بوضوح في أول تلك الأبيات . ومن حق المرء أن يعجب كيف سكّت الممدوح أمام شاعر يمحطه والسامعين بهذه اللعنات ؟ وفي جوانب ذلك تقول : إن الظروف المحيطة بإنشاد تلك القصيدة هي التى تفسّر ذلك الموقف الغريب ، فربما كانت هناك مثلا خصومات ومنافسات بين الممدوح وبين بعض سادة عصره ، وقد انتهز الشاعر هذه الفرصة ليشفى صدره وصدر الممدوح في نفس الوقت . ومهما يكن من أمر فإن ثورة أبى الطيب ، وضيقه بالناس لم يكن خافيا على أحد ، وبحسب الممدوح أن يكون بمنجى من شواظ تلك المعركة الدائرة بين الشاعر ومعاصريه ، ولا يضيره بعد ذلك من يسقط في ميدانها من الضحايا . والمعاني الواردة في مدح مغيث منتقاه وناصعة نصوعا يباعد بينه وبين غبار تلك المعركة .

وقبل أن نفرغ من المتنبي نلفت النظر إلى أن ماورد في مقدمات مدائحهم من الفخر بنفسه والإعجاب بمواهبه تارة ، والخط من قدر خصومه ومنافسيه تارة أخرى - إنما هو امتداد طبيعي لمواقف كثيرة مشابهة ، وقصائد ومقطوعات مُستقيلة وردت في هذا الاتجاه ، ولايعنينا الآن كثيرا ، رغم تأثيرها الضخم على الشعر العربي في الأجيال التالية لأبي الطيب ، حيث تلقف الشعراء القيثارة من يده ، وأخذوا يعزفون عليها مقطوعات وقصائد شجيّة ، تبدو ألحان المتنبي واضحة فيها ، كما ترى في شعر أبي العلاء ، والطغرائي ، وابن سناء الملك وعشرات بجانهم . ولكن الذي يعنينا الآن وعليه نقصر مجهودنا هو تسلّل تلك الموضوعات إلى مطالع القصائد ، مع أنها لم تُر فيها من قبل .

إعجاب الشعراء بمطالع أبي الطيب ومحاسنهم لها :

ما كان لنا أن نضيع ما أضعنا من وقتنا ووقت القارئ لو أن ثورة أبي الطيب على المطالع وتجديده فيها قد وقف عند حدود شعره . أما وقد صارت مطالعته نموذجا يحتذى ، ومثلا أعلى تشرّب إليه أعناق الفحول من الشعراء ، فقد صار من واجبنا أن نذكر عدة نماذج لما كان من مظاهر ذلك الإعجاب ، وما أدى من محاكاة . على أننا كما قلنا في بحث آخر نظم شعراءنا ، وتاريخنا الأدبي إذا عزونا صنيع الشعراء إلى مجرد الإعجاب والمحاكاة ، وأولى بنا أن نذكر الدارس بما قلناه منذ قليل ، حين ذكرنا أن القرن الرابع الهجري كان قد شهد نضوج الفكر العربي بدرجة لم يصل إليها من قبل ، وقد تضافرت فيه عوامل مختلفة على الشاعر العربي أيقظت فكره ، وأهليت مشاعره ، وخلقته خلقا جديدا ، ومن كان في شك من ذلك فليقرأ الأبيات التالية ، وليخبرني إذا شاء متى أحسّ الشاعر العربي بخطورة رسالته في الحياة على هذا النحو الذي يعلن عنه ابن نباته السعدي ومتى ربط بين الشعريين اليقظة العقلية والروحانية هذا الربط الوثيق الذي يبدو في قوله :

وكم الليل عندك من نجوم جمعت النثر منها في نظام *

* مختارات ٢/ ٢١١ ، والأبيات في مدح القاضي ابن معروف .

عتابا أو نسيباً أو مديحاً لخلٍّ أو حبيب أو هُمام
تفيد بها العقول نُهيَّ وصَحْواً وقد فعلت بها فِعْلَ المدام
لها في حَلْيَةِ الآداب رَكْض إلى حبِّ القلوب بلا احتشام

والذى يهمننا بعد هذا التطواف هو أن الشاعر العربي بعد أبي الطيب قد أخذ
يبثُّ في صدور مدائحه بعض ما يثقل رأسه من هموم الحياة أو ما يجيش في صدره
من آمال وأطباع ، ومن نماذج ذلك قول مهيار الديلمي في صدر قصيدة يمدح بها
الوزير زعيم الدين :

ليل السرى مثل نهار المُقام ما خِفْتُ أن تُظلم أو أن تُضام (٧٠)
ودون صدر البيت مُرْتَحَى به عليك ستر الذلِّ صدر الحسام
كم ترك الجُمَّة مُسْتَرَوياً بنظفة ليست تبلُّ الأوام ؟
نمت ونام الحظ فاقتح له جفئك وانهض فإذا قت قام
زاحمٌ على باب العلا ضاغطا لابد أن تدخل بين الزحام
مَيِّزٌ من الناس على ظهرها نفسك لا مَيِّزة تحت احتشام

ومنه أيضاً قول ابن الخياط في مطلع مدحه للقاضي فخر الدين بن عمار :

لأسلكن صروف الهول مقتحما هولا يزهد في الأيام من رغبا (٧١)
غضبان للمجد طلاباً بثأراً علأ والليث أفتك مالاقي إذا غضبا
لا يمنعنك من أمر مخافته ليس العلا لبئس يكره العطا

ولا ينبغي أن يفهم الدارس من قولنا فيما سبق أن هذه المقدمات أخذت تصوّر ما
يجيش في صدر شعراء ذلك العصر من طموح وآمال ، وما يعتلج فيها من عتاب على
الحياة والأحياء - لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن الصلة قد انقطعت فيها بين المقدمة
والموضوع تماما ، أو أن جوا من الفطور والملل كان يحيم أثناء انشادها بين الشاعر

(٧٠) ديوانه ٣ / ٣١٨ والمعنى إذا عاش المرء في بيئة يتوقع فيها الظلم والضميم فأولى به إذا كان كريما أن يرحل
عنها ، ويسعى عند ذلك أن يستوى عنده همار الودع المستقر ، وليل المهاجر المتقلب في مناكب الأرض ، حزبا
وسهلها .

(٧١) مختارات ٣ / ٥٤ .

والممدوح دائما ، فإن الأول يعرف رغبات الثاني ، وظروفه العامة جيدا ، ولعله في تلك المقدمات كان يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقولون ، فيرضى شيطانه أولا ، وغرور الممدوح أو ما أشبه ذلك من نزعات ثانيا ، ألا ترى مثلا أن أبيات مهيار تناسب وزيرا طموحا حاول اغتصاب السلطة من منافسيه ، والاستئثار بالجاه والنفوذ دونهم ؟ وليس ببعيد أن يكون هذا هو موقف زعيم الدين الذي قيلت فيه .

المقدمات في الرثاء :

عرف للقارئ مما كتبناه هنا ، وفي الباب الأول من هذا البحث أن مقدمات القصائد تهدف إلى رفع الروح المعنوية عند المنشد والمستمع ، وتعرض أهم ما يشغل بال الشاعر عند إنشادها . فهي غزل عن بعض الناس ، ومغامرات في عرض الصحراء عند آخرين ، وهي خمر وغلمان عند أبي نواس ، وطبيعة جميلة عند أبي تمام والأندلسيين ، وصراع ونضال عند أبي الطيب وتلاميذه . فأين مكان الرثاء من ذلك جميعه ؟ وهل دخل فيما دخلت فيه الأغراض الأخرى من مدح وفخر وهجاء ، ووشح صدره بما وشحت به صدورها ، أم كان له شأن آخر ؟ وجواب هذا السؤال يسيره ، وكان ينبغي ألا نشغل أنفسنا به ، لولا أن أخطاء ارتكبت في هذا الصدد كما سنعرف بعد قليل ، فوجب علينا لذلك التعرض له .

والذي يقضى به المنطق والذوق السليم ، بل والنظرية الأدبية التي بنينا مطالع القصائد أنه ينبغي للشاعر ألا يقدم للرثاء بمغامرات عاطفية ، أو نحوه وأولى به أن يمهّد لشعره إن شاء بجولات حزينة في عبث الأيام بناء وغدر الليالي بآمالنا ، وهذا هو ما فعله أبو العلاء في قصيدته المشهورة :

غير مجد في ملّتي واعتقادي نوح بالك ولا ترنم شادي (٧٢)
وشبيه صوت النعي إذا قيد س بصوت البشير في كل ناد (٧٣)

(٧٢) شروح سقط الزيد القسم الثالث ٩٧١ .

(٧٣) النعي على ورن غنى والمراد به هنا الناعي فهو إذن فعيل بمعنى فاعل ، ويكون أيضا مصدرا ، ومعنى المعى ، وهو في الأخير فعيل بمعنى مفعول .

وما فعله ابن منذر في رثائه لصديقه عبد المجيد الثقفي إذ يقول : -

كل حيٍّ لاقى الحامَ فَمودى مالحىٍّ موملٍّ من خلود^(٧٤)
يقدح الدهر في شاريخ رضوى ويحط الصخور من هُبود^(٧٥)

وبالرغم من هذا المنطق السليم ، والنظرية المتكاملة فيما نرى - عثرتُ على قصيدتين من نتاج العصر العباسي الثاني مهّد الشعراء للرثاء فيها بالغزل ، وبالحديث المرح عن الطبيعة ، ومن يدرى لعل بجانب ذلك قصائد أخرى لم تصل إلينا . أما الأولى فقد انشدها عبد الله بن المعتز في رثاء الخليفة المعتضد ، ويبدأها بقوله :

صدّت وأغرت طيفها بمتيم إن الفراق لمغم بالمغم^(٧٦)
وبدت فحسبك من وشاح ناطق كثرت وساوسه وحجل مُفحّم
وكانّ فاهها بعد آخر رقدة متسمّر بعقار دنّ مُعلم

وأما الثانية فقد رثى بها علي بن الجهم الخليفة المتوكل ، وقال في أولها :
وساريةٍ ترتاد أرضاً تجودها شغلت بها عينا قليلا هجودها^(٧٧)
أتنا بها الصّبا وكأنها فتاة تزجّيها عجوز تقودها^(٧٨)

وخروج ابن المعتز على التقاليد واضح لا يحتاج إلى تأمل ، وانحراف ابن الجهم ليس في حاجة إلى تأمل طويل ، فإن استهانت بالمناسبة الخطيرة التي أُلقيت فيها القصيدة ، ونعني مقتل الخليفة على يد جنوده لأول مرة في تاريخ الدولة الإسلامية - لا يبدو فقط في البدء بالطبيعة وهي من الموضوعات المرحّة ، بل في تلك الصورة الخلية التي شبه فيها السحابة بفتاة مغرّ بها ، وتقودها إلى حضرته عجوز ، خيرة في دروب الفتنة والأغراء .

(٧٤) طبقات ابن المعتز .

(٧٥) يقدح يفت ، يقال قدح المرض في الأسنان إذا تأكلت ، شاريخ جمع شمروح بضم فسكون ، أو شمراخ بكسر فسكون ، والمراد به هنا قمة الجبل ، وهبود بفتح الهاء ، يليها باء موحدة مشددة اسم جبل .

(٧٦) ديوانه ٤ / ١٦٧ .

(٧٧) ديوانه / ٥٦ ، سارية سحابة مطرة ليلا ، ترتاد . تتلمس وتبحث .

(٧٨) تزجّيها . تدفعها وتسوقها .

فكيف نفسّر إذن صنيع الشاعرين ؟ لقد اقترح الأستاذ خليل مردم^(٧٩) حلا لموقف ابن الجهم فزعم أنه كان يبكي أيام المتوكل السعيدة ، ويشبهها بسحابة ممطرة ، ملأت الأرض ثراء ورخاء ، وهذا رأى لا نتحسس له ، ولذا سوف نلتمس لموقف الشاعرين توجيهها آخر ، ملخصه أن كلا منهما كان يبدى شماتة ، وراحة نفسية لموت صاحبه ، ولما كان غير قادرين على إعلان تلك الشماتة بصراحة تامة ، وفي قصيدة أو مقطوعة مستقلة ، فقد سمحا لهذا القدر المتواضع بالظهور في مقدمة الرثاء ، إن صحَّ أن يسمّى ذلك رثاء ، والشماتة بموت الحاكم معروفة ، ومن ذلك مثلا الأبيات التي أنشدها أبو العتاهية عند موت المهدي ، والتي قال فيها مشيرا إلى نساء المهدي وجواريه :

رُحْنَ في الوشي وأصبح ن عليهن المسوح^(٨٠)
كل نطّاح من الدهر ر له يوم نطوح

وقوله أيضاً في موت أحد الخلفاء ، ولعله المهدي

مات الخليفة أيها الثقلان فكأنما أفطرت في رمضان^(٨١)
ثم نعود إلى ابن المعتز وصاحبه فنقول : إن الأول كان ناقما على المعتضد لإلقائه إياه في السجن فترة طويلة من الزمان ، وقصة ابن الجهم مع المتوكل شبيهة بذلك^(٨٢) .

على أن في قصيدة الأخير ما يدل على أنها لم تكن رثاء خالصا ، بل كان فيها إلى جانب ذلك نغمة على الخليفة وبطانته ، وحساب عسير له بعد مقتله ، وانتقاله إلى دار الحساب الحقيقي ، ترى ذلك في قوله :

(٧٩) ديوان ابن الجهم / ٥٦ .

(٨٠) الأغاني / ٣ / ١٧٨ الوشي . الثياب الحريرية المزركشة . المسوح . جمع مسح بكسر الميم وسكود السين المهملة ، وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان والناكلون .

(٨١) اقرأ أسطورة الزهد للؤلؤ .

(٨٢) اقرأ تاريخ الشعر ٢ / ٢٤٨ ففيه مزيد من التفصيل حول ابن الجهم والمتوكل وحاشيته . وكيدها للشاعر ، وهجائه لها .

فإننا ناصر الإسلام غرّك عصبه زنادقة قد كنت قبل أذودها
فلما نأت داري ومالك الهوى إليها، ولم يسكن إليك رشيدها
أشاع وزير السوء عنك عجائباً يتسبد بها في كل أرض مشيدها

وفي قصيدة ابن الجهم ما يثبت أن الحديث عن السحب والأمطار فيها لم يكن
عن رغبة صادقة في تشبيه أيام المتوكل بها ، بل أن كل ما هناك هو استغلال الطبيعة
في التقديم للغرض الأصلي من القصيدة^(٨٣) على نحو ما ذكرنا من قبل .

ألا ترى أنه انتقل من الحديث عن تلك السحابة السارية إلى التشهير بعده
عبيد الله بن خاقان وزير المتوكل ، ويجنوده الذين لم يثبتوا في المعركة ، رابطاً
بين هذا وذاك ربطاً محكماً فقال:

فرّت تسوق الطرف سبقاً كأنها جنود عبيد الله ولتّ بنودها^(٨٤)
وخلّت أمير المؤمنين مجدلاً شهيداً ومن خير الملوك شهيداً

(٨٣) اقرأ ص ٨٨ من هذا البحث .

(٨٤) فاعل مرت صمير يعود على سارية المذكورة أول القصيدة .

الفصل الثاني

أغراض الشعر ومدى ما أصابها من تطور

أخذت أغراض الشعر نصيبها الوفور من تلك الثورة العامة التي أصابت الحياة والأدب في ذلك العصر. فظهرت أغراض لم يعرف عنها الشعر شيئاً من قبل ولم ينظم شيء منه فيها كالغزل بالذكر وكذلك الشعر المسمى بشعر الزهد وتوسع الشعراء في أغراض لم يكونوا يخوضون فيها من قبل إلا قليلاً كالخمر والمجون والطبيعة. وتضاءلت بعض الأغراض، وتقلص ظلها كالغزل العذري لضعف دواعيه وإليك الآن عرض لكل من هذه الأغراض.

الغزل بالذكر:

بدأ هذا النوع المنحرف من الغزل في شعر أبي نواس خلال النصف الأخير من القرن الثاني للهجرة. ومنذ ذلك الحين والشعراء يخوضون فيه دون تخرج أو ميالة ولن نشغل أنفسنا - كما فعل بعض مؤرخي الأدب - بالبحث عن مصدر تلك العدوى الاجتماعية، وهل نزحت إلى العرب من الفرس أو غير الفرس لأن معظم هذه الآراء من باب الرجم بالغيب.

ومهما يكن من أمر فالناحية الجنسية لا تفيدنا في قليل ولا كثير، وكل ما يعيننا هو مجاهرة أبي نواس بها، وترديده لها في شعره، مع أنه كان في وسعه أن ينغمس في حمايتها ما شاء له شيطانه وانحلاله، وأن يستر بعد ذلك عيوبه كما هي العادة بين المبتلين بهذا الأمر من الناس.

وهذا الشذوذ المزدوج يمكن تفسيره بأحد الأمور التالية أو بها جميعاً.

الأول: أن أبا نواس كان مجنّاً عليه، اعتدى عليه في طفولته والبة بن الحباب^(١) كما تروى بعض كتب الأدب أو غير والبة، فظل بعدها مكبوتاً شاعراً

(١) الأغاني - ج - ١٦ ص ١٤٣، ص ١٤٥ وأخبار أبي نواس لابن منظور ص ١٠ - ١٢

بالهوان والمذلة . ومثل هذا النوع من الشواذ يجد عزاء ولذة كبيرة في الظهور بمظهر الفحول الذين يستبيحون حمى غيرهم من الضعفاء والمهازيل ، وكثيراً ما يتظاهرون بأنهم أصحاب اليد العليا في هذه القضية الخاسرة من طرفيها ، ويسرفون في تعداد أسماء ضحاياهم ومعشوقهم من الغلمان ، حتى يغيروا رأى الناس فيهم . وقد نجح أبو نواس من هذه الناحية نجاحاً كبيراً ، فقد نسى عنه كل شيء إلا أنه كان ماجناً خليعاً يهوى الغلمان ويطاردهم ويتغزل فيهم ، وأى شيء يتمناه غير ذلك ؟

والثاني : أنه كان يهوى الغلمان حقاً وينال منهم ، وبجهرته إذن تكون مجرد تحذير منه للمجتمع أو بعبارة أدق فرار من وخز الضمير . فالخارجون على المجتمع من الشواذ يشعرون بالآلام شديدة ، ويتوجسون خيفة من كل نظرة أو ملاحظة يوجهها الناس إليهم ، فإذا كان لدى بعضهم الجرأة أو التوقح الكافي آثروا أن يجهروا بما يرتكبه ويدافع عن مشروعيته ، ويتحدى الناس به وبذلك يصبح مهاجماً بعد أن كان مهاجماً ، ويتخلص نهائياً من الهواجس وآلام التخفي والتستر .

وأمر ثالث يمكن ضمه إلى ما سبق في تعليل تلك الظاهرة المنكرة ، ونعني به تملق أبي نواس للأمين وتجيئه إليه ، فقد كان الأمين متها ، وقصصه مع كوثر وغير كوثر من غلمان القصر معروفة^(٢) ويقال إن والدته زبيدة حين رأت كلفه بهم زودت قصره بالجوارى وقد ألبستهن زى الغلمان ، عسى أن تصرفه عن هؤلاء إلى أولئك .

أليس من حقنا بعد هذا أن ندعى أن أبا نواس كان بغزله هذا يحاول أن يروج للمذهب الخليفة المنحرف ، وأن يهون عليه وعلى الناس من أمر ذلك الشذوذ ، معتذراً عنه بأن سحر هؤلاء الغلمان وفتنتهم أقوى من أن تقاوم . أليس هذا هو ما يمكن أن نفهمه من مثل قوله^(٣) :

أما والله لا أشرا حلفت به ولا بطرا

(٢) الطبرى ج - ١٠ - ص ٢١٥ (المطبعة الحسينية) .

(٣) مثل هذا التوجيه لا يمكن قبوله إلا في ضوء ظاهرة تكاد تكون عامة وهى أن الشعر بجميع أقسامه تقريباً حتى ما يسمى منه بشعر الزهد كما ستعرف بعد قليل كان مسخرًا لخدمة الحكام ، أو بعبارة أخرى كان يباع ويشتري بالمال .

لو أن مرقشا حى تعلّق قلبه ذكرا
كأن ثيابه أطلع ن من أزراره قبرا

أما عناصر ذلك الغزل فتختلف بعض الشيء عن الغزل بالمؤنث من حيث إن معظمه يدور حول إعجاب الشاعر وافتتانه بالغلان مع وصف مواضع خاصة من أبدانهم وصفاً يتم عما وراءه من رغبات وضعية . ويكاد الغزل بالذكر يكون نهجاً وسطاً بين الغزلين الحسى والعذرى ، بمعنى أنه لا يعف عن ذكر الأوصاف الحسية ، ويدور حول العواطف دوران العذرى ، كما أنه لا يتورط في ذكر المغامرات مفصلاً فيها تفصيل الحسى الفاجر . وربما كان من الخير أن نذكر عدة نماذج تتحدث بنفسها عن خواص ذلك الغزل . قال فى غلام :

يا أيها الريم الذى صادنى بمقلة فى اللحظ حوراء^(٤)
وحاجب كالنون قد نمت فوق حجاج العين زجاء^(٥)
ألا برىق منك معسولة تشنى مـرارى وأدوائى
إنى غدا من حبكم ميت كمعروة من حب عفراء

ويقول فى آخر :

قضيب حين يقبل فى اعتدال فإن ولى فسائره كثيب^(٦)

وقال فى ثالث :

فديت من تم فيه الظرف والأدب
ومن يثيه إذا ما مسّه الطرب^(٧)
وردفه فى قضيب فوقه قر
من نور خديه ماء الحسن ينسكب

(٤) ديوانه ص ٤١٣ .

(٥) الحجاج : بجاء مكسورة بعدها جيم جمع حجاج يفتح الحاء وهو العظم الذى ينت عليه الحجاب

(٦) ديوانه ص ٤٠٨ .

(٧) ديوانه ص ٤١٠ .

كم ساعة منك خطتها ملائكة
أزهو على الناس بالذنب الذى كتبوا
ويظهر أن أهم ما كان يفتنه من الغلمان اهتزاز أعوادهم ونضارتها كما هو ظاهر من
الأمثلة السابقة ومن قوله أيضاً فى غلام :

تفرد بالجمال وقال هذا من الدنيا ولذتها نصيبى^(٨)
براه الله حين برى هلال وخفف عنه منقطع القضيب
فيهتز الهلال على قضيب ويهتز القضيب على كتيب
وإن دل مثل هذا على شيء فإنما يدل على تمكن الشر من نفسه واستيلاء
الشیطان على معظمه .

شعر الزهد أو التزاهد :

كان أبو العلاء المعرى يقول كلما هم بإنشاد شيء لأبى العتاهية . « قال الداهية
أبو العتاهية » ونحن لا يسعنا بعد الدراسة الطويلة لشعره إلا أن نسلم برأى أبى العلاء
فيه فقد استطاع أن يضلل الباحثين والنقاد ما يقرب من اثني عشر قرناً . ولا يزال
شعره فى مدارسنا الثانوية بل وجامعاتنا يدرس على أنه منبعث عن زهد أو ما يشبه
الزهد مع أنه أبعد الأشياء عن ذلك . حقيقة يتحدث أبو العتاهية عن الموت وما
يؤدى إليه من خراب القصور ، وتفرق الخدم والجنود ، ويتحدث عن تفاهة
الدنيا ، ويدعو إلى الزهد فيها ، وفى ملذاتها وشهواتها ، وربما يتحدث عن الجنة
والنار ، وعن القناعة والرضا بالقليل والجود والكرم ، وربما نهى عن الحرص
والبخل والشره ، ولكنه رغم ذلك ليس من الزهاد فى قليل ولا كثير ، فحياته
الخاصة وتشبهه الشديد بالمال إلى آخر لحظة من حياته تشككنا فى كل ما قاله ؛ فأى
إنسان إذن كان هذا الداهية ، وفيم نظمت كل تلك الأشعار ؟

إن المنابع التى تفجر منها ذلك الشعر ، والدوافع التى أعانت عليه يمكن ردها إلى
أصول ثلاثة :

(٨) ديوانه ص ٤١٢ .

اولها: حقد مركّز على أولى الجاه والسلطان وجميع الطبقات الممتازة في المجتمع لترفعها عليه بسبب اتضاعه الشديد عنها حيث كان لوالدين تافهين ومالموت في نظره إلا الطريق الوحيد لإزالة ما بين الناس من فوارق وإلغاء ماللسادة من امتيازات وخير ما يمثل ذلك قوله:

نصيبك مما صرت تجمع دائبا فثوبان من قِبْطِيَّة وحنوط^(٩)
 كأنك قد جُهِزْتَ تُهْدَى إلى البلى لنفسك في أيدي الرجال أطيظ
 وصرت إلى دار هي الدار لا التي أقت بها حيا وأنت نشيط
 محل به الأقدام ويحك تستوى وصيد كرام سادة ونبيط
 وكأنك بتحقيق الدنيا ، والتهوين من شأنها ، وسرعة زوال نعيمها ، يريد أن
 يلفت نظر المتغطرسين من ذوى الجاه إلى أن مأوتوا من متاع الدنيا ليس بذى
 خطر عظيم ، ومع ذلك فهو سريع الزوال ، وشيك الفناء ، كما ترى في قوله:
 لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب^(١٠)
 لمن نسني ونحن إلى تراب نصير كما خلقنا من تراب
 ألا ياموت لم أر منك بدا أتيت وماتحيف وماتحاني
 ثانيها: اتفاقية سرية بين الشاعر من جهة والفضل بن الربيع مع زبيدة زوج
 الرشيد من جهة أخرى^(١١) وغاية هذه الاتفاقية أن يطلق العنان لعواطف السخط
 والكراهية التي يحملها بين جنبيه لذوى الجاه والسلطان ، ومن بينهم الرشيد
 نفسه^(١٢) وتلك النقمة التي تعتلج في صدره على زينة الدنيا وملاهيها ، حتى بقيم
 الدنيا ويقعدها ضد مجالس الأنس والطرب التي تجمع الرشيد بالجوارى منافسات

(٩) ديوانه ص ١٤١ .

(١٠) ديوانه ص ٢٣ .

(١١) يؤيد هذا أبيات أرسلها الشاعر إلى الفضل بن الربيع عند غضب الرشيد عليه وفيها يقول مذكرا

الفضل بتلك الاتفاقية:

أجفوتى فيس جفاني وجعلت شأنك غير شأنى
 ولطالما أمـنـتى بما أرى كل الأمان
 حتى إذا جار الزما ن على صرت مع الزمان

الاغاني ج - ٣ - ص ١٣٦ .

(١٢) كان سبب ذلك تلوّن الرشيد في إتمام ماوعده به من ترويح عتبة له .

زبيدة في قلب الخليفة من جهة ، ويجعفر البرمكي عدو الفضل بن الربيع ونديم هارون على الشراب من جهة أخرى ، وهذا هو سر ثورته على المتع والشهوات ومجالس الغناء واللهو ، تلك الثروة التي أوحى إليه بمثل قوله :

أيا من باطية ودنّ وعود في يدَي غاوٍ مغنٍّ (١٣)
إذا لم تنه نفسك عن هواها وتحسن صَوْنَهَا فإليك عني
فإن اللهو والملهى جنون ولست من الجنون وليس مني
وأى قبيح أقبح من لبيب يُرى متطرباً في مثل سنى

وهذه الاتفاقية أيضاً هي سر القصائد والمقطوعات التي كانت تُلقى للرشيد فتبكيه ، وتصدع قلبه . ومن أمثلة ذلك ما حكاها الأصمعي من أنه دخل على الرشيد فوجده يبكي وبين يديه قصيدة من شعر أبي العتاهية منها قوله :
هل أنت معتبر بمن خربتُ منه غداة قضى دساكره (١٤)
وبمن خلت منه أسرته وبمن خلت منه منابره
وبمن أذلّ الدهر مصرعه فتبرأت منه عشائره

لقد كانت زبيدة تريد أن تجعل من الرشيد رجلاً عابداً ، زاهداً في كل شيء من الدنيا سواها ، وأبو العتاهية وشعره وسيلتها إلى ذلك ويظهر أن ما كانت زبيدة تلقى به من مال إلى أبي العتاهية قد أغرى ابنه بأن ينسج على منواله ، فأرهبه لذلك بلبس الصوف والاعتكاف في بيته استعداداً للظهور على المسرح (١٥) ولكن والده الخبير بما تحتاج إليه تلك المهنة من مهارة ولباقة قد نصحه بالاستمرار في تجارته ، فقد كان بزازا .

ومن عجب أن مؤرخي الأدب يعتقدون أن أبا نواس قد قال ماقاله في الزهد

(١٣) ديوانه ص ٢٥٤ .

(١٤) ديوانه ١٢٣ .

(١٥) زهر الآداب ج - ٢ - ص ٢٢٥ وانظر إلى هذه المحاور بين أبي العتاهية وولده كما يرويها الحصري :
« دخل أبو عتاهية على ابنه وقد تصوف . فقال : ألم أكن قد نهيتك عن هذا ؟ فقال وماعليك أن أتعود الخير ؟ فقال . يابني يحتاج المتصوف إلى رقة حال وحلاوة شمائل ولطافة معنى ، وأنت ثقيل الظل ، مظلم الهواء ، راكد النسيم جامد العينين فأقبل على سوقك فأنها أعود عليك : وكان بزازا » .

ونحن لانرى ضرورة إلى كل هذه الشمائل الحلوة لو كان التصوف حالصاً لوجه الله تعالى .

مخلصاً وعللوا ذلك بأن النفوس مهما كانت شريرة يعترها أحياناً ميل نحو التوبة ،
وندم على المعصية . والحق أن أبا نواس لم يؤمن بشيء من ذلك ولم يفكر فيه
وأكبر الظن أنه أراد أن يشارك أبا العتاهية في مال زبيدة كما تدل عليه القصة
التالية^(١٦) التي يرويها ابن منظور عن أبي مغلدة الطائي وفيها يقول «قال لي أبو
العتاهية إن أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحببت أن تسأله ألا يقول في الزهد شيئاً ،
فإني قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق ، وما فيه الشعراء ، وللزهد
شوقي . فبعثت إلى أبي نواس ، فجاء إلى وأخذنا في شأننا ، ثم قلت له : إن أبا
اسحق من قد عرفت في جلاله وتقدمه . وقد أحب ألا تقول في الزهد شيئاً .
فوجم عند ذلك وقال : يا أبا مغلدة قطعت على ما كنت أحب أن أبلغه من هذا .
ولأنخالف أبا إسحق فيما رغب إليه » .

وعبارة الراوي واضحة في أن هناك نوعاً من الاحتكار فرضه أبو العتاهية على
شعر الزهد ولا بد أن يكون وراء هذا الاحتكار مصالح مادية فلو كان خالصاً لله
واليوم الآخر ، لما ضاربه أن يشركه فيه أهل السموات والأرض لأن خزائن الله
تعالى لا تنفذ ، وفي المدح بعد ذلك مرتزق واسع لأبي نواس يغنيه عن هذا
الباب الذي افتتحه أبو العتاهية ، والطريق الذي مهده لنفسه .

وثالثها : شعور سكن إليه الشاعر ، وفكرة استراح إليها . رتل أن ينصب من
نفسه واعظاً ، ينطق باسم الدين ، ويتحدث بلسان الرسول ، فيقابل بتصفيق
العامة واحترامهم ، ومثل ذلك ينسبه أو يقلل على الأقل مما يعانيه من آلام
الشعور بالضعف والتفاهة وإلى هذا الدافع يمكن أن يرد كثير من شعره الذي يدور
حول الجنة والنار والزهد في الدنيا وفي المال حين يلتقي في عبارة هادئة شبيهة بعبارة
الوعاظ والمرشدين ومن ذلك قوله :

من سالم الناس سلم	من شاتم الناس شتم ^(١٧)
من ظلم الناس أسي	من رجم الناس رجم
من طلب الفضل إلى	غير ذوى الفضل حرم

(١٧) ديوان ص ٢٤٢ .

(١٦) أخبار أبي نواس لابن منظور ص ٧ .

وقوله :

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا^(١٨)
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم معبر
الخير مالم يس يخفى هو م المعروف والشر هو المنكر
لا فخر إلا فخر أهل التقى غداً إذا ضمهم المحشر

وقبل أن نختم حديثنا عن أبي العتاهية هنا نحب أن نلفت النظر إلى أنه كان
من أشد الناس تأثراً بالقرآن ومحاكاة له ، ولا غربة في هذا مادامت أهدافه
الظاهرية على الأقل تتفق مع أهداف القرآن . بل حاول أيضاً أن يكون أسلوبه
وعباراته شبيهين بأسلوب القرآن ما وجد إلى ذلك سبيلاً فقد روى أنه قال
يوماً «قرأت أمس سورة النبأ ، ثم قلت قصيدة خيراً منها^(١٩) ولا يزعجنا ما في مثل
هذه العبارة من صفاقة ، وكل الذي يشغل أذهاننا الآن هو أنها تدل على أنه كان
يحاكي القرآن عن قصد . ولعله كان يشير إذ ذاك إلى قصيدته التي يقول في أولها :
أذلّ الحرص والطمع الرقابا وقد يعفو الكريم إذا استرابا
وإنما ذهبنا إلى ذلك لأن رويها يذكرنا بسورة النبأ .

وما نظن إلا أنه كان يحاول أن يحاكي سورة الناس حين قال :

خذ الناس أودع إنما الناس بالناس ولا بد في الدنيا من الناس للناس
وكأنه بذلك يحاول أن يثبت قدرته على تكرار كلمة الناس خمس مرات في
بيت واحد ، كما كررت مثل هذا العدد في سورة قصيرة . هذا عدا اقتباسه الكثير
من القرآن .

ولعل جرأة أبي العتاهية على قوله السابق تعود إلى ما كان من شيوع روح
التمرد الديني بين أمثاله من الأدباء ، مع زوال تلك الرهبة التي كانت تحيط

(١٨) ديوان ص ١٠١

(١٩) الأغاني ح - ٣ - ص ١٣٧ .

بالقرآن على أثر المباحث التى أثارها علماء الكلام حوله ؛ حين بحثوه من ناحية الحدوث والقدم وتساءلوا عن إعجازه ، وعما إذا كان يرجع إلى أسلوبه ، أم إلى صرف الله الناس عن أن يأتوا بمثله .

الخمير والمجون:

يظهر أن أبا نواس كان يعانى آلاما مرة تنطق بها الأبيات التالية: -
وما يعرف الليل الطويل وغمه من الناس إلا من تنجّم أوأنا (٢٠)
خليون من أوجاعنا يعدلوننا يقولون: لم تهون؟ قلنا: لذنبنا
يقومون فى الأقوام يحكمون فعلنا سفاهة أحلام وسخرية بنا
فلو شاء ربى لابتلاهم بما به اب تلتنا فكانوا لاعلينا ولالنا
فلان فيها شكوى صارخة مكبوتة غلبت أبا نواس الماجن ، المغالط لنفسه
وللناس حين يخذعها ويخدعهم عن حقيقة أمرها ؛ فظهرت هنا فى مطلع إحدى
مدائحها بالغزل . وهذه الآلام والعواطف المكبوتة الشعورى منها واللاشعورى ،
هى التى كانت تدفع بالشاعر إلى الخمير يعب منها ويغرق فى لجتها أوصابه
وأسقامه ، أما منشأ هذه الآلام فربما كان من الصعب التعرف عليه ، سوى إن
شدوده الجنسية لا بد وأن يكون له صلة بتلك الآلام .

والقارئ لأشعار أبى نواس فى الخمير يوقن بأن تعاطيها كان يهين الجو الملائم
لظروفه الشخصية تمام الملاءمة ، فإنه فضلا عن السلوى والنسيان والنشوة التى
يشعر بها شاربها ، تجمعها بسقاتها من الغلمان ، وهناك يتقلب فى أعطاف الرذيلة
ماتسع له الوقت والمال والأبيات التالية تمثل بعض أهدافه من الذهاب إلى
الحانات :

وأحور ذمى طرقت فناءه بفتيان صدق ماترى منهم نكرا (٢١)
فأطلق عن أبوابه غير هائب وأطلع من أزراره قرا بدرا

(٢٠) ديوان ص ٧٥ .

(٢١) ديوان ص ٢٨٦ .

ومر أمام القوم يسحب ذيله
فقلت له ما الاسم حُيِّتَ قال لى:
فكدنا جميعا من حلاوة لفظه
وجاء بها والليل ملق سدوله
فما زال يستقينا ويشرب دائبا
فياحسنه لحنا بدا من لسانه
فقمنا إليه حين نام وأرعدت
فلما رأى أن ليس عن ذاك مخلص
يجاذب منه الردف فى مشيه الخصر
دعانى أبى سابا ولقبنى شمرا
نُجن ولم نسطع لمنطقه صبرا
مدلاً بأن وافى محيطا بها خبرا
إلى أن تغنى حين مالت به سكر
وياحسنه لحظا وياحسنه ثغرا
فرائصه تجرى بميدانه ضمرا
ووافقه لين أجاد لنا العصورا

ويظهر أن أبا نواس كان من أنصار المتعة الحسية فإننا نراه حتى فى مدحه يعلن
عن تلك الظاهرة عنده دون أن يشعر؛ كما فى قوله يمدح الرشيد .
ملك تطيب طباعه ومزاجه عذب المذاق على فم المتذوق
وقد عرفنا فيما سبق أن الخمر احتلت عند أبى نواس كثيراً من مطالع مدائحه
ومع ذلك فقد وقف عليها قصائد ومقطوعات رائعة من شعره . ولا نجد تعليلا
لمثل ذلك الهذيان سوى ما أشار إليه حين قال :
ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر (٢٢)
ونعنى بذلك أن شدة تعلقه بها تجعله حريصا على أن يعيش معها دائماً إن لم
يكن شارباً كارعا فلا هجا بذكرها مسيحاً بحمدها .

والخمر كل شىء فى حياة أبى نواس ولا يزحمها فى ذلك سوى الغلمان فإذا حج
فليس إلى كعبة المسلمين حجه ولا حولها طوافه ولكن إلى حانتها يسعى ، وأمام
معبدتها يصلى .

حَجٌّ مِثْلِي زِيَارَةُ الْخَمَارِ وَاقْتِنَائِي الْعَقَّارَ شَرِبَ الْعُقَادُ (٢٣)
والقارئ لأشعاره فيها يعجب لكثرة ما أورده فيها من معان وما ألحقه بها من
أوصاف فقد أسرف فى وصف سقاتها وأدواتها ولونها وما يعلوها من حباب وأثرها

(٢٢) ديوان ص ٢٧٣ .

(٢٣) ديوان ص ٣٥٥ .

في الشارب إلى غير ذلك من أمور لا يصعب الوقوف عليها ، ولذا نرى ألا نضيع الوقت في الحديث عنها بالتفصيل ، ولكن شيئاً واحداً يجب أن نلفت الأنظار إليه وذلك عرضه لها في صورة العروس في كثير من الأحيان وجعل ذهابه لشرها كذهاب الخطيب إلى خطبته وذلك حين يقول :

لما أتيت الدهقان أخطبها من بين أصهارها وأحباها^(٢٤)
قال من الخاطبون قلت له فتیان صدق فقال أكفاها
حتى إذا حطها وأنزلها وفك عنها الختام فدأها
أيمكن أن يقال في تفسير ذلك أنه حرم الزواج الرسمي بتقاليده وأفراحه
المعروفة ، ولذا يجد في الحديث عن الخطبة وفك الختام تعويضا عما فاتته ؟ إن
دراسة حياته بالتفصيل قد تجيب على هذا السؤال .

وإذا كان أبو نواس إماماً في الخمر والغزل بالمذكر إمامة تجعل الحديث عنه
حديثاً عنها ، فإنه قد تخلف في المجون تخلفاً شديداً ، رغم ادعائه أو طموحه إلى
السبق فيه . ولعل السبب في ذلك أنه كان يمزج مجونه بالغزل المنحرف ، وذلك
وإن خف على أسماع بعض الناس ، فإنه ثقیل بغیض إلى الطبائع السليمة . وإن
شئت فاسمع إليه يتماجن متحدثاً عن غلام .

وغزال زان بالسقا مة ردفا بربريا^(٢٥)
قاده إبليس طوعا بعد ماكان عصيا
فسقيناها على الور د شراباً ذهبياً
فكشفنا على بياض الرد ف ثوبا قصبيا
فوجدنا خلفه دِعضا من الثلج نقيا
فركبناها بلا سر ج ركوبا مرزويا
وحمدنا السير لما أن وجدناه وطيا

هل رأيت كلاماً أسمع من هذا؟ إن كل ما يمكن أن يعتذر به عن مثل هذا

(٢٤) ص ٢٤١ .

(٢٥) ص ٣٥٤ .

المجون أنه لم يقل للجمهور ولكن لطائفة خاصة ، هي طائفة الرقعاء من أمثال أبي نواس .

أما المجون الذى يضحك ولا يؤذى فيمكن أن نلتسمه عند شعراء الأجيال اللاحقة من أمثال أبي الحسن محمد بن عبد الله بن سكرة الهاشمي ، وأبي عبد الله الحسن بن أحمد بن حجاج بالعراق وأبي الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكي بالشام . وأبي عبد الله محمد بن مسعود بالأندلس^(٢٦) وترجع خفته على القلوب والأسماع إلى بعده عن الموضوعات المخجلة التي ظهرت عند أبي نواس ، ويهدف أصحابه إلى إضحاك أنفسهم والناس حتى لو كان ذلك على حساب وقارهم وسمعتهم .

والأطعمة والأشربة من أهم الموضوعات التي خاض فيها أهل المجون^(٢٧) ولا نجد تعليلاً لذلك إلا مانعته من أن المجون نوع من الشذوذ ، يلجأ إليه مرضى الأعصاب وأشباههم من كل منغص في حياته للتنفيس عن أعصابهم المتعبة ونفوسهم المحزونة . ولما كان الطعام عند بعض الناس وسيلة سهلة وقرينة لتخدير الأعصاب وتهذبة النفس ، فقد أكثروا من الخوض فيه . أما السبب في كثرة أهله وارتفاع أصواتهم إذ ذاك فيرجع إلى عوامل شخصية كتلك التي أشرنا إليها ، وعوامل اجتماعية وسياسية ، أهمها ميل المجتمع العربي المغلوب على أمره إلى اللهو والمرح شأن المجتمعات المتحضرة المنحلة ، الجادة في البحث عن سعادتها أو راحتها النفسية والروحية بأى ثمن وبأية وسيلة .

وإذا كان هذا الميل إلى اللهو والمرح قد ترك صداه عند الرومان في المصارعة ونحوها من ألوان العبث ووجد اليوم متنفساً فيما شاع بيننا من تمثيل هزلي ، فإنه أثناء تلك العصور قد وجد في الشعر العربي أيسر أداة لتحقيق أهدافه . وأكبر الظن أن كثيراً من أشعار المجنون كانت تنظم وتنشد بقصد إضحاك الرؤساء

(٢٦) اقرأ للعلاني في بتيمة الدهر للثلاثة الأول ، ولابن بسام في الذخيرة للرابع .

(٢٧) وبهذا الحديث عن الصفع والضرب ونحوه من الأمور المضحكة . فإذا ما تعرضوا للذكر الفواحش بدا من حديثهم قصد الدعاية الذي يخف من ساجتها كما ترى في هجاء الواساني لابن أبي أسامة . وقد ذكرناه في لفصل الخاص بالهجاء .

والأفراد ونيل جوائزهم^(٢٨) وقد روى لنا التاريخ أسماء بعض الخلفاء الذين اتخذوا المضحكين من الشعراء لتسليتهم وأحاديث أوى دلالة مع خلفاء بنى العباس مشهورة ، ولهم مع أمثاله أمثاله ، فليرجع إليها من شاء فى كتب الأدب والتاريخ . وفى مروج الذهب طرف صالح منها .

وربما انتهز بعض السادة مع الوزراء وأشباههم إحدى الفرص المواتية ليجعلوا من الشعر مادة فكاهة وتسلية . ومن ذلك ما أخبرنا به الثعالبى^(٢٩) من أن الصاحب بن عباد أوعز إلى الندماء المقيمين فى حضرته أن يعزوا أبا عيسى بن المنجم حين نفق برذون له كان الصاحب قد حملة عليه . وقد لبى هذه الدعوة الكريمة عدد غير قليل من الشعراء . وإليك عدة أبيات مما جادت به قريحته أوى القاسم بن أبى العلاء فى تلك المناسبة ، والتهكم والمجون فيه غير خفى وفيه يقول :

بكته جلال^(٣٠) الخزو وانتحبت له غالى حرير رُحْنٍ منه عطولا
أقام عليه آل أعوج^(٣١) وأعلى له آل الوجيه عويلا
ففى كل اصطبل أنين وزفرة تردد فيه بكرة وأصيلا
ولو وقت الجرد الجياد حقوقه لما رجعت حتى المات صهيلا
ولو أنصفته الخيل ما ذقن بعده شعيراً ولا تبناً ومن غليلا

وما زال هذا الفن يشتى ويستفحل ويزداد إعجاب الناس به ورضا الرؤساء عنه بل وإثابتهم عليه حتى رأيناه يحتل مطالع القصائد عند المداحين من أهل المجون وقد ذكرنا نموذجاً لذلك عند الحديث عن بناء القصيدة . وينبغى ألا ننسى أن اضطراب الدولة ، واستبداد الأجانب من ترك وفرس وأشباههم بثتونها ، مع تطامن الحق وانكماشه ، واستعلاء الباطل واختياله قد

(٢٨) يؤيد ذلك ما رواه الثعالبى من أن ابن حجاج إمام أهل المون فى عصره كان مكرمًا من أهل الجاه والسلطان وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر تحكم الصبى على أهله وبئمة الدهرج - ٣ - ص ٢٦ .

(٢٩) بئمة الدهرج - ج - ٣ - ص ١٩٤

(٣٠) الجلال . أكسية الدواب .

(٣١) أعوج فرس لبى هلال ينسب إليه جباد الخيل والوجيه من الخيل الذى يخرج يده حد التاج معاً

ملاً صدور بعض الناس أسي ، ودفع آخرين إلى السخرية من أنفسهم ومن الزمن بتلك الحيلة البريئة المأمونة العواقب . وإليك بعض أمثلة لما قيل في تلك الفترة من مجون ونبدأ بأبيات قالها ابن حجاج وقد رأى كلاب عز الدولة بختيار تطعم لحوم الجداء :

رأيت كلاب مولانا وقوفاً ورابضة على ظهر الطريق
فن ورد له ذنب طويل يعقّفه ومهلوب خلوق^(٣٢)
تغلّذى بالجداء فوددت أنى وحق الله خركوش سلق
نميا مولاي رافقى بكلب لأكل كل يوم مع رفيق
أرى القصاب قد أضحى عدوى لشؤم البخت والملح صديق
جفاني اللحم وهو شقيق روحي فمن يعدى على ذاك الشقيق

أما أبو الرقّي فيقول قصيدة يعجب فيها بنفسه ويأنه كان قواداً حاذقاً :
فأطيب العيش ما كان عندي أيام كلفسق قلّدونى^(٣٣)
وكنت طبا به بصيرا وأقود الناس فى سكون
والناس يسعون نحو دارى من كل أرض ويقصدونى
ومن أشعار ابن مسعود فى هذا الباب :

جنبونا سجية العشاق ودعونا من الهوى والتلاقى^(٣٤)
وأقلوا من البكاء على الرسم م ولا تأسفوا غداة الفراق
ما بشخص الحبيب يفرح ذو العقل م ولا بالحدود والأحساد
إنما الملك ثردة من بقايا من دجاج مسمّات عتاق
وإذا قيل لى بمن أنت صب وعلام انسكاب دمع المآقى
قلت: بالسكباى والجملىا تورخص الشواء معا بالرقاق
وجشيش السميد أعذب عندى من رضاب الحبيب عند العتاق

(٣٢) ورد: يميل إلى الحمرة ، يقصفه: يطويه على هيئة دائرة ، مهلوب: مقطوع الذنب: خلوق بفتح أوله يميل لونه إلى الصفرة .

(٣٣) يتيمة الدهر للتحالى ج - ٣ - ص ٥٠ .

(٣٤) نفسه ح - ١ - ص ٢٨٦ .

درس هذا الموضوع بأسهاب فى الجزء الثالث من تاريخ الشعر .

الطبيعة :

عرف الجاهليون الطبيعة وأحبوها وأكثروا من القول فيها فوصفوا القفار والجبال ، كما وصفوا السيول والأمطار وما ينبت عليها من أعشاب ونحوها وكان أكثرهم وصفاً لها امرؤ القيس الذي وهب نفسه ووقف ملكته على متع الشباب المختلفة من غزل وخمر وصيد وخیل وتجوال بين أعطاف الطبيعة وتغنى بكل ذلك في شعره ، ولم يحطم قيثارته إلا الموت ، وإن تغيرت نغماتها بعد مقتل أبيه فصار فيها حزن مختلط بالجد . ولا تكاد تخلو قصائده الكبرى من ذكر الصيد والخیل والطبيعة ، وأبياتها في ختام معلقته من أجمل ما عرف في الشعر الجاهلي خاصاً بوصف الطبيعة وقد اقتدى به أئمة مدرسة الصنعة في العصر الجاهلي من أمثال زهير وأوس بن حجر . ولكن الطبيعة أخذت تتطور في العصر العباسي في نفس الاتجاه الذي تطورت إليه الحياة العامة والآداب .

فارتدت ثيابا إنسانية لم يكن لها بها عهد في العهدين الأموي والجاهلي وقد رأينا صورة من ذلك في شعر أبي تمام وابن شهيد حيث شبهوها بالنساء ثيابات وأبكارا . ولكن أهل الأندلس كانوا أكثر نجاحا وتوفيقاً في ذلك من شعراء الشرق . ومأثور أشعارهم في ذلك الباب أرق وأبرع ، ويظهر أن شعورهم بالطبيعة وامتزاجهم بها كان أقوى وأعمق . وإليك أبياتا يتحدث فيها جعفر المصحفي حديثاً لا تدرى أهو عن سفر جلة كما يخبرنا هو ، أم امرأة كما تحدثنا الأبيات نفسها وطريقة نسجها .

ومصفرة تخال في ثوب نرجس	وتعبق عن مسبك زكى النفس ^(٣٥)
ها ریح محبوب وقسوة قلبه	ولون محب حلة السقم مكتسى
فصفرتها من صفرتى مستعارة	وأنفاسها من طيب أنفاس مؤنسى
فلما استتمت في القضيبي شبابها	وحاكت لها الأنواء أبراد سندس
مددت يدي باللفظ أبغى اقتطافها	لأجعلها ریحانتى وسط مجلسى
وكان لها ثوب من الزغب أغبر	يرف على جسم من التبر أملس

(٣٥) الشعر الأندلسي (غريبه عوس) ص ٩٠ الحلة ص ١٤٤ .

فلما تعرّت في يدي من لباسها ولم تبق إلا في غلاله نرجس
 ذكرت بها من لأبوح بذكره فأذبلها في الكفّ حرّ تنفسي
 وإليك أبياتاً أخرى للتطبيق المرواني تبين مدى ما كان من امتزاج بين أنفسهم
 وبين الطبيعة من جهة ، وتشابه بينها وبين المرأة من جهة أخرى (٣٦) .
 ودّعت من أهوى أصيلاً ليتنى
 ذقت الحمام ولا أذوق نواه
 فوجدت حتى الشمس تشكو وجده
 والورق تنسب شجوها بهواه
 وعلى الأصائل رقّة من بعده
 فكأنها تلقى الذي ألقاه
 وغدا النسيم مبلغاً ما بيننا
 فلذاك رقّ هو وطاب شذاه
 ما الروض قد مزجت به أنداءه
 سحراً بأطيب من شذى ذكره
 الزهر مبسمه ونكهته الصبا
 والورد أخضله الندى خداه
 فلذاك أولع بالرياض لأنها
 أبداً تذكرني بمن أهواه

وهذا الشبه الذي تصوّروه بين الطبيعة والمرأة وتلك العواطف المتبادلة بينهم وبين
 الطبيعة هو الذي مهد لظهور الطبيعة في المطالع كما ذكرنا في غير هذا المكان .
 وليس هنا من تعليل لاختلاف مذهب القدامى عن المحدثين من حيث وقوف
 الأوائل عند حدود الصورة الظاهرية للطبيعة ، والربط بينهما وبين العواطف
 الإنسانية عند الأواخر سوى ما قدمناه من ميل الجاهليين إلى التصوير (٣٧) :

(٣٦) نيكل ص ٣٧ .

(٣٧) كان القدامى يعيشون على هامش الحياة . ولا يكادون يتغلغلون بصائرهم وراء مائع عليه أبصارهم
 من تلك القشرة السطحية للعالم الذي يعيشون فيه .

ونضيف إليه اليوم خضوع الطبيعة في بوتقة العقلية الحديثة لما خضعت له معظم مظاهر الحياة نتيجة للعلم والحضارة ، الذى يميل إلى تعمق الأشياء ، والربط بين بعضها وبعض ، وتعليل ما لم يكن يحتاج منها إلى تعليل عند القدامى إلى غير ذلك من آثار تقدم العلوم والفنون . فقد رأى الأوائل ثمار الفواكه التى كانوا يعيشون عليها تسقط دائماً إلى الأرض وحدها ، ولكن أحداً منهم لم يفكر يوماً من الأيام فى سبب سقوطها نحو الأرض ، حتى وقف منها أحد أقطاب العلم الحديث موقف الناقد البصير ، وربط بينها وبين جاذبية الأرض . ومثل ذلك يمكن أن يقال فى الأدب والشعر فقد مر شعراء العصرين الجاهلى والأموى آلاف المرات على الأزهار مصفرها ومحمرها دون أن يلاحظوا فى ذلك شيئاً سوى جمال منظرها وتضوع شداها ، حتى إذا جاء العصر العباسى بعلمه وثقافته وفلسفته . نضج العقل الإنسانى ، وأصبح يربط بين مظاهر الطبيعة المختلفة ، فىرى شها بين صفرة الوجه من أثر الشوق ، والصفرة الطبيعية فى الورود والأزهار ، ويحس فى النسيم رقة واعتلال فيخيل إليه ، أو بعبارة أدق يخيّل إلى الناس أنه يعانى من الشوق إلى الحبيب مثل ما يعانى ، فأصيب بما أصيب به الشاعر من رفته وضعف كما رأينا عند الطليق المروانى ، أو يتوجع للشاعر فلقى من البلاء ما لقيه كما ترى فى قول ابن زيدون :

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا والجو طلق ووجه الأرض قدراقا (٣٨)
وللنسيم اعتلال فى أصائله كأنما رقى لى فاعتل إشفاقا

هذا وينبغى أن نشير إلى ما كان من اتساع هذا الفن اتساعاً كبيراً لم يقف عندما أشرنا إليه من احتلال صدور القصائد ، بل قوى سلطانه على النفوس حتى غلب على بعض الشعراء كابن خفاجة بالأندلس والصنوبرى بالشام . أما الأول فلا يكاد يرى له شعراً غير الطبيعة ولسنا ندرى من ظروفه الآن ما يعين على معرفة الأسباب التى انتهت به إلى ذلك سوى أمرين اثنين أما أولهما . فنشأته فى جزيرة شقر على الساحل الشرقى للأندلس وهى تتمتع بما يتمتع به حوض البحر الأبيض المتوسط من سماء مشرقة ، وجو دفى . هذا إلى إحاطة البحر بها ، وكثرة رياضها وزرعها .

(٣٨) ديوان شرح كيلانى ص ٢٥٧ .

أما السبب الثاني فاضطراب الحال السياسية ، وتزعزع ملك المسلمين بالأندلس ، واضطراب الدولة كاضطراب حال الأسرة تدفع أفرادها للبحث عن هواية من الهوايات يشغلون بها أنفسهم . وينسون بها آلامهم فيتجه بعضهم إلى الرياضة البدنية ، وينصرف بعض آخر إلى المقاهي ، أو دور الخيالة أو الخمر أو ما إلى ذلك ، وهذا هو السبب فيما تدّعيه من أن الحال السياسية المضطربة كثيرا ما تكون مسئولة عن الاتجاهات الأدبية المختلفة من مجون وخمريات حيناً ، ووصف للطبيعة أحياناً لأن في كل منها انصرافاً عن الحياة العامة وهرباً من التفكير فيها أو الاتصال بها .

شعر الخصومات : لعل هذه أقرب تسمية إلى ذلك النوع من الشعر الذي ظهر أول ما ظهر أثناء العصر الجاهلي في معلقة الحرث بن حِلْزة ؛ فهو ليس فخراً لأن الفخر لا يهتم إلا بمواقف المفاخر وأجناد قبيلته . أما معلقة ابن حنزة ففيها شيء كثير من المنطق والجدل وإقامة الحجة على سلامة موقف أحد الخصمين ، وعدوان الطرف الآخر كما ذكرنا سابقاً . وكان هذا النوع من الخصومات في العصر الجاهلي بين بعض القبائل وبعض فلما جاء الإسلام اتسع هذا النوع من الشعر ، واصطبغ بصبغة سياسية دينية ، حيث صار بين الرسول وصحبه من جهة ، وقريش ومن معها من جهة أخرى . وخمدت في الوقت نفسه الخصومات بين القبائل ولو إلى حين . حتى إذا جاء العصر الأموي عادت الخصومات بين القبائل إلى أشد مما كانت عليه ، كما ترى في شعر جرير وخصومه ، ونهض إلى جانبها نوع من الخصومات يمكن أن نسميها الخصومات السياسية أو الحزبية فظهر الحزب الزبري والأموي والهاشمي . وكان لكل منها شعراؤه دعائه ولم يعمر الأول طويلاً فاضطر شاعره الرسمي عبيد الله بن قيس الرقيات أن يدخل فيما دخل فيه الناس وأن يهادن بني أمية رضى أم سخط .

وفي عهد بني العباس اتسعت الخصومة القبلية فبعد أن كانت تنشب بين القبيلة وجاراتها أو منافستها كما حدث في العهد الأموي ، صارت تشمل عرب الشمال جميعاً ، وعرب الجنوب ، حيث وقف هؤلاء ضد أولئك في خصومة

كلامية حمل أبو نواس لواءها ، وما أكثر ما حمل من ألوية في ذلك العصر
ومن أمثلة ذلك قصيدته المشهورة التي يقول فيها مفتخراً بعرب الجنوب :
فافخر بقحطان غير مكثب فحاتم الجود من مناقبها (٣٩)
ولا ترى فارسا كفارسها إذا زالت الهام عن ماكبها
عمرو وقيس والأشتران وزيه مد الخيل أسد لدى ملاعبها
بل مل إلى الصيد من أشاعها والسادة الغر من مهالها
هل يغسلن عن نسائهم ما أفرغ الأزد في كعائبها؟

ويأخذ بعد ذلك في هجاء القبائل العدنانية واحدة بعد الأخرى ، متعرضاً
لتميم وقيس عيلان وأسد وبكر وتغلب والنمر وقاسط ، متفضلاً على كل منها بمذمة
أو منقصة ؛ ليكون ذلك بإزاء مانسبه إلى قحطان من مفاخر وأمجاد ، وليس
بعجيب أن يطيل الرشيد حبسه فيها ، حيث ينتسب الخليفة نفسه إلى قبائل
الشمال .

ولسنا نعتقد أن مجرد ولائه لليمن ، أو إغداق اليمنيين عليه ، كان كافياً لهذه
الثورة العارمة ، وأقرب من هذا لحقائق الأشياء أن يقال : إن الرجل كان حانقاً
على الجنس العربي ، لكونه مجهول النسب ، تافه الحسب فيهم ، وهم قوم
يسرفون في تقدير أنفسهم ، ويتطاولون على الناس بأحسابهم وأنسابهم . وهذا هو
سر ما كان منه من ميل إلى الفرس وهجرم على العرب كما يبدو من قوله :
ولفارس الأحرار أنفس أنفس

وفخارهم في عشرة معدوم (٤٠)

نادمتهم أرتاض في آدابهم فالفرس عدوى سكرهم محسوم
وإذا أنادم عصبة عربية بدرت إلى ذكر الفخار تميم
وعدت إلى قيس وعدت قوسها سبيت تميم وجمعهم مهزوم
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم شرا فنطق شرهم مذموم (٤١)

(٣٩) ديوانه ص ١٥٦ .

(٤٠) ديوانه ص ٣٣٢ .

(٤١) يعني أنهم لا يحمدون الثروة على الشراب .

لايبدخون على النديم إذا انتشوا ولهم إذا العرب اعتدت تسليم^(٤٢)
وأبيات أبي نواس هذه تذكرنا بنوع آخر من الخصومات ونعني به ذلك
الذى نشب بين العرب والموالى الداخلين فى الإسلام من فرس وغيرهم وسمى
بالشعوبية ، فقد أنف هؤلاء الموالى من تعالى العرب عليهم . وبدأ شعراؤهم فى
العصر الأموى يردون على ذلك تعالى ، مفتخرين بأحسابهم وماكان لدولهم من
ماض مجيد . ومن هؤلاء فى عهد بنى أمية إسماعيل بن يسار ويزيد بن ضبة ، وقد
كان من تعصب الأول للفرس أن مدحهم فأسرف فى المدح أمام هشام بن عبد
الملك فى قصيدة لم يذكر فيها شيئا لهشام ، مما أغضب الأخير ؛ حتى أمر بأن يُغَطَّ
فى الماء ، ففعل به ذلك حتى كادت تخرج روحه ، ومما قاله فى ذلك اليوم
المشثوم:

إني وجدك ماعودى بلدى خور عند الحفاظ ولاحوضى بمهدوم^(٤٣)
أصلى كريم ومجدى لايقاس به ولى لسان كحد السيف مسموم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا والهرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا وهم أذلوا ملوك الترك والروم

وأما فى العصر العباسى فقد قويت شوكة الفرس وشعرائهم ؛ لمكانتهم الرفيعة
فى الدولة ، واشتراكهم فى السياسة العليا لها . وكان من آثار ذلك أن جهر
شعراؤهم بمهاجمة العرب والتهكم بهم ، وكانوا قديما لايطمعون فى أكثر من
الإشارة إلى مجدهم السابق ، ويلقون على ذلك نكالا شديداً . وكان من أشد
الشعراء تعصبا للفرس بشار بن برد ، والمتوكلى من قدماء المتوكل العباسى ، ومما
قاله الأول فى هذا الصدد لبعض الأعراب ، وقد فخر عليه :

أحين كُسيّت بعد العرى خزا ونادمت الكرام على العقار^(٤٤)
تفاخر يابن راعية وراع بنى الأحرار حسبك من خسار
وكنت إذا ظمئت إلى قراح شركت الكلب فى ولغ الإطار

(٤٢) بلح كفرح . تكبر .

(٤٣) الأعلى - ح - ٤ - ص ١٢٤ .

(٤٤) نفسه - ح - ٣ - ص ٣٣ .

ومما قال الأخير:

فقل لبني هاشم أجمعين هلموا إلى الخلع قبل الندم^(٤٥)
 ملكناكم عنوة بالرها ح طعنا ، وضربا بسيف حذم
 وأولاكم الملك آباؤنا فما إن وفيتم بشكر النعم
 فعودوا إلى أرضكم بالحجاز لأكل الضباب ورعى الغنم
 فأنى سألوا سرير الملوك بجد الحسام وحرف القلم
 ولعل القارئ لهذه الآيات ، يرى البون الشاسع بينها وبين ما كان يقال في
 العصر الأموي من أشعار في هذا الصدد .

أما الشعر السياسي أو الحزبي ، فقد ظل قويا وإن اختلف عن سلفه في العصر
 الأموي من عدة وجوه

أولا: ضعفت فيه نزعة التحمس والتطرف التي كنا نراها عند الكميت وابن
 قيس الرقيات .

ثانيا: قل عدد الأطراف المعنية بتلك الخصومات في هذا العصر ، حيث
 انتهى الحزب الأموي بانتهاه دولته ، كما حدث للحزب الزبيرى من قبل . ولم يبق
 في الميدان إلا العباسيون ومعارضوهم من العلويين وكان لكل حزب دعائه من
 الشعراء . وعبد الله بن المعتز العباسي كان من أكثر الناس دفاعا عن أسرته
 وهجويا على العلويين ، ولا يضعف من قدر ذلك الشعر إلا ما كان من اختلاطه
 بالشكوى والفخر . الأمر الذي جعله يبدو وكأنه أثر من آثار النزاع الشخصي بينه
 وبين أبناء عمومته ومع أن أنصار بني العباس من الشعراء فيما عداه كانوا طلاب
 أموال فإن بعضهم ربما احتج لسادته فأحسن الاحتجاج وبلغ من ذلك ما يريدون
 كما ترى في مثل قول مروان بن أبي حفصة يخاطب العلويين:

خَلَّوْا الطَّرِيقَ لِمَعْشَرِ عَادَاتِهِمْ حَطَّمِ الْمَنَاقِبِ يَوْمَ كُلِّ زَحَامٍ^(٤٦)
 وَارْضَوْا بِمَا قَسَمَ إِلَيْهِ لَكُمْ بِهِ وَدَعُوا وَرَاثَةَ كُلِّ أَصِيدٍ حَامِي

(٤٥) الولغ يفتح فسكون أن يتناول الكلب الماء بلسانه ، والإطار: خشبة المنحل وغيرها مما يحيط بسواه
 فلعله يشير إلى جدران الأواني حين يلعبها الكلب تاريخ الشعر السياسي ١٩٦ .

(٤٦) ضحى الإسلام - ج - ٣ - ص ٣١٢ .

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثه الأعمام
 وإذا كانت هذه الأبيات تمثل الواقع المرير الذى وجد العلويون أنفسهم
 أمامه ، وتذكرهم بثوراتهم الفاشلة ضد الأمويين والعباسيين . وأخيراً تكاد
 تفحمهم بما تشير إليه من قوانين الميراث ؛ فإن الأبيات التالية للسيد الحميرى
 تمثل العواطف التى كانت تجيش فى صدور العامة لحفدة الرسول من أبناء على
 وفاطمة . وهى عواطف لها تأثيرها العميق على النفوس .

إذا أنا لم أحفظ وصاة محمد
 ولا عهده يوم الغدير المؤكدا^(٤٧)
 فأنى كمن يشرى الضلالة بالهدى
 تنصّر من بعد الهوى وتهودا
 ومالى وتّيم أو عديّ وإنما
 أولو نعمتى فى الله من آل أحمدا
 تم صلاتى بالصلاة عليهم
 وليست صلاتى بعد أن أتشهدا
 بكاملة إن لم أصل عليهمو
 وأدع لهم ربّا كريما ممجدا
 بذلت لهم ودى ونصحى ونصرتى
 مدى الدهر ما سميت ياصباح أحمدا
 وإن امرأ يلحى على صون ودهم
 أحق وأولى منهم أن يفسندا
 فإن شئت فاخترعا جل الغم ظلة
 وإلا فأمسك كى تصان وتحمدا

ولعل القارئ يلاحظ أن الشاعر يكاد يشمل العباسيين أيضا بمدحه وولائه
 حيث إنهم من أسرة الرسول التى يتغنى بحبها ومحامدها . وفى الحقيقة إن حملة السيد

(٤٧) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى ص ٣٥١ .

الحميري لم تكن موجهة ضد العباسيين بقدر ما كانت موجهة ضد الخلفاء الراشدين الثلاثة السابقين على ؛ لحيلولتهم دون توليه الخلافة .

ولكن الشاعر الذي يشبه الكميت تماماً من حيث الحملة على الأسرة الحاكمة هو دعبل الخزاعي الذي هاجم خلفاء بني العباس بقدر ما أشاد بذكر بني علي وتوجه لهم ، ومن ذلك قوله في المأمون :

أيسومني المأمون خطة عاجز أومارأي بالأمس رأس محمد (٤٨)
إن من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد (٤٩)
شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنفذك من الحضيض الأوهده
وترى له إلى جانب ذلك شعراً عاطفياً رقيقاً في بني علي مثل قوله :

قفا نسأل الدار التي خَفَّ أهلها
متى عهدها بالصوم والصلوات (٥٠)
وأين الألى شَطَّت بهم غربة النوى
أفانينَ في الآفاق مفترقات
همُ أهل ميراث النبي إذا اعتزوا
وهم خير قادات وخير حاة
وما الناس إلا حاسد ومكذب
ومضطغن ذو أجنة وترات
ملاَمَك في أهل النسي فلانهم
أحبَّاي ما عاشوا وأهل ثقتي
فيارب زدني من يقيني بصيرةً
وزد حبيهم يارب في حسناتي

(٤٨) معجم الأدباء - ح - ١١ - ص ١٠٠ .

(٤٩) كان رزيق الجند الأكبر لطاهر بن الحسين من موالى خزاعة التي ينتسب إليها دعبل ، وطاهر كما هو معروف هو الذي تولى قتل الأمين ووضع المأمون مكانه على عرش بغداد .

(٥٠) نفسه ص ١٠٣ .

ألم ترأى من ثلاثين حجة
أروح وأغـدو دائم الحسرات
أرى فيهم في غيرهم متقسما
وأبيديهم من فيهم صفرات
فآل رسول الله نُحِفُ جسومهم
وآل زياد حُفِّل القصرات^(٥١)
بنات زياد في القصور مصونة
وآل رسول في الفـفلوات

وينبغي أن تذكر وأنت تتحدث عن شعر الخصومات نوعاً جديداً كل الجدة ،
لعله أشد تصويراً لما أصاب الحياة السياسية والاجتماعية من تطور خلال العهد
العباسي من أى شيء آخر. ونعني به تلك الحرب الخفية التي كانت تدور بين أبي
العتاهية وأبان بن عبد الحميد في ميدان الشعر ، والتي كانت امتداداً طبيعياً للنضال
السياسي المستتر المكشوف الذي يدور بين الفضل بن الربيع والبرامكة . ولم تتحول
إلى صدام بين الشاعرين لأن كلا منهما كان مأجوراً لا يهتم إلا بالناحية المادية لتلك
الحرب ، ولأن سادته كانوا حريصين على أن يظل ذلك النضال الأدبي محصوراً في
دائرة ضيقة ، وتفصيل هذا أن الحياة السياسية في العصر العباسي قد تطورت تطورا
خطيرا حين اتخذ خلفاء بني العباس الوزراء والحجاب ، على غير ما كان يفعل
الأمويون الذين يعتمدون على أنفسهم في إدارة شئون الدولة . وقد دعا ذلك في
العهد العباسي إلى التنافس بين الرؤوس الكبيرة التي حول الخليفة . وكيد بعضها
لبعض على نحو ما نرى من الأحزاب السياسية في العصر الحديث . وكان أول مظهر
من مظاهر ذلك الاحتكاك ما ثار بين الربيع بن يونس وأبي عبيد الله معاوية بن يسار
وزير المهدي من خلاف استغل فيه الربيع موهبته النادرة في الدس والإيقاع حتى
تمكن من طرد ابن يسار نهائيا من دولة المهدي ، بعد أن أقنع الخليفة بأن ولده

(٥١) القصرات: جميع قصرة بفتحين وهي أصل العتق وقصرة حافلة أى غليظة .

زنديق يستحق أن يلحق بالزنادقة أمثال صالح بن عبد القدوس وشاربن برد (٥٢).

ولكن الربيع لم يمت حتى أورث ابنه الفضل هذه الخبرة الواسعة في الدس والكيد . وما كاد الرشيد بتولى مقاليد الحكم رسمياً ، ويضعها في يد يحيى البرمكى وأولاده عملياً ، حتى غلت مراحل الحقد في صدر ابن الربيع ، ألم يكن والده أكبر رأس في دولة المهدي بعد المهدي ، فكيف يرضى هو بالتأخر والانزواء ، لقد أخذ يرسم الخطط ويعدّ العدة للإيقاع بالبرامكة فأنشأ حزباً عربياً أعضاءه من بين كبار العباسيين ، ترعاه زبيدة ، ويديره هو دفته ، هدفه مقاومة ذلك النفوذ الفارسي الذي رفع البرامكة لواءه ، ونصب عليهم الجواسيس في دورهم ، وشدد الرقابة عليهم في كل مكان (٥٣) .

والذي يهمننا من كل ذلك أن ابن الربيع أخذ يحارب مجالس اللهو التي تجمع الرشيد دائماً بجعفر البرمكى فتحدث بينهما نوعاً من الانسجام يصعب معه على ابن الربيع التفرقة بينهما كما أشرنا إلى ذلك من قبل . وهنا يأتي دور أبي العتاهية الذي كان عليه بعد أن امتنع عن إمداد المغنين والمغنيات بشعر الحب كي يصوغوه ألحانا وأغاريد يحبون بها مجالس الرشيد مع نديمه جعفر ، كان عليه بعد ذلك أن يطره بوابل من شعر الزهد يعجز دمه على لحيته مدرارا ، وينغص عليه ملذات الحياة . ولم يستطع البرامكة أن يكتنموا غيظهم فقد روى أن الرشيد قال يوماً لأبي العتاهية صف مجلسنا هذا وما فيه من نعيم فأنشأ يقول والفضل بن يحيى جالس :

عش ما بدالك آمنا في ظل شاهقة القصور (٥٤)
يُسى عليك بما اشتيت م لدى الرواح أو البكور
فإذا النفوس تقعقت في ظل حشرجة الصدور

(٥٢) الجهشباري (الوزراء والكتاب) ص ١٥٢ وما بعدها .

(٥٣) إن السبب المباشر في قتل جعفر البرمكى وهو إطلاق سراح الثائر العلوي يحيى بن عبد الله ماكان ليطلع عليه الرشيد لولا أن أحد الخدم الذي يعملون في بيت البرامكة لحساب الفضل بن الربيع قد أنهى الخبر إليه .

(٥٤) ديوانه (بيروت) ص ٩٢

فهنالك تعلم موقناً ما كنت إلا في غرور

وما كاد يفرغ من إنشاده حتى أخذ الرشيد في البكاء . وقد انتهر الفضل هذه الفرصة السانحة ليشفى صدره مما به من غل فقال للشاعر :
«بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فخزنته» فقال الرشيد : «دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا منه»

وأخيراً لم يجد البرامكة بدءاً من محاربة الفضل بن الربيع وشاعره بنفس السلاح الذى شهراه في وجوههم . وحمل أبان بن عبد الحميد تلك الأمانة وكان من آثار ذلك نظمه لكتاب كليله ودمنة . فقد ذكر الرواة أن يحيى بن خالد كلف أبانا نظمه وتعجّله في ذلك تعجّلاً - حتى إذا ما فرغ منه أعطاه عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة «ولا يدري إلا الله تعالى كم أعطاه جعفر - وأقبلوا جميعاً على الكتاب يحفظونه منظوماً»^(٥٥).

ولم يذكر لنا الرواة سر تلك العجلة ، ولا اهتمام البرامكة بحفظه . ومعرفة موضوع الكتاب تهدينا إلى السرفى استغلال البرامكة له ، إن أهم أغراض هذا الكتاب قد تركّز في القصة الأولى من قصصه التى ترمى إلى تحذير الأصدقاء من دس الدسائس وكيد المفسدين . ثم تدور باقى قصصه حول سياسة الملك بأسلوب رمزى يجرى على ألسنة الحيوان . وأكبر الظن أنه ألف أول ما ألف ليكون نصائح مهذبة وغير مكشوفة قدمها أحد المقربين من ملوك الهند إليه حينما توجّس خيفة من كائد أو حاسد ، ولذا بدئ الكتاب بالغرض المباشر من تأليفه ثم زيد فيه بعض النصائح والوصايا الضرورية لكل من يتصدى لولاية أمور الناس . وإليك بعنوان «الأسد والثور» وتبدأ هكذا^(٥٦) قال دبشليم الملك ليبيديا الفليسوف:
أضرب لى مثلاً للمتحابين يقطع بينهما الكذب المحتال حتى يحملها على العداوة والبغضاء . والقصة الثانية بعنوان «الحمامة المطوقة» وتتحدث عن الصداقة^(٥٧)

(٥٥) الأوراق للصوى ص ٢ .

(٥٦) ص ٥١ من كتاب كليله ودمنة المطبعة الأميرية سنة ١٩٠٣

(٥٧) ص ٩٥ .

والثالثة بعنوان «اليوم والغربان» وتتحدث عن الأعداء ووجوب الحذر منهم (٥٨) والخامسة بعنوان «الناسك وابن عرس» وتنتهى عن العجلة وتأمر بالروية (٥٩) والسادسة بعنوان «الجرذ والسنور» وتتحدث عن رجل كثر أعداؤه وأحدقوا به من كل جانب .

ولعل البرامكة وقد أعجبوا بموضوع الكتاب ، أحبوا أن يسلكوا مع الرشيد ماسلكه الهنود مع ملكهم من قبل ، وينبهوه إلى الأخطار التى يمكن أن يجر إليها إيقاع الفضل بن الربيع بينه وبينهم ، راجين بمثل ذلك أن يمتنع الرشيد عن الاستماع إلى وشائته وإفساده . وهذا هو السبب فى حفظهم لذلك الكتاب منظوماً ، فالنظم أيسر على القارئ والسمع ، وأخف على الآذان ، وأسرع إلى القلوب .

ومن يدرى لعل كتب الأدب لم تتسع إلا القليل من أخبار تلك المناورات السياسية . ولعل الأمر لم يقتصر على إنشاد البرامكة بعض تلك الأبيات بحضرة الرشيد ، بل إن كان العتاهية لم يكن هو الوحيد الذى يرتل آيات الزهد «وأناشيد» الموت بين يدى هارون ، بل كان بجانبه آخرون (٦٠) .

وإليك فقرة من نظم أبان فى قصة الأسد والثور نستعين بها على إيضاح فكرتنا وفيها يقول :

قال له السبع لقد سمعت وكل ماتقوله فهمت (٦١)
لكننى لست أظن ماتظن بالثور من غش بلى ظنى حسن
قال له دمنة : من ثمَّ أتى وهذه من حاله هى التى
رفعته حتى تعدى طوره وكان هذا لك منه شكره

(٥٨) ص ١٠٧ .

(٥٩) ص ١٣٧ ولعل البرامكة كانوا يودون أن يتروى الرشيد فى النكال بهم .

(٦٠) لم يهتم المؤرخون بتلك التيارات الخفية التى كلنت تجرى وراء الأستار ، فلم يروا فيما قامت به ربيدة من حشد نحو مائتين من حواربها فى قصر الخلافة بقصد تلاوة القرآن - ردًا على ما صنعه الرشيد حين استكثر من الجوارى المغنيات فى القصر .

(٦١) الأوراق للصولى ص ٤٩ .

وتلك أخلاق اللثم الفاجر الكافر المعرور غير الشاكر
ما إن يزال ناصحا نفاعا حتى يرى من حاله ارتفاعا (٦٢)
فعندها يسمو إلى مافوقها إلى التي لا يستطيع أوقها

وأظن أن نواحي الجدة في هذا النوع من الشعر السياسى بيّنة فالشعراء هنا
لا تعنيم القضايا التي يخدمونها كثيراً ، ولا يعرضون أنفسهم لغضب الحكام من
أجلها كما يفعل ابن قيس الرقيات حين يدافع عن آل الزبير ، أو الكميت وهو
يناضل عن بنى على ، بل يخدمون الأحزاب السياسية على نحو ما يفعل الصحفيون
اليوم . وكل ما هنالك من فرق هو أن سلطان الخليفة الاستبدادى في ذلك العهد
الغابر لم يكن يسمح بقيام أحزاب رسمية ، أو مهارات سياسية مكشوفة ،
فنشطت تلك الأحزاب نشاطاً خفياً ملتوياً على أسلوب ذلك العصر في كل
ما يتصل بالسياسة أو حرية الرأى .

والمتتبع لشعر ذلك العصر يستطيع أن يرى فيه لونا آخر يتصل بالسياسة من
قرب ، ويتولى فيه الشعراء الدفاع عن حقوق الشعب دفاعاً متزناً ، فلا يأخذ
صورة الثورة أو الهجوم المكشوف الذي تراه عند شعراء الشيعة ، بل يبدو في
صورة التوجيه والرجاء الخالص لوجه الله والشعب . ونرى نموذجاً لذلك في قول
أبى العتاهية :-

من مبلغ عني الإما م نصائحاً متواليمة (٦٣)
إنى أرى الأسعار أسة ار الرعية غالية
وأرى المكاسب مَزرة وأرى الضرورة غاشية
وأرى غموم الدهر را مُحمة تمر وغادية

(٦٢) الأرق: الثقل والشؤم .

(ننصح للقارئ بالرجوع إلى الجزء الثالث من تاريخ الشعر فقد بحث فيه هذه القضية بإسهاب .
(٦٣) ديوانه ص ٣٠٤ (بيروت) ليس عجيباً أن نرى هذا النوع من الشعر لأبى العتاهية فقد كان يلذ له أن
يرى حامى الدماء ضد الخاصة والحكام إرضاء لحاجات في نفسه أهمها مركب النقص والحق الذي أشرنا إليه في
غير هذا المكان . وهذا القدر المختار جزء من قصيدة فيها يسمى بالزهدي تبدأ بقوله :

أين القرون الماضية تركوا المنازل خالية

وأرى السيتامى والأرا
من بين راج لم يزل
يشكون بمجهد بأص
يرجون رفدك كى يروا
من يُرتجى للناس غير
من للبطون الجائعا
يا ابن الخلائف لأفقد
إن الأصول السطيا
ألقيت أخباراً إلي

مل فى البيوت الخالية
يسمو إليك وراجية
وات ضعف عالية
مما لسقوة العافية
ك للعيون الباكية
ت وللجسوم العارية
ت ولا عديمت العافية
ت لها فروع زاكية
ك الرعية شافية

وربما رمى هذا القفاز الناعم جانبا وهاجم الطبقات العليا هجوماً عنيفاً ثقيلاً
على نحو ما نرى اليوم بين أنصار الاشتراكية والشيوعية فيقول فى ثنايا شعره المسمى
بشعر الزهد:

ويا جامع الدنيا لغير بلاغه
فلو أن ذوى الأبصار يرعون كلما
فما يعرف العطشان من طال ربه
وصارت بطون المرملة خميسة
وإن بطون المكثرات كأنما
ومع أن حقد أبى العتاهية على السادة والحكام بل والخلفاء كان مستورا^(٦٤)
أو كالمستور فإنه لم يسلم من التصريح به أحيانا كما فى قوله .

إن الملوك بلاء حيثما حلوا
فلا يكن فى أكنافهم ظل^(٦٥)
ماذا ترجى بقوم إن هم غضبوا
جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
وإن نصحت لهم ظنوك تخدعهم
واستثقلوك كما يستثقل الظل

(٦٤) ديوانه (بيروت) ص ١٥٠

(٦٥) لقد ظلت أعراض أبى العتاهية من شعره المسمى بشعر الزهد خافية حتى كشف عنها جهد متواضع
لكاتب هذه السطور فى رسالة الدكتوراة جامعة لندن :

(٦٦) أبى العتاهية للأستاذ أحمد براق (لجنة البيان العربى) ص ١٧٤ .

فاستغن بالله عن أبوابهم كرمًا إن الوقوف على أبوابهم ذل
أو قوله :

ما اختلف الليل والنهار ولا
دارت نجوم السماء في الفلك^(٦٧)
إلا لنقل السلطان عن ملك
قد انقضى ملكه إلى ملك

ويظهر أن ملك الروم الذي كان معجباً بهذين البيتين أو بنخطة الشاعر العامة . قد
أحب أن يستدعيه إلى بلاده ويستعين به على الدعاية ضد الرشيد ، على نحو ما
يحدث اليوم أثناء الحروب ولكن الشاعر أجحَم .

ولم يكن أبو العتاهية وحده في الميدان بل كان بجانبه كثير من الوعاظ الذين
لا يتورعون عن التدخل في السياسة بطريق مباشر أو غير مباشر كابن السماك
وفضيل بن عياض^(٦٨) وربما كان عبد الله بن عبد العزيز العمري أعظم جرأة من
هذين فقد قال للرشيد يوما : « إن المرء يندر في ماله الخاص فيحجر عليه . فما بالك
بمن يندر في أموال المسلمين ! »^(٦٩) وعندما سمع هارون يوما أن عبد الله في طريقه
من الحجاز إلى بغداد جمع من لديه من رجال أسرته وطلب إليهم أن يصدوه عن
بغداد ويحولوا بينه وبين الرشيد وكان فيما قاله لهم : « لقد احتملته أثناء الحج ، أريد
اليوم أن يحضر إلى بغداد وفيها جندي وأولياي فيفسدهم على » .

والغزل بنوعيه قد تأثر أيضاً بما شمل الحياة الاجتماعية من تطور يكاد يكون
فوضى وفساداً في بعض نواحيه ، فظهر في الحسى منه دعاة وتهتك أنستنا خلاعة
أمرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة . وإليك نموذجاً من شعر بشار بن برد :

حسبي وحسب الذي كلفت به متى ومنه الحديث والنظر^(٧٠)

(٦٧) مرآة الجنان - ح - ١ - ص ٤١٥ .

(٦٨) المرجع السابق ص ٣٦٧ .

(٦٩) الطبري ح - ١٠ - ص ١٢٠ .

(٧٠) حديث الأربعاء - ح - ٢ - ص ٢٠٥ .

أو قبلة في خلال ذاك وما بأس إذا
أو عضه في ذراعها ولها فوق ذراعى من عضها أثر
أو لمسة دون مرطها يبدى والباب قد حال دونه الستر
والساق براقه مخلصها أو مص ريق وقد علا البهر

ولا عجب والحال هذه أن يختنق الغزل العفيف أو غزل الحرمان كما سميناه . فإذا
استعصت الحرائر فالجوارى في كل مكان يزاحمن الرجال بالمناكب وهن على جبال
يتضاءل في جانبه جمال الحرائر من العرب . ولذا لا نكاد نرى له ممثلاً في هذا العصر
سوى العباس بن الأحنف .

وهكذا لم يبق أمامنا من أغراض الشعر القديمة سوى المهجاء والمدح والفخر .
وليس بعجيب أن نجتمع بينها ؛ فالثاني نقيض الأول ولا يختلف عن الثالث إلا في
الموضوع ، وقد تغيرت هذه الأغراض أيضاً تبعاً لتغير العصر ، فظهر في المهجاء عنصر
التهمك وقد يما كان الشعراء يميلون إلى الجدل في هجائهم فيعمدون إلى انتقاص المهجو
بيان تخلفه في ميادين الشجاعة والكرم في عبارة رصينة فإن عُلِّوا في هجائهم
خرجوا إلى السباب المحض كما ترى في قول الأعشى يهجو جهنم أحد بني عيدان :
أتاني ما يقول لي ابن بظري أقيس يابن ثعلبة الصباح (٧١)
لعبدان ابن عاهرة وخلط رجوف الأصل مدخول النواحي

أو في قول زهير بن أبي سلمى يهجو الحرث بن ورقاء وقومه من بني أسد حين
أسروا يساراً وحبسوه عندهم .

تَعَلَّمْ أَنْ شَرَّ النَّاسِ حَى ينادى في شعارهم يسار (٧٢)
ولولا عسيه لرددتموه وشر منيحة عسب معار (٧٣)
إذا جمحت نساؤكم إليه أشط كأنه مَسْدُ مغار

(٧١) في الجزء الثاني من تاريخ الشعر ليضاح لهذه القصيدة .

(٧٢) ديوان ص ٤٨ .

(٧٣) عسيه : ضرابه .

وربما رأينا عند بعضهم شيئا من التهكم ولكن روح البداوة وصبغتها العامة عليه
كما ترى في قول طرفة بن العبد يهجو عمرو بن هند :

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوئا حول قبتنا تخور^(٧٤)
من الزمرات أسبل قدامها وضرتها مركنة درور^(٧٥)
يشاركنا لنا رخلان فيها وتعلوها الكباش فما تنور^(٧٦)

وقد ظل الشعراء في العهد الأموي ينسجون على منوال أهل الجاهلية كما ترى في
نقائض جرير مع الفرزدق فقد استغل الأول سوء حظ جعثن أخت الفرزدق واعتداء
بني منقر عليها فأخذ يكرر ذلك في نقائضه تكراراً سمحاً ونأسف لعدم استطاعتنا
تسجيل شيء منه هنا ، ولكن القارئ يستطيع أن يرى صورة في قصيدته المشهورة
التي يقول في أولها :

أقلسى اللوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت لقد أصابا^(٧٧)

والحق أن نقائضه جميعاً لا تخلو من هذه النعمة البغيضة^(٧٨) أما الفرزدق فقد
ترفع عن ذكر العورات ، وإن أكثر من مخاطبة جرير بمثل قوله :

أنا البدر يعشى طرف عينيك فائمس
بكفيك يا ابن الكلب هل أنت نائله^(٧٩)

استهانة به وبأبيه . وما من شك في أن الذوق العام كان يمقت هذا النوع من
البذاء ويميل إلى التعفف عن نهش الأعراض وتتبع العورات ويرى أن التلويح خير
من التصريح والمزاح أعذب من الجلد إن كان لابد من الكر والفر . ودليل ذلك أن

(٧٤) ديوانه ص ٦ الرغوئ الشاه المرضع - تخور: تصوت . وأصل الحوار للبقر .

(٧٥) الزمرات: قليلات الصوف وخصها لأنها أغزر ألوانا - أسبل: طال . قدامها: ثديها - مركنة
ضخمة - درور: كثيرة اللبن .

(٧٦) الرخل على وزن ذئب ونمر الأثني من ولد الضأن ، تور . بناء فنون: تنفر .

(٧٧) ديوانه ص ٦٩ .

(٧٨) جرير ونقائضه للمؤلف .

(٧٩) نقائض جرير المرزوق - ح - ٢ - ص ٦٠٦ .

النقاد وقد تعصبوا لجرير لم يجدوا له في الهجاء خيراً من قوله للراعي^(٨٠)
فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا
وقد ترجم الجرجاني الذوق العام بقوله : « فأما المهجو فأبلغه ما جرى بجرى مجرى الهزل
والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض . وما قربت معانيه وسهل حفظه ،
وأسرع علوقه بالقلب ، ولصوقه بالنفس فأما القذف والإفحاش فسباب محض ،
وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم »^(٨١) .

والآن وقد أشرنا إلى ما كان من شأن الهجاء في الماضي ورأى المحدثين من النقد
فيه ومحاولتهم تنظيمه وتهذيبه نعود إلى ما كان من أمره عند المحدثين فنذكر أنه قد جَدَّ
فيه أشياء واختفت أخرى . ظهر التهكم ممتزجا بالهجاء ، واختفى الحديث عن
الأحساب والأنساب ومواقف الشجاعة والكرم ونحوها^(٨٢) .

فقد عدنا لا نرى في هجاء هذا العصر مثل قول الحطيفة في الزُّبَيْرَان :
دع المكارم لا ترحل لبُعَيْتِها واقعد فأنت أنت الطاعم الكاسي
وإنما رأينا الشعراء يسلكون مسلكا قريبا من ذلك الذي رويناه عن الجرجاني
منذ قليل . حيث يعتمد بعضهم إلى التهكم من بعض سالكين أيسر الطرق وأعظمها
غناء في خدمة أغراضهم ، وأعونها على النيل من أعدائهم ، غير متورعين عن قذف
المهجو بأشنع التهم^(٨٣) وإن خففا من حدة ذلك بعرضه في قالب المزاح الذي
يختلط فيه الجدل بالهزل ومن أمثلة ذلك قول أبي نواس لأبان بن الحميد اللاحق ناقضا
ثنائه على نفسه :

لم يكن فيك من صفاتك شئ غير خَلْقٍ مُجَحَّدَرٍ دَخْدَاحٍ^(٨٤)

(٨٠) طبقات الشعراء ص ١٣١ .

(٨١) الوساطة ص ٢٣ .

(٨٢) ذكرنا في موقف آخر أن الحديث عن الأسر والقبائل مدحا وهجوا قل بسبب ضعف الروابط التي من
هذا النوع ، نتيجة لشيوع الحضارة ، ونمو الشخصية الفردية .

(٨٣) طهر في هذا العصر وفي ثانيا الهجاء اتهام بعض الناس لبعض بالتخث أو ما هو شرمه ، نظراً لانتشار
هذه المفاصد الخلقية إذ ذاك

(٨٤) ديوان أبي نواس ص ١٧ - والأوراق للصولي .

لحية نَطَّة ووجه قبيح وانثناء عن النهى والصلاح
 فيك ما يحمل الملوك على الحرِّ م ق ويُرِّي بالسيد الجحَّاح
 فيك تيه وفيك نَعَج شديدا وطلاح يفوق كل طلاح
 بارد الطرف مظلم الكذب ذو خَرِّ ق معيد الحديث تَزُرُّ المزاح
 وقول أبي نواس لأبان أيسر حملا حين يقاس بقول أبي العتاهية لعبد الله بن
 معن بن زائدة :

ألا قل لابن معن ا م لذي في الود قد حالا (٨٥)
 لقد بُلِّغْتُ ما قالا فما باليت ما قالا
 ولو كان من الأسد لما صال ولا هالا
 فصع ما كنت حلَّيت به سيفك خلَّالا
 وما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا
 ولو مد إلى أذني ه كفيه لما نالا
 وقد جلده عبد الله انتقاما منه على تطاوله عليه وإساءته إليه فقال فيه قصيدة
 أخرى أشد صراحة وأعظم إيلا ما وفيها يقول :

قال ابن معن وجلا نفسه على من الجلوة يا أهلي (٨٦)
 أنا فتاة الحى من وائل فى الشرف الشامخ والنبل
 ويلي ويا لهفى على أمرد يلصق مئى القرط بالحجل
 صافحته يوما على خلوة فقال دع كفى ونخذ رجلى
 اخت بنى شيبان مرت بنا ممشوطة كورا على بغل
 قد نَقَّطت فى وجهها نقطة مخافة العين من الكحل
 أتجلد الناس وأنت أمرؤ تجلد فى الدبر وفى القبل
 . ووالبة بن الحباب كان فريسة أخرى لأبى العتاهية . وقد تعجب حين تعرف
 أن والبة هذا على تحلله من الأخلاق ، وخروجه على التقاليد قد اضطرت تحت

(٨٥) الأغاني ج - ٣ - ص ١٣٢ .

(٨٦) نفسه ص ١٣١ .

ضربات أبى العتاهية المتوالية أن يفر من وجهه ، ويترك له بغداد على سعتها^(٨٧) وكان مما قاله فيه :

صَرَّحَ بما قد قلته واجهر لابن الحباب وقل ولا تنحصر^(٨٨)
 مالى رأيت أباك أسود غر بيت القذال كأنه زرز
 وكان وجهك حمرة رئة وكان رأسك طائر أصفر
 وابنُ الحباب صليبة زعموا ومن المحال صليبة أشقر
 مابال من آباؤه عرب الأ لوان يُحسب من بنى قيصر
 أتروُن أهل البدو قد مُسخوا شُقرا أما هذا من المنكر

وهكذا استغل أبو العتاهية التباين الشديد بين لون والبة وأبيه الحباب واتخذ دليلا على أنه ليس منه ، بل من سفاح .

ولعل موقف أبى العتاهية من والبة يفسر لنا طرفا من أسرار تطور الهجاء فى ذلك العصر. ألا ترى الأول لو قال فى الأخير ماقاله الحطيئة فى الزبرقان بن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبغيته واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
 أو مثل قول الآخر وقد عدّه قدامة من خبيث الهجاء^(٨٩)

إن يغدورا أو يفجروا أو يبخلوا لا يحفلوا
 يغدوا عليك مرجلي م ن كأنهم لم يفعلوا

مانال منه شيئا ، وهل ينكر والبة لايجرى وراء شىء فى الحياة سوى شهوة الفرج والبطن . وهل ينكر هو والمتحررون من أمثاله أنهم ساخرون من العرف خارجون على التقاليد ، لا يحفلون بأحد ولا يستحيون أحدا . إن والبة وأضرابه لا يفهمون إلا تلك اللغة التى خاطبهم بها أبو العتاهية فأذاهم ، ولا يفرقون إلا من تلك السياط التى سلقهم بها فأوجعهم . ومامن شك فى أن هذا الاتجاه كان أثرا

(٨٧) الأعانى - ح - ١٦ - ص ١٤٤ .

(٨٨) نفسه .

(٨٩) نقد الشعر ص ٣٠ .

من آثار الترف الذى شمل الحياة العامة ، وميل الجمهور إلى اللهو والمرح على نحو ما ذكرنا سابقا فى الفصل الخاص بالمجون .

وقد استغل الشعراء هذه التزعة العامة لإضحاك الناس من خصومهم ، وقد بلغوا من ذلك ما أرادوا ، فقد كان عبد الله بن معن يقول ، مالبست سيني قط فرأيت إنسانا يلمحني إلا ظننت أنه يحفظ قول أبي العتاهية فيّ فلذلك يتأملني فأخجل^(٩٠) يعنى قوله :

فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالا
وماتصنع بالسيف إذا لم تك قـتـالا

وكان هارون الرشيد كلما رأى عبد الله بن معن تمثل قول أبي العتاهية :
أخت بني سيبان مررت بنا ممشوطة كورا على بغل^(٩١)

ولكن ليس معنى هذا أن السباب المقلد المكشوف قد اختفى من الشعر تماما إذا مازال هناك بقية منه نراها فى مثل قول أبي الطيب المتنبي يهجو ابن كيغلف :

يحمى ابن كيغلف الطريق وعرسه مابين رجلها الطريق الأعظم^(٩٢)
يمشى بأربعة على أعقابها تحت العلوج ومن وراء يلجم
وإذا أشار محدثا فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم
يقلى مفارقة الأكف قذاله حتى يكاد على يد يتعمم

وأشد منه صراحة وإقذاعا ، وأعظم منه هجوما على الدوق وتحديا له هجاء يشار بن برد لضحاياه وإن شئت نموذجاً لذلك فاقرأ قصيدته فى هجاء يحيى بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس والتي يقول فى أولها :

لاتبغ شر امرئ شرا من الداء واقدح بحلم ولا تقدح بشحناء^(٩٣)

واليك يتبين آخريـن للشاعر نفسه فى هجاء المهدي أمير المؤمنين وزوجته

(٩٠) الأغالى - ج ٣ - ص ١٣٤ .

(٩١) نفسه ص ١٣١ .

(٩٢) ديوانه شرح العكرى ح - ٤ - ص ١٢٦ .

(٩٣) ديوانه ص ١٢٢ .

الخيزران وولى عهده الهادى . فلإنها على سخفها أقل هجنة من شعره فى يحيى صالح . وفيها يقول :

خليفة يزنى بعماته يلعب بالدُّبوق والصولجان^(٩٤)
أبدلنا الله به غيره ودسّ موسى فى حرّ الخيزران

وينبغى أن نلاحظ أن شخصية الشاعر ذات أثر قوى فى الصبغة الغالبة على هجائه ؛ فهجاء الأشراف خلاف هجاء السوقة . وأهل الدعارة والفجور غير أصحاب الدين أو العفة . ويحاول بعض الشعراء أن يتحكم من خصمه قبيل من ذلك مايريد ، بينما يتعثر الآخرون دون تلك الغاية ؛ ألا ترى أن أبا العتاهية قد نجح فيما أوفق فيه أبو الطيب المتننى وذلك لغلبة الجد على الأخير واختلاط الأول بالمختشين من أهل بغداد وتعلمه كيادهم ودهالهم .

وإذا أردت أن تعرف فرق ما بين السوقة والخاصة فاقرأ هجاء امرئ القيس لسبيع بن عوف أحد بنى طهبة :

أبلغ سبيعا إن عرضت رسالة إني كهملك إن عشوت أحام^(٩٥)
فاقصر إليك من الوعيد فأننى مما ألقى لأشد حزامى
ثم يستمر فى هجائه مثلاً هادئاً حتى يختمه بقوله .

خالى ابن كبشة قد علمت مكانه وأبو يزيد ورهطه أعمامى
وإذا أذيت ببلدة ودّعها ولا أقم بغير دار مقام^(٩٦)

وحيثما نضع بجانب هجاء بشار أو أبى العتاهية يتضح ماأشرنا إليه من اختلاف الهجاء باختلاف الشخصيات : والسبب فى ذلك أن كل إناء بما فيه ينضح . وأن أهل المروءة يتقون العبث بأعراض الناس محافظة على أعراضهم . ومن ذلك مايرويه ابن قتيبة^(٩٧) من أن قائلاً قال للعجاج :

(٩٤) وفيات الأعيان - ح - ١ - ص ٨٩ .

(٩٥) ديوانه شرح السندوبى ص ١٧٨

(٩٦) أذى على وزن بى ، والمصدر أذى : معناه تأذى . ولا يصح أن يكون مبنيًا للمجهول ، إذا كان يجب

أن يقال فيه أوذيت .

(٩٧) الشعر والشعراء ص ٢٦ .

إنك لاتحسن الهجاء . فقال : إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نظلم وأحسابا تمنعنا من أن نُظلم وهل رأيت بانياً لايجسن أن يهدم .

أما أهل السفه فليس لهم من الأحساب والأنساب ما يغارون عليه أو يعملون على صيانتة . فلا يضيرهم بعد ذلك أن يهاجموا الناس أو يتعرضوا لهجومهم . وقد استغل المُجَّان من شعراء القرنين الرابع والخامس الهجرى المجون فى الهجاء أوسع استغلال وأسوأ والقارئ فى يتيمة الدهر للثعالى يرى من ذلك مايندى الجبين ومنه هجاء أبى القاسم الحسين بن الحسين الواسانى لابن أبى أسامة ، وفيه يقول :

يا سا كنى حلب العوا صم جادها صوب الغمامة^(٩٨)
أنا فى مدينتكم غربى ب لست من أهل الإقامة
ثم يقول بعد قليل .

وإذا بأسود كالقنير ق يقل شيئا كالدعامة
وإذا بشيخ تحته حسن الوسامة والقسامة^(٩٩)
والشيخ يعصر تحته قد بل من عرق حزامه
إلى آخر ما قاله فيها .

وفى المدح تغيرت المثل العليا تبعا لتغيير الحياة الاجتماعية ، والمعايير الخلقية ، فبعد أن كانت الشجاعة والكرم وحماية الجار هى أهم ما يدور على ألسنة المادحين صرنا نرى أوصافا أخرى ترسم لنا شخصية مثالية غير تلك التى رسمها العصر الجاهلى لنفسه على ألسنة شعرائه ، شخصية تتحلّى برقة الحاشية وعدوبة الروح والظرف وغير ذلك من الصفات التى يطلبها مجتمع متحضر راق يعيش فى ظلال بنى العباس^(١٠٠) ونستطيع أن نبين ملامح تلك الشخصية فى قول أبى نواس يمدح الرشيد :

(٩٨) اليتيمة ح - ١ - ص ٢٩٥ .

(٩٩) الشيخ فى هذا البيت والذى يليه ابن أبى أسامة

(١٠٠) إن المجتمعات كلما ارتفعت قل حديثها عن الشجاعة والكرم لعدم حاجتها إليها حيث تتكفل الحكومات بإطعام المحتاج وحماية الضعيف .

ملك تطيب طباعه ومزاجه حلو المذاق على فم المتذوق
أو في قول أبي تمام يمدح أبا سعيد الثغرى :

لك هضبة الحلم التى لو وازنت أجا إذن ثقلت وكان خفيفا
وحلاوة الشيم التى لو ما زجت خلق الزمان القدم عاد ظريفا (١٠١)
أو قوله فيه :

قطب الخشونة بالليان معاقبا فغدا جليلا فى القلوب لطيفا
هزته معضلة الأمور وهزها وأخيف فى ذات الإله وخيفا
يقظان أحصدت التجارب عقده شزرا وثقف حزمه تثقيفا
واستل من آرائه الشغل التى لو أنهن طبعن كن سيوفا

ولعل ملامح تلك الشخصية الحديثة تبدو وأوضح ما تكون فى تلك القصيدة
التي أرسل بها أبان اللاحق إلى الفضل بن يحيى يزكى بها نفسه عنده وفيها
يقول أبان :

أنا من بُغيه الأمير وكتر من كنوز الأمير ذو أرباح (١٠٢)
كاتب حاسب خطيب أديب ناصح راجح على النصاح
وظريف الحديث من كل فن وبصير بترهات الملاح
شاعر مفلق أخف من الري شة مما يكون تحت الجناح
أيمن الناس طائراً يوم صيد لغدو دُعيت أو لرواح
أبصر الناس بالجوراح والخيّل وبالحرد الحسان الملاح
كل ذا قد جمعت والحمد لله على أننى ظريف المزاح
لست بالناسك المشمر ثوييه م ولا الماخن الخليع الوقاح

وكأنما كان ينبغى للشخصية الحديثة أن تجمع بين عذوبة الخلق وجمال الخلق ولذا
يحرص أبان على الإشارة إلى الأخيرة حين انتهى من الأولى فيقول :

(١٠١) وطيره قوله :

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت و أنه يد

(١٠٢) الأوراق للصوى ص ٤ ، ٥ .

لست بالفضخم يأميرى ولا القدم
لحية جعدة ووجه صبيح واتقاد كشعلة المصباح^(١٠٣)

ولنا شئت أن تعرف مدى ما كان بين القدمى والمحدثين فضع قول الأعشى في
قيس بن معدى كرب :

وإذا تكون كتيبة ملمومة خرساء يخشى الدارعون نزالها
كنت المقدم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلما أبطالها
بجانب قول أبي نواس في الرشيد :

يغشى الهجير بغرة مهدي لو شاء صان أدبها الإكثان
لكنه في الله مبتذل لها إن التقي مسددا ومعان

أرأيت عظم الفرق بين الحياتين والعقليتين . أما الأول فيحمد لصاحبه تعرضه
للموت دون جنة ، وأما الثانى فيستكثر على ممدوحه التعرض للشمس دون وقاية .
أما الفخر فقد ظل على ما كان عليه في شعر ذوى الأحساب من أمثال الشريف
الرضي الذى يقول مفتخراً بأسرته وعشيرته :

أنا من علمت قديمه وحديثه علم اليقين وإن جهلت فسائل
قومى الملوك وخيم نفسى خيمها أفلج بمثل أوأخرى وأوائل

ولكن ظهر إلى جانب ذلك روح جديدة أهم ما تمتاز به أنها فردية يفخر فيها
الشاعر بنفسه لا بقيلته ، لأن الروابط القبلية ضعفت ، فأصبح كل فرد يشعر
 باستقلاله الذاتى فى ظل الدولة وحمايتها وصار فخر الشعراء بآدابهم ونباهة شأنهم
أكثر من فخرهم بالشجاعة وحماية الجار وغيرها من المثل العليا عند أهل الجاهلية كما
ترى فى قول أبى الطيب :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم
أنا ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراًها ويختصم

(١٠٣) وازن أيضاً بين هذا البيت وقول طرفه .

أما الرجل الضرب الذى تعرفوه خشاش كراس الحية المتوقد

وكثرت فيها المبالغات الدالة على الغرور كما ترى في قول أبي العلاء :
 بأى لسان ذامنى متجاهل علكى وخفق الريح فى ثناء
 ومن هو حتى يحمل النطق عن فى إله ويمشى بيننا السفراء

وأخيراً نحب أن نلفت الأنظار إلى أن تحول الفخر والمده على النحو الذى ذكرناه ، هو الذى يمكن أن يسمى تطوراً ، حيث تغيرت فيه المثل العليا كثيراً
 أما ما ظهر فى شعر الأمويين من تمده بالدفاع عن الإسلام والمسلمين ، بدلا من الدفاع عن القبيلة كما هو الشأن فى الشعر الجاهلى ، فلا يمثل تحولاً خطيراً فى الشعر ، حيث إن الموقف فى الحالين لا يعدو الإشارة إلى بلاد بلاء القائد أو الرئيس فى الدفاع عن المجتمع الذى يعيش فيه والتقاليد التى تحكم ذلك المجتمع (١٠٥)

(١٠٥) نحن بذلك محالف الدكتور شوقى ضيف - اقرأ له التطور والتجديد .

جولات الشعراء في جوانب النفس

البشرية

تعمدنا أن نختم مظاهر التجديد والتطور في أغراض الشعر العربي بالحديث عن النواحي النفسية لخطورتها واتصالها الوثيق بتطور الفكر العربي والحياة العربية . فالنفس البشرية لم تكن من الموضوعات التي أطلال القدماء الخوض فيها أو التعرض لها كما يبدو في أشعارهم . أما في العصر العباسي عصر التطور والتجديد فإن النفس البشرية ونزعاتها المختلفة صارت تحظى بالكثير من ملاحظة الشاعر ، ملاحظة لاتلبث أن تترجم إلى أبيات ومقطوعات شعرية . ويأتي المتنبي وأبو العلاء وأبو العتاهية في مقدمة الشعراء العباسيين من هذه الناحية . وإن اختلفت دوافعهم إلى ذلك ، كل بحسب مزاجه وظروفه الخاصة .

فالأول كان ناقما على الناس لأنه يحب نفسه ، ولذا كان يصور نفسه دائما بصورة المحسود المغبون ، والناس من حوله حسدة ظالمون ، أقزام يقحمون أنفسهم في مواكب العاقلة . ومعظم فلسفته تدور حول هذه المعاني .

أما الثاني فكان عاتبا على الناس ؛ لأنه يحبهم ، عاتبا على الرعاة لأنهم يسيئون إلى الرعية ، وعلى الرعية لأنها تحسن إلى نفسها . وحاول إصلاح هؤلاء وأولئك ولكنه تعجل النتائج فيئس . ونادى بما ينادى به الياثسون ، نادى بالانتحار ، انتحار الإنسانية جمعاء عن طريق الامتناع من التزاوج والتوالد ، وأخذ يردد الأناشيد في فضل الموت على الحياة .

أما الثالث فلم يكن يعانى آلام انتفاخ الشخصية كالمتنبي ، بل على العكس كافي يعانى تلك الآلام التي يعانها المرء حينما يحس بتفاهته ، ولذا حقد على طائفة خاصة من المجتمع ، وهى التى كانت تفوقه حسبا ونسبا وسلطانا . ولم يكن الموت الذى أكثر من ذكره سبيلا إلى القضاء على العالم ووضع حد لما به من شرور ، كما هو رأى أبى العلاء ، بل سبيلا إلى القضاء على الامتيازات التى يتمتع بها السادة

والتسوية بينهم وبين أفراد الطبقات الدنيا من أمثاله (١٠٦) . وهذا هو السبب في أن قوله .

والناس في غفلاتهم ورحا المنية تطحن
كان باعترافه أحب أقواله إليه ، لأنه يشتمل على أبلغ وسائل التحطيم وهو
الطحن .

وقد اتخذنا من هؤلاء الثلاثة نماذج فقط ، وإلا فهناك كثيرون يجانب هؤلاء
كانت لهم مشاكلهم . وكل ما نريد أن نلفت الأنظار إليه هو أن الحضارة الحديثة
جرت في أذيالها مشاكل مختلفة ، منها تعقد الحياة الاجتماعية بانقسام المجتمع إلى
طبقات متفاوتة في الحقوق والواجبات تفاوتاً يدعو إلى التنافس والتحاسد ،
وقدما كان الناس متساوين أو كالمساوين في ظل النظام البدوي الديمقراطي
المتكشف .

وقد زاد من شعور الناس بذلك التفاوت ، الثقافة الحديثة التي عرفت الفرد
بحقوقه وواجباته ، حين بدأ علماء الكلام يناقشون نظرية الخير والشر والصلاح
والأصلح . وهل يجب على الله مراعاة العدل في معاملة عبده أولاً يجب ، وإذا
كان المرء قد أصبح لا يطيق أن يقع عليه غبن حتى من خالقه الذي لا يسأل عما
يفعل ، فكيف به لو كان من بشر مثله يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق .

وليس معنى هذا أن القدماء لم تكن لهم مشاكلهم ، أو أزماتهم النفسية إلى
ولكن لم يكن لديهم الفراغ الكافي للإنصات إليها ، أو التفكير فيها كما فعل
المحدثون بعدهم ، وإن شئت فاستمع إلى ما يؤيده هذه الدعوى من كلام هؤلاء
وأولئك : يقول طرفة بن العبد :

لعمرك ما أمرى على بغمة نهارى ولاليلي على بسر مد (١٠٧)

أما أبو العتاهية فيقول :

(١٠٦) من ذلك قوله

واقترقنا في المقدرات وسوى الله في الموت بيننا فاستويا

ديوانه ص ٢٥٦ .

(١٠٧) معلقته .

أقلب طرفى مرة بعد مرة لأعلم مافى النفس والقلب ينقلب^(١٠٨)
أو يقول:

يانفس أنى تُؤفكينا حتى متى لاترعوينا^(١٠٩)
حتى متى لاتقلع م ين وتسمعين وتبصرين
أصبحت أطول من مضى أملا وأضعفهم يقينا
يانفس إلا تصلحى فتشبهى بالصالحينا
وتفكرى فيما أقول ل لعل قلبك أن يلينا
وهذا هو السبب فى أن الفكر كثيرا ما يمتزج بالوجدان عند المحدثين كما ترى فى
قول المتنئى:

ياساقئى أخطر فى كؤوسكما أم فى كؤوسكما هم وتسعيد
أصخرة أنا مالى لاتحركنى هذه المدام ولاتلك الأناشيد
فإنه يناقش القضية مناقشة أهل المنطق أو علماء النفس ليعرف السر فى عجز
الخطر عن التغلب على همومه ، وهل ذلك لنقص فيها ، أم لأن طبيعته قد حالت
فصارت لاتتأثر بما يتأثر به سائر الناس؟ أما القدامى فيصورون مشاعرهم دون
مناقشة أو تأمل طويل كما ترى فى قول طرفة .

وظلم ذوى القرئى أشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند^(١١٠)

والذى نريد أن نصل إليه هو ما بدأنا به من أن النفس البشرية صارت ميدانا
لدراسة الشعراء وملاحظتهم ، ملاحظة ظهرت فى نتائجهم الأدبى على نحو لم
يعهده الأوائل ولم يفكروا فيه ، فبعد أن كانت الأزمة عند القدامى فى الماء
والمرعى ، أو هكذا كانوا يعتقدون على الأقل ، صارت عند المحدثين فى النفوس
والصدور ، كما ترى فى قول المتنئى:

(١٠٨) ديوان ص ٣٦ بيروت .

(١٠٩) ديوان بيروت ص ٢٦٤ .

(١١٠) معلقته .

وكأنّا لم يرض فينا بريب الد م دهر حتى أعانه من أعانا (١١١)
كلما أنبت الزمان قناة ركبّ المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس أيسر من أن نتعادي فيه وأن نتفاني
غير أن الفتى يلاقى المنابيا كالحات ولا يلاقى الهوانا
أو قول بشار:

وماضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق
ومن الموضوعات التي شغلت المحدثين من الشعراء مسائل القضاء والقدر
وعبث الحظ بالناس ، فقد أطلوا من ذلك عجبهم وحيرتهم كما ترى في قول
بشار:

طبعت على مافى غير مخير هوى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصى علمى أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر وأمسى وما أعقت إلا التعجبا
ويقول أبو العتاهية قريبا من ذلك:

نبغى من الدنيا الغنى فتريدنا فقرأ ونطلب أن نصح فنمرضا (١١٢)
ويقول أيضاً:

أيا دنيائى مالى لأرانى أسومك منزلا إلاباي (١١٣)
ألا وأراك تبذل يازمانى لى الدنيا وتسرع باستلابى
وقد اختلفت مواقفهم مما يكرهون من أمور الحياة والأحياء ، فحينما يلجئون
إلى المغالطة فيقول قائلهم:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما يُرام به وما يتوقع (١١٤)
ولن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلبَ المحال فتطمع
وأحيانا يملون تلك المغالطة التي لاتقضى على المشكلة بل تعقدها ، وترسيها

(١١١) شرح العكبرى ج - ٤ - ص ٣٤٠ .

(١١٢) ديوانه ص ١٣٨ .

(١١٣) ديوانه ص ٢٤ .

(١١٤) ديوان المتنبي شرح العكبرى - ٢ - ص ٢٦٩ .

في أعماق النفس ، فيرمون في أحضان اليأس ، ويجدون في ظلاله الوريقة برداً
وسلاماً على أكبادهم المقروحة فيقول بعضهم عاتبا على الدنيا ، شاكيا صروفها :
قطعت منك حبال الآمال وحططت عن ظهر الميطي رحالي (١١٥)
ويشت أن أبقى لشيء نلت مما مافيك يادنيا وأن يبقى لي
فوجدت برد اليأس بين جوانحي وأرحت من حل ومن ترحال
ولئن يشت لرُبَّ يَرْقة خُلب برقت لذى طمع ولحمة آل
ما كان أشأم إذ رجاؤك قاتلي وبنات وَصْلِكِ يعتلجن بيالي
فالآن يادنيا عرفتكَ فاذهي يادار كل تشتت وزوال

وقد كان من أثر هذه الملاحظة الدقيقة مع الحس المرهف أن كثرت في
أشعارهم عبارات تدل على إداركهم التام لأسرار النفس البشرية ومن ذلك قول
أبي الطيب الذي يعد بحق أستاذ الشعراء جميعاً في هذا الاتجاه .

واحتمال الأذى ورؤية جانبه غذاء تَصَوَّى به الأجسام

فإن المتنبي يمثل هذا البيت عن إدراك فطري لرأى علماء النفس في
الأنفعالات والعواطف المكبوتة (١١٦) ، وماتسبيه للمرء من متاعب نفسية
واضطرابات عصبية وخلق حالة مزاجية تستمر مع المنفعول وقتاً يطول ويقصر
حسب استعدادة الشخصي .

وكان الشعراء قديماً لا يفتنون إلى مثل تلك الآثار حين يدعوا العقلاء منهم إلى
الاحتمال والمصانعة كما ترى في قول زهير:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يُضَرَّسْ بأنياب ويوطأ بمنسم (١١٧)

(١١٥) ديوان أبي العتاهية ص ١٩٤ .

(١١٦) راجع ما كتبه الأستاذ حامد عبد القادر في الانفعالات والعواطف بالجزء الثالث من كتابه « علم
النفس » بالاشتراك مع الأستاذ الإبراهيمي وقرأ بصمة خاصة صفحات ١٧٠ ، ٢٣٨ .

(١١٧) ينبغي أن يلاحظ أن الاحتمال والمصانعة ليست من خلق العربي الذي يميل إلى الصراحة والمجازاة على
الشئ بمثله وزهير نفسه يقرر ذلك العرف الجاهلي بعد أبيات قلائل من البيت الأول حيث يقول : -

وإذا شئت موازنة أخرى بين العقلية الحديثة والقديمة فضع قول أبي الطيب :
والظلم من شمم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم
بجانب قول زهير:

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
فسترى أن زهيراً يمثل أحد شيوخ القبائل وحكامها حين يتحدثون عن قانون
البادية ومنطق الغابة ، بينما يذكرنا المتنبي بمباحث علم النفس في نفسية الطفل
وهل هي خيرة بطبعها ، أم أنا نحمل بين جوانحنا رواسب وراثية توجهنا إلى الخير
أو الشر .

بل مالى لأعود إلى بيتين آخرين يكملان مع البيت السابق تصوير الثورة
النفسية التي كانت تعصف برأس الشاعر في تلك الأثناء ويوضحان مدى تغلغل
فكره في فهم الحياة والأحياء وأعنى قوله :

ذو العقل يشقى في النعم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
ألا يدل البيت على اتساع بل تطور خطير في آفاق الفكر العربي ؛ فبينما كان
القدامى يحمدون التعقل والتدبر ، فرحين بما يصل إليهم من رشاش يسير يربط
البدن ويبل الصدى ، أخذ هو يشكو غرفة في ذلك الخضم الواسع ، وينشد
النجاة منه ، ويحسد الواقفين على شواطئه حيث الأمن والدعة والغفلة . ألا يؤكد
هذا البيت ما قلناه سابقاً من أن الثقافة الحديثة كانت شراً على أهلها حيث فتحت
أعينهم على ماحولهم من مشاكل ومفارقات غفل عنها الجهال فاستراحوا
وأراحوا ، على حين أطلوا هم التفكير فيها والأسى لها فأتبعوا أنفسهم فأتبعوا
الناس معهم .

أما البيت الثاني فيمثل يقظة الشاعر لما يدور حوله ، وإحساسه بمخطر قوى

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
وليس معنى هذا أن زهيراً يناقص نفسه ولكنه في الأول مثالي موجه وفي الثاني واقعي مصور وشبه بقول زهير
الأول قول السموأل :

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل

الشر المتكلمة في كل جهة من جهات الحياة ، وإصرارها على أن يكون لها الغلبة والسلطان ، رضيت الشرائع السماوية ، والوشائج الإنسانية أم سخطت ، مما يجعل أزهق الناس في الصراع مضطرا إلى أن يخوض ضدها حرباً مدمرة ، محافظة على شرفه ، واحتفاظا بحياته .

وقد لا يكون هذا الأذى الذى يتطير إلينا شره حاداً حاسماً حتى نحسمه بعمل إيجابى سريع مهما كلفنا ، بل منغصات صغيرة لاتكاد تنقطع ، كلما أغلقت دونها بالحلم والاحتمال بابا نفذت إليك من باب آخر بحيلة أو أخرى وذلك هو مايعنيه أبو العتاهية حين يقول :

أرقع من دنيائى دنيا دنية ودارا كثيراً وهنأ وخروقتها^(١١٨)
وإذا كان معظم ماأوردناه من شواهد يرجع تقريباً إلى نزعة واحدة هى سخطهم أو سوء ظنهم بالحياة والأحياء ، فإن هناك أبياتاً أخرى تدل على أنهم حاولوا حل تلك الأزمة الحادة التى كانت تتناهم من وقت لآخر ، لاعن طريق اليأس أو المغالطة الصريحة كما قدمنا ، بل عن طريق مقاومة اليأس بالأمل والتشاؤم وتلمس الخير فى ثنايا الشر ، وخيوط الضوء الدقيقة فى طيات الظلام الخالك كما نرى فى قول أبى العتاهية :

كم نعمة لا يُستغل بشكرها لله فى طيِّ المكاره كامة^(١١٩)
وقد أحوالوا اليأس المرير إلى زهد عذب مريح كما نرى فى قوله أيضاً :
وجدت الرّوح جَدَّب العيش لما عرفت العيش مخَضّاً واحتلاباً
وكأنهم بذلك يرثون لمن لايزال متعلقاً بالدنيا من أهلها ، وهل رأينا شاعراً قبل أبى العتاهية يرى فى الفقر زينة وبهاء فيقول :

ولقد عجبت من المثمر ماله نَسَى المثمر زينة الإقلال
وربما هدتهم الفطرة السليمة إلى بعض مانستعين به الآن فى ضوء علم النفس

(١١٨) ديوان بيروت ص ١٧٧ .

(١١٩) الموازنة ص ٤٠ .

على ضبط انفعالاتنا ، وتهدة أعصابنا أمام مانكره من أمور الدنيا ، وذلك بتغيير الجيو العام حولنا^(١٢٠) كما نرى في قول أبي العتاهية:

لا يصلح النفس إن كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حال^(١٢١)

كما أدركوا أهمية التناسي أو النسيان في إماتة الآلام النفسية مستعينين على ذلك بالزمن فيقول قائلهم:

وإذا مضى هم أمرئ فقد انقضى إن الهموم أشدهن الأحداث^(١٢٢)

وبعد فقد حاولنا فيما مضى أن نعني بما كان من أشعارهم متفقاً مع ثورتهم على الحياة والأحياء فقط . وإلا فهناك قدر غير ضئيل من أشعارهم النفسية يجانب مذكرنا ، يستطيع القارئ أن يعثر عليه بسهولة فن ذلك مثلاً في قول المتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه ————— الجرح بميت إيلام

وينبغي أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أننا لم نكتسب هذا فيما يسميه النقاد بفلسفة هذا الشاعر أو ذاك ويعنون به نظره إلى الدين أو السياسة أو الزواج ونحو ذلك^(١٢٣) وإنما أردنا أمراً واحداً فقط وهو إدراك شعر العصر العباسي لما لم يكن يدركه سلفهم من أسرار النفس البشرية ، وملاحظتهم الدقيقة لها .

والآن وقد انتهينا من الحديث عن أغراض الشعر نحب أن نشير إلى أننا جعلنا ما أصابها من تغير مظهراً من مظاهر تطور الشعر العربي لأمرين:

أولهما: كونها صدى لتغيرات وتطورات في الحياة الاجتماعية والسياسية كشعر أبي العتاهية الذي يعد من بعض نواحيه مظهراً من مظاهر تعقد الحياة الاجتماعية

(١٢٠) راجع كتاب الأستاذ حامد عبد القادر والإبراهيمي في « علم النفس » ج - ٣ - بحث ضبط الانفعالات

(١٢١) ديوان (بيروت) ص ٢٢٣ .

(١٢٢) المرجع السابق ص ٦٠ .

(١٢٣) من أمثلة ذلك ما كتبه الدكتور مهدي علام بعنوان « فلسفة المتنبي » في مجلة دار العلوم (يونية سنة

١٩٣٦) .

والنفسية ، وتناحر الطبقات وتحاسدها ، كالخمر والمجون والغزل بالمذكر التى انبعثت فى الغالب عن موجة الزندقة التى غزت الدولة من الخارج وروح اليأس التى دبت فى أنحائها من الداخل .

وهذا هو السبب الذى يجعلنا لانتلقى بالا لما كان من مجون الوليد بن يزيد فى العهد الأموى ، لأن تلك الحركة كانت محصورة فى أضيق الحدود ، لم يتأثر بل لم يشعر بها المجتمع . وأهم من هذا كله أنها لم تكن مظهراً من مظاهر تطور الحياة الاجتماعية لدى طائفة كبيرة من الشعب ، على نحو ما حدث فى العصر العباسى ، بل لدى شخص من الأشخاص أو شذمة من الناس .

ثانيهما : اتساع شقة الخلاف بين ماضى الشعر وحاضره . وإذا اتخذنا الغزل الحسى مثلاً نموذجاً لذلك رأينا التشابه القويّ إن لم يكن التام بين غزل امرئ القيس وعمر بن أبى ربيعة ، ثم الاختلاف التام بينهما جميعاً وبين غزل بشار بن برد إن صح أن يسمى ذلك غزلاً ، وهذا قول لا يُلقى إلقاء بل له ما يؤيده من التاريخ ، ألا ترى أن ابن عباس على علمه وورعه ربما استمع إلى شعر ابن أبى ربيعة فى بيت الله ، على حين كان يخشى المحافظون من أهل بغداد أن يؤثر شعر بشار على نساتهم تأثيراً سيئاً . وشنّ عليه رجال الدين حرباً شعواء ، وتهدماً بذلك لغضب المهدي عليه غضباً انتهى بقتله .

الفصل الثالث

عناصر الشعر العربي ومدى ما أصابها من تطور أو جمود : -

لعل القارئ كان يتوقع أن نقدّم هذا البحث على مبحث الأغراض . ولكننا خشينا أن نكون صورة من ذلك الضابط الذي سأله رئيسه عن السبب في إحجامه عن مهاجمة أحد الحصون ، فأجابه بأن لديه مائة سبب أحدها أن الذخيرة قد نفذت ، مما دعا القارئ إلى إغلاق سمعه دون ما جاء بعد ذلك من أسباب . وإلا فإننا لم نغفل عن أن هذا الفصل هو أهم وأخطر خطوات الكتاب . وسيكون واجبنا فيه استعراض العناصر التي أشرنا إليها في صدر الكتاب ومعرفة مدى ما أصابها من تغير أو استقرار وأسباب ذلك . ولنبدأ بالطبع الذي بدأنا به هناك .

العنصر الأول

الطبع :

قد عرفنا فيما سبق أن العرب كانوا يتقبلون كل ما تجود به قرائحهم . دون طويل مراجعة أو تنقيح ، وظلوا كذلك حتى ظهرت مدرسة زهير ، فجوّدت لغة الشعر وصقلته وتنحّلت معانيه ، ولكن ذلك لم يحدّ بالشعر كثيراً عن اتجاّاه الأول . ولذا ظل خلال العهد الأموي يسير على نفس النهج القديم . وعرفنا أن ميل العرب إلى الجريان مع الطبع في أشعارهم راجع إلى بساطة حياتهم البدوية وبعدها عن التكلف والتعقيد .

والآن وقد جاء العصر العباسي ، وتغير وجه الحياة . وتطور العربي من بدوى يفترش الرمال الصفراء النقية وتحيط به إبله وضأنه إلى رجل متحضر يتمتع بكل ما وصلت إليه مدنية العصر العباسي - المشرق رغم ظلام العصور الوسطى - من ألوان الترف والنعيم المادى متمثلاً في الرياش والزخرف ، والأدبي متمثلاً في ألوان الثقافة التي عرفها عصر الرشيد والمأمون . الآن وقد حدث ما حدث ، ماذا كان موقف الشعر والشعراء من

كل ذلك ؟ لم تبدل سنة الله ولم تتحول ، بل حدث ما يحدث عادة في جميع شعوب الأرض حين تتغير ظروفها ، وتتسع أمامها آفاق الحياة ، حيث يستجيب قوم لتلك الظروف الجديدة استجابة تامة ، بل ويسرفون فيها إن صح ذلك التعبير ، بينما يقف قوم آخرون موقف التردد والإشفاق من ذلك الجديد الذي لم يعرفوه . والتشبث أو الحنين إلى ذلك القديم الذي عرفوه واطمأنوا إليه . وكثيراً ما تتدخل عوامل مختلفة شخصية وغير شخصية لتوجيه كل فريق لما خلق له . وليس معنى هذا أن هناك فريقاً يقف دائماً وإلى الأبد في وجه تيارات التطور وقوف الجبال الرواسي . بل كل ما هنالك أن الناس دائماً أمام موجات التجديد أشبه بالمواد المختلفة من أخشاب وأحجار ومعادن حين يجرفها السيل ، فيسرع بعضها إلى امتطاء ظهره ، والسير معه حيثما اتجه ، بينما يسير بعض متثاقلاً كأنه مقيد بالسلال أو مرهق بالأغلال .

وعلى مقتضى تلك السنة ظلت طائفة من الشعراء تحتذى الأوائل من حيث الجرى مع الطبع ، ووضع الهدف النهائي فوق الأفكار الجزئية الجانبية وغُيّت بعدوية العبارة وموسيقيتها أكثر من عنايتها بذلك الزخرف الإضافي والجمال المكتسب الذي يتمثل في المحسنات البديعية .

وكان على رأس هذه الطائفة أبو العتاهية والسيد الحميري والبحتري ومالت طائفة أخرى إلى العناية بالصورة اللفظية وإثقالها بالمحسنات البديعية من جهة ، وبالمعاني عمقاً ودقة وإحاطة من جهة أخرى ، وعلى رأس هذه الطائفة مسلم بن الوليد وأبو تمام . ويمكن أن نسمى الطائفة الأولى بأهل الطبع والثانية بأنصار الصنعة . وإنا لذاكرون لك أربعة نماذج أولها جاهلي ، وثانيها أموي ، والثالث عباسي لإمام أهل الطبع ، والرابع عباسي أيضاً ولكن لحامل لواء أهل الصنعة ؛ لترى معنا مدى ما بين بعضها وبعض من توافق أو تخالف . ولتكن جميعها في المدح : قال الأعشى يمدح قيس بن معدى كرب :

عَوَّدَتْ كَنْدَةَ عَادَةِ فَاصْبِرْ لَهَا
وَكُنْ لَهَا جَمَلًا ذُلُولًا ظَهْرَهُ
وَإِذَا تَحَلَّ مِنَ الْأُمُورِ عَظِيمَةً
فَلَعَمْرُ مِنْ جَعَلَ الشُّهُورَ عِلَامَةً
مَا كُنْتُ فِي الْحَرْبِ الْعَوَانَ مَغْمَرًا
وَسَعَى لِكَنْدَةِ غَيْرِ سَعَى مَوَاكِلِ
وَأَهَانَ صَالِحَ مَالِهِ لِفَقِيرِهَا
مَا إِنْ تَغَيَّبُ لَهَا كَمَا غَابَ أَمْرُ
وَتَرَى لَهُ ضَرًا عَلَى أَعْدَائِهِ
أَثَرًا مِنَ الْخَيْرِ الْمَزِينِ أَهْلَهُ
أَغْفَرَ لَجَاهِلِهَا وَرَوَّ سَجَالَهَا^(١)
أَحْمَلَ وَكُنْتُ مُعَاوِدًا أَحْمَالَهَا
نَفْسِي فِدَاؤُكَ فَكَفَّهُمْ أَثْقَالَهَا
قَدَرًا فَبَيْنَ نَصْفِهَا وَهَلَالِهَا
إِذَا شَبَّ حَرَّ وَقُودِهَا أَجْزَالَهَا
قَيْسَ فَضَرَّ عَدُوَّهَا وَبَنَى لَهَا
وَأَسَا وَأَصْلَحَ بَيْنَهَا وَسَعَى لَهَا
هَانَتْ عَشِيرَتُهُ عَلَيْهِ فَغَالَهَا
وَتَرَى لِنَعْمَتِهِ عَلَى مَنْ نَالَهَا
كَالْغَيْثِ صَابَ بِلَدَةِ فَاسَالَهَا

وقال جرير يمدح هشام بن عبد الملك :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جَمَعْتَ دِينَا
لَكَ الْمُتَخَيَّرَانِ أَبَا وَخَالَا
فِيَابِنِ الْمُطْمَعِينَ إِذَا شَتُونَا
وَأَحْرَزْتَ الْمَكَارِمَ كُلَّ يَوْمِ
نَمَابِكَ خَالِدَ وَأَبُو هِشَامِ
وَتَنَزَلَ مِنْ أُمِيَّةٍ حَيْثُ تَلَقَى
وَأَعْدَاءَ زَوِيَّتِهِمْ بِحَرْبِ
نَرَى لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْكَ حَقًّا
وَلَيْتُمْ أَمْرَنَا وَلَكُمْ عَلَيْنَا
إِذَا بَعْضُ السَّنِينَ تَعَرَّقَتْنَا
وَحَلِمًا فَاضِلًا لَذَوَى الْحُلُومِ^(٢)
فَاكْرِمَ بِالْحَقُولَةِ وَالْعُمُومِ
وِيَابِنِ الدَّائِدِينَ عَنِ الْحَرِيمِ
بَغْرَةَ سَابِقَ وَشَطْأَ سَلِيمِ
مَعَ الْأَعْيَاصِ فِي الْحَسَبِ الْجَسِيمِ
شُؤْنُ الرَّأْسِ مَجْتَمَعِ الصَّمِيمِ
تَكْفُفَ مَسَالِحِ الزَّحْفِ الْمُقِيمِ
كَفْعَلَ الْوَالِدِ الرُّؤُوفِ الرَّحِيمِ
فَضُولَ فِي الْحَدِيثِ وَفِي الْقَدِيمِ
كَفَى الْأَيَّامَ فَقَدْ أَبَى الْيَتِيمِ

وقال البحتري يمدح الفتح بن خاقان :

(١) ديوانه ص ٢٩ وهي مشروحة فيه شرحا جيدا .

(٢) ديوانه ص ٥٠٧ .

تذود الدنيا عنه نفس أبية
مبيد مقيل السر لا يدرك الذى
ولا يعلم الأعداء من فرط عزمه
خلاتق لاتنفك توقف حامدا
ولن ينقل الأعداء مجدك بعدما
أأكفرك النعماء عندي وقد نمت
وأنت الذى أعزتنى بعد ذلتى
وأغيتنى عن معشر كنت برهة
فلست أبالى جاد بالعرف باذل
وأفصرت عن حمد الرجال وذمهم

وعزم كحد الهند وإنى قاطع^(١)
يحاولها منه الأريب المخادع
متى هو مصبوب عليهم فواقع
له نفس فى إثرها متراجع
تَمَكَّنَ رضوى وأطمأن متالع
على نمو الفجر والفجر طالع
فلا القول مخفوض ولا الطرف خاشع
أكافحهم عن نيلهم وأقارع
على راغب أو ضن بالخير مانع
وفيهم وصول للإخاء وقاطع

وقال أبو تمام يمدح عياش بن لهيعة :

لله أفعال عياش وشيمته
ما شاهد اللبس إلا كان متضحا
فاضت سحائب من إنعامه فطمت
يحرس بالبدل عرضا ما يزال من الـ م
فرع علا فى سماء العز متخذنا
ليث ترى كل يوم تحت كللكه
أَهَيْسَ أَلَيْسَ لَجَاءَ إِلَى هَم
تجرى السعود له فى كل نائبة
نافس أهل العلا فاحتاز علقهم
له لواء ندى ما هَزَّ عامله

تزيده كرما إن ساس أو سيبا^(٢)
ولا أرى الحق إلا كان ملموسا
نعماء باليؤس حتى اجتثت اليوسا
آفات بالنفحات الغر محروسا
أصلا ثوى فى قرار المجد مغروسا
ليثامن الأنس جَهَمَ الوجه مغروسا
تغرق الأسد فى آذيتها الليسا
نابت وإن كان يوم اليأس منحوسا
منهم فأصبح معطى الحق منفوسا
إلا أراك لواء البخل منكوسا

وأظن أن النماذج واضحة فيما قدمنا ، وأن الشبه بين النماذج الثلاثة الأولى واضح من حيث جريانها مع الطبع وعنايتها بالغرض العام وبعدها عن المحسنات

(١) ديوانه ح - ٢ - ص ٧٧ .

(٢) ديوانه ص ١٢٨ .

بخلاف شعر أبي تمام الذي يشبه المعادلات الجبرية فترى فيه الفرع بأزاء الأصل وسماء العز في مقابل قرار المجد وترى فيه إلى جانب ذلك استعارات مركبة أو مزدوجة أو ماششت لها من الأسماء . فإنه لم يكتف بعمل صاحبه أسداً حتى استعار له كل كلا ، وهكذا يخلق لنا في خياله العجيب حيوانا لم يخلقه الله تعالى له أنياب الأسد وأظفاره وكلكل الجمل وجرائه .

ولا بأس على ممدوحه في أن يكون منحوساً^(١) ، مادام ذلك يحقق نوعاً من البديع الذي أولع به .

ومن عجب أن معظم النقاد ومؤرخي الأدب قد اهتموا بناحية الزخرف اللفظي وما يحمله ذلك الزخرف من جمال أو قبح . ونسوا أن هذا الزخرف عند أهل الصنعة توأم لمجهود آخر في ميدان المعاني لا يقل خطورة عن الجانب اللفظي . والتنبه إلى تلك الصلة بين التوأمين تساعدنا على معرفة الدوافع التي دفعت زعماء مذهب الصنعة إلى اعتناقه .

لقد كان إماما هذا المذهب مسلم وأبو تمام^(٢) بطلين من أبطال المديح ، وقفا حياتهما على هذه المهنة مهنة التكسب بالشعر ، وجعلاهما مرتزقهما وشغلها الشاغل ، فأحبا أن يقولوا في الممدوحين قولاً لم يسمع من قبل . والسبيل إلى ذلك أن يحشدا في العبارة كل ما يتسع له جلدها من معان على حد تعبير أبي تمام ، ثم يخلعا عليها بعد ذلك من الحلى اللفظية بقدر ما تتسع ثروة الشاعر اللغوية ، وما تسعفه به ملكته الشعرية .

وهكذا نرى أن العناية بالألفاظ والمعاني مظهران مختلفان لفكرة واحدة هي الوصول بالشعر إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من مراتب الإبداع والكمال . ولكن الطريق أمامهما لم يكن مفروشا بالورود والرياحين كما يحب بعض الناس أن يفعل بهم أولهم ، بل تعرض الأخير منهما لأنواع الحزن والمتاعب .

(١) نشير بذلك إلى قوله :

تجرى السعود له في كل نائبة ناث وإن كان يوم البأس منحوسا
وشتان ما بين القولين .

(٢) اضطررنا إلى إطالة الحديث عن أبي تمام لأن في فهمه فهما المذهب الصنعة كما ذكرنا أعلى هذه السطور

أهمها ثورة أنصار القديم عليه وعنفهم به . فقد كان للقديم أنصاره ومعظمهم من الرواة وكان أشدهم عنفاً به ابن الأعرابي . ولم لا ينصرون القديم ويتعصبون له ، وهو بضاعتهم ورأس مالهم . ولورضوا عن الجديد ، أو سكتوا عن مقاومته لطغي على قديمهم ، وذهب بمجدهم . على أنهم لو سألوا الله أن يشرب قلوبهم حباً الإنصاف فاستجاب لهم لوجدوا أنفسهم أمام خطر جديد ، هو صعوبة ما أتى به أهل الصنعة من معانٍ بعيدة عن أذهانهم وتجاربهم . ومن ثمَّ أحبوا أن يستروا موقفهم فتعلقوا ببعض أخطاء أبي تمام وراحوا يتزيدون فيها ، ويتكلمون منه ومنها ، حتى يشغلوا الناس عن النقطة الأساسية في قضية القديم والحديث ، وقد أفلحوا إلى حد كبير فبقيت آراء الناس حول هذا الموضوع مضطربة حتى هذه الساعة . ومع أن أبا تمام لم يعدم الأنصار من أمثال أبي بكر الصولي فإن ذلك لم يجده نفعاً ، لأنه كان في دفاعه شيئاً يخصومه في هجومهم . من حيث أن هؤلاء وأولئك ينظرون إلى المسألة من زاوية واحدة تناسب رأيهم الشخصي ويغضون أعينهم عن بقية الزوايا ، فالأنصار يركزون اهتمامهم على محاسنه محاولين فتح أعين الناس عليها ، والخصوم يعكسون الوضع فيهتفون بما يأخذونه عليه من مأخذ ويصمون الآذان عما له من محاسن .

ولعلَّ أخطر محاولة دراسة مذهب الصنعة حتى الآن هي تلك التي قام بها الدكتور شوقي ضيف وقد انتصر فيها للمذهب الصنعة ولإمامه (٣) ومع أنه قد ألقى عليه ضوءاً قوياً إلا أنه نظر إلى المسألة بدوقه الخاص (٤) وكان الأولى أن ينظر إليها في ضوء الذوق العام لجمهور القراء .

ونعود إلى ما بدأنا به من مخالفة أبي تمام وصحبه لسنة القدامى في الجريان مع الطبع والبعد عن التكلف فنسأل أنفسنا متى يكون الشعر مطبوعاً ومتى يكون متكلفاً ؟ وجواب هذا السؤال أن الشعر يكون مطبوعاً إذا تمت له أمور ثلاثة .

(٣) راجع ماكتب عن أبي تمام في كتاب « الفن ومذاهبه » .

(٤) الدكتور شوقي كأي تمام نائر على التقاليد ، يضع الصنعة فوق الطبع ، ولا يضيره خفاء المعنى وسنعرض

لرأيه فيما بعد .

أولها : صدوره عن شاعر مطبوع ، أى مستعد بمقتضى فطرته لقول الشعر ، ولا يكون كذلك حتى يتم له رقة العواطف ، ودقة الإحساس والقدرة على تتبع مظاهر الجمال فى الكون وتذوقه ، إلى غير ذلك من الأمور التى يكون بها الشاعر شاعراً والأديب أديباً^(٥) .

ثانيهما : جريان الشاعر مع طبعه ، أى أنه لا يكفى أن يكون الشاعر مفطوراً على قول الشعر ، حتى يصحب ذلك رغبة أكيدة فى الاستجابة لذلك الطبع والجريان معه حيثما اتجه ، دون تعويق لتياره بالبحث عن معنى جديد أو لفظ بديع . وهذا غالباً هو ما يشير إليه النقاد حينما يتحدثون عن الطبع والتكلف .

ثالثها : ألا يحمل الشاعر نفسه على قول الشعر حملاً ، بل ينبغى أن يكون راغباً فيه بدافع من نفسه . ولا يكون كذلك إلا إذا كان تحت تأثير انفعال مناسب لموضوع الشعر . فلماذا اتجه إلى الهجاء فلا بد أن يكون إذ ذاك مغیظاً محنقاً ، وإن حاول الرثاء وجب أن يكون محزوناً ولعل هذا هو السبب فى قول الفرزدق : يأتى على وقت وخلع ضررس أهون عندي من قول بيت من الشعر^(٦) . وينصح ابن قتيبة بالذهاب إلى الرياض ، والتقلب فى أعطاف الطبيعة المشرقة لمن كان بصدد قرض شئ من الشعر^(٧) ولعل ما أشرنا إليه من ضرورة كون الشاعر تحت تأثير انفعال مناسب بين لنا السر فى قوة تلك القصيدة^(٨) المشهورة التى قالها جرير فى هجاء الراعى وقومه . والتى يقال أنها أجلتهم عن ديارهم فراراً من العار الذى صبه شيخ الشعراء عليهم . فقد قالها وهو يهذى كالحموم ويهدر كالبعير على إثر مشادة بينه وبين الراعى^(٩) .

(٥) لأبى عامر بن شهيد حديث حول هذا الموضوع فى الرسالة التى كتب بها إلى أبى بكر المعروف بأشكياط (الذخيرة لابن بسام - القسم الأول - المجلد الأول) إخراج كلية الآداب ص ١٩٥ وما بعدها .

(٦) الشعر والشعراء ص ١٨ .

(٧) نفسه .

(٨) نعى تلك التى يقول فيها :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا .
وقد بلغ من إعجاب بعض النقاد بهذا البيت وقائله أن قالوا : « إنه أهجى بيت قالته العرب » . طبقات الشعراء ص ١٣١ .

(٩) طبقات الشعراء ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

وشعراء العرب ونقادهم لم يكونوا يجهلون أثر الانفعالات القوية في إجابة الشعر ، فقد قال عبد الملك لأرطاة بن سهية : « هل تقول اليوم شعرا ؟ » قال : كيف أقول وأنا لا أشرب ولا أطرب ولا أغضب وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه » (١٠) .

أما علم النفس الحديث فرأيه في هذه المسألة واضح ، فإنه يخبرنا أن الانفعالات المتنوعة من غضب وخوف وفرح وغيرها تحدث تغيرات وإفرازات مختلفة في الكبد وغيره من الغدد (١١) يكون من نتائجها إمداد الجسم بنشاط غير عادي يمكنه من الإتيان بأمور ربما تعذر عليه الإتيان بها في الأحوال العادية ، والنفس هادئة ، والبال مستقر ، وكما يظهر أثر ذلك النشاط في الناحية الجسمية ، فيستطيع المرء رفع الأثقال الضخمة ، وقطع المسافات الطويلة ، فإنه يظهر في الناحية العقلية والعاطفية فيستطيع الإنسان التحليق في أجواء من الخيال ما كان يرقى إليها ، والنفاد بفكره في أسرار ما كان ليتهدى إليها في أحواله العادية . ولا شك في أن أبا تمام قد استوفى الأمرين الأول والأخير من تلك الأمور التي اشتربناها للشعر المطبوع وكان ينفعه الثاني منها . فاشتغاله بالمحسنات البديعية وتصيده لغرائب المعاني كان من غير شك يقطع تيار الطبع الجارف ويميل بالشاعر إلى الغموض والتكلف . ونتائج ذلك خطيرة جداً وضارة بالشاعر .

أولاً : لأنها تهاجم الذوق العام عند فريق كبير من الناس . ونعني به ذلك النوع الذي يطره المظهر الطبيعي رغم تواضعه أكثر مما تغريه الدهون والمساحيق .

ثانياً : إن استغلاق بعض أبيات أبي تمام على عقول القراء ، وما أكثرها ، تحول بين استمتاع القارئ بالقصيدة كوحدة متكاملة ، لأنها تشتت عن جملها بمحاولة فهمها وتجعل عمله فيها عقلياً أكثر منه وجدانياً .

ونحن لانتشد في الشعر حكمة ولا ثقافة ، ولا تجرئ فيه وراء الأفكار المجردة ، ولكننا نشد أولاً وأخيراً المتعة الروحية التي لا تتم إلا حين يغمرنا الشاعر بسيل من

(١٠) الشعر والشعراء ص ١٨ .

(١١) باب الانفعالات من كتاب « في علم النفس » للأستاذ حامد عبد القادر ص ١٥٨ .

الإحساسات القوية والانفعالات الجياشية حول عواطف وموضوعات مشتركة بيننا وبينه . يقدمها إلينا في أعذب لفظ وأيسر عبارة ولعل هذا هو السبب في قول القدامى من النقاد « أبو تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحتري^(١٢) » .

ومع هذا فذلك القدر المتواضع من الحكمة والعلم الذى يمكن أن نصيبه من قراءة أى تمام لا يتيسر إلا لطائفة قليلة من المثقفين ، بينما يحرم معظمهم الاتصال بالشاعر اتصالاً مباشراً ، ويحرم هو أيضاً منهم . وما ظنك برجل يستعصى فهمه أحياناً حتى على أقرب الناس إليه وأعرفهم بطريقته . ولن نذكر لك شيئاً مما هتف به النقاد أو أكثروا فيه ولكن إليك أبياتاً ثلاثة لم يشر إليها أحد من قبل قالها في أبى سعيد الثغرى بعد أن فرغ من ذكر خدمته ومدائحها فيه :

هذا إلى قدم الذمام بك الذى لو أنه ولد لكان وصيفاً^(١٣)
وحشاً تحرقه النصيحة والهوى لو أنه زمن لكان مصيفاً
ومقيل صدر فيك باق روعه لو أنه ثغر لكان مخوفاً

وتعجب حين تعلم أن الخطيب التبريزى على بصره بالشعر العربى بعامة وشعر أبى تمام بخاصة ترك البيت الأخير دون شرح ، وليس استهانة منه بشأنه فإنه أشدها غموضاً ولكن لأسباب يعرفها هو . وسنحاول أن ننثرها جميعاً لتدرك مدى الغموض والعتى الذى يجزه الشاعر على القارئ حين يسلك به شعاباً ملتوية من الفكر يحار فيها الدليل ويمكن أن تقرأ هكذا :

أضف إلى ما تقدم من مدائح فيك قديم حرمتى وسابق خدمتى وأكيد ولائى
الذى لو صور بصورة فالبشر ، أو اتخذ شخصية ولد لكان من الطاعة لك والفناء
فيك بحيث يحسبه الناس وصيفاً لا ولداً .

وبين جوانحي حشاً أنضجته عواطفى الحارة يلهيها حتى إنه لو صبح أن يكون زمناً
تختلف عليه الفصول الأربعة ، لكان أشدها حراً وأعظمها هجيراً وهو الصيف .

(١٢) نحن نتفق معهم فيما يختص بالأول ولانطلق الحكم فى الثانى إطلاقهم كما سيتضح فيما بعد .

(١٣) ديوانه ص ٢٠٨ .

ولكن وسط ذلك الحر اللافت والجحيم المستعركهف متواضع باطنه فيه الرحمة
وظاهره معرض للهجير . وفي ظلال ذلك الكهف الوريقة يكمن حذب لك وإشفاق
عليك واحتياط لسلامتك ، وما هذا الكهف إلا صدرى ، الذى لو اتخذ صورة
الثغر واتخذت تلك المعانى المختلفة صورة ما يعده الناس فى الثغور لحماية أرضهم من
عدد وذخائر لكان ذلك الثغر مخوفا لا يجزؤ أحد على الاقتراب منه .

إذا كان هذا ما يقصده الشاعر فما أغربه ، وإلا يكن ، فهو أشد غرابة . ومع
ذلك يقال لنا إن فى فهم مثل هذا الشعر متعة . حقيقة فيه متعة ولكنها منغصة . إنها
أشبه بما يناله المرء من أننى لعوب غضوب ، تختلط فيه اللذة بالألم والدموع
بالبسيمات .

وهكذا نرى أن أبا تمام كان يسرف فى الغموض حقاً ، وكان جديراً بثورة
القدامى عليه . ولكنه كان إلى جانب ذلك محسناً جداً حين يسلم بعض شعره من
تلك الغرائب والعجائب التى جرّها عليه مذهبه الجديد . ومن هنا نعلم أن موقف
قدامى النقاد منه كان يشبه تماماً قول الذى قال : « رضيت فقلت أحسن ما
علمت ، وسخطت فقلت أسوأ ما علمت ، وما كذبت فى الأولى ووالله لقد صدقت
فى الآخرة » وكان أهم ما أخذه القدامى على أبى تمام قبح الاستعارة كما فى قوله :
يادهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الخلق من خرفك^(١٤)

وقبح الجناس كما فى قوله :

فاسلم سلمت من الآفات ماسلمت سيلاًم سَلَمى ومها أورك السَلَم^(١٥)
وسوء النظم كما فى قوله :

يوم أفاض جوى أغاض تعزياً خاض الهوى بحرى حجاء المزبد^(١٦)
واللحن كما فى قوله :

(١٤) موازنة ص ١١٦ .

(١٥) موازنة ص ١٢٢ .

(١٦) موازنة ص ١٢٦ .

ثانيه في كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان إذ هما في الغار^(١٧)
والخروج على تقاليد القدامى في الوصف كما في قوله :

ريق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ماما ريت في أنه برد^(١٨)

وأخذوا عليه النقل عن القدامى حتى قال بعضهم إنه لم يخترع سوى ثلاثة معان^(١٩) . أما إحسانه فكثير كثرة إساءته . وقد رأيت نموذجاً له في شعر الطبيعة السابق ونزيد هنا أبياتا أخرى قلائل منها قوله في أبي سعيد الثغري :

قطب الخشونة بالليان معاقبا فغدا جليلا في القلوب لطيفا
هزّنه معضلة الأمور وهزّها وأخيف في ذات الإله وخيفا
يقظان أحصدت التجارب عقده شزرا وثُقّف حزمه تثقيفا
وقوله فيه أيضا :

لك هضبة الحلم التي لو وازنت أجأ إذن ثقلت وكان خفيفا
وحلاوة الشيم التي لو مازجت خلق الزمان القدم صار ظريفا

أو قوله في الأفشين على اختلاف الهدف في الشعرين :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الواري
نارا يساور جسمه من حرها لهب كما عصفت شق لإزار

أو قوله يمدح أحمد بن أبي دؤاد :

وما سافرت في الآفاق إلا ومن جدواك راحتي وزادي
مقيم الظن عندك والأمانى وإن قلقت ركابي في البلاد

(١٧) موازنة ١٢ س .

(١٨) موازنة ٦٣ .

(١٩) موازنة ٦٠ .

استفحال الثورة وتشعبها

استفحلت الثورة التي قام بها مسلم وأبو تمام وتشعبت وذهبت بتلك السمات العامة التي تركها الطبع في الشعر القديم وأحلت أخرى مكانها ، وكان أهم ما ظهر من ذلك :-

أولاً :- الغوص على الطريف من المعاني والجديد من الأخيلة ، فقد كان من آثار التغير الشامل الذي طرأ على العقلية وعلى الذوق والخيال وعلى الحياة العربية بصورة عامة ، أن نبتت عند القوم آراء ومذاهب وأفكار لم تكن تخطر للقدماء ببال . ثم هم بعد ذلك لا يكتفون بهذا التفوق أو النمو الطبيعي ، بل يجهدون أنفسهم في تصيد الجديد والطريف من المعاني كما يجعلوا من شعرهم مسرحاً أو مرآة لعرض معاني وأخيلة لا عهد للسامعين بمثلها . وغايتهم من ذلك إظهار ما لهم على الأوائل من امتياز وإليك عدة نماذج توضح ماذكرنا ، يقول أبو العلاء المعري في الأول منها :

حياة عناء وموت عنا	فليت بعيد حمام دنا
وموقد نيرانه في الدُّجا	يروم سناء برفع السنى
يحاول عاش ستر القمي	ص وملاء الخميص وبرء الضنى
ومن ضمه جدث لم يُبَل	على ما أفاد ولا ما اقنى
بصير تراباً سواء عليه	مسّ الحرير وطعن القنا

وفيها يقول :

ينافى ابن آدم حال الغصو	ن فهاتيك أجنث وهذا جنى
إذا هو لم يخن دهر عليه	قال الفرى وجاء الخنا
وسيان من أمه حرة	حصان ومن أمه قرّنى

ويقول أبو الحسن الأنباري في الوزير أبي الطاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة :

علوّ في الحياة وفي المات لَحَقُّ أنت لإحدى المعجزات (٢٠)

(٢٠) ابن خلكان (وفيات الأعيان) ج - ٢ - ص ٨٣ .

كأن الناس حولك حين قاموا وفود نذاك أيام الصَّلَات
كأنك قائم فيهم خطيباً وكلهم قيام للصَّلَاة
مددت يديك نحوهم احتفاء كمدّهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم عَلاك من بعد الوفاة
أحاروا الجو قهرك واستعاضوا عن الأكفان ثوبَ السافيات

أرأيت هذا السيل الجارف من الأفكار الجديدة ، بل العواطف الحارة التي تأخذ بالعقل والقلب معا ، فقد استطاع الشاعر ببراعته وإخلاصه^(٢١) أن يحيل المهانة كرامة والهزيمة نصراً. إنها مغالطة من غير شك ، فالبون شاسع بين الحقيقة المرة وبين الأوهلة المستعارة التي خلعتها الشاعر على صاحبه فليس هناك ارتباط بين مصلوب في جلد وخطيب على منبر إلا في خيال قوى جامع يذكّيه قلب محب ناثراً. ولكننا نتقبل تلك المغالطة عن رضا ، بل نجري وراءها وننتشبت بها تشبثنا بالأحلام السعيدة لأننا نريد أن نعيش في هذا العالم الخيالي المصطنع بعيداً عن الواقع المرير. نريد أن ننسى أن الإنسانية أهينت في شخص ذلك المصلوب ، وأن نعتقد أننا حين يدفعنا الحرص على الحق إلى مثل هذه المواقف لن نقابل بشماتة الحاسدين ، بل بإكبار المعجيين. فإذا رجعنا إلى أبي العلاء وجدناه لا يعمد إلى الخيال ، بل يعتمد على الحقائق ، وكل ما هنالك أنها حقائق دقيقة ، قلما يقف الشخص العادى عندها أو يلاحظها ، أما الفلاسفة والمفكرين فطوروا يسرفون في التفكير والتقدير كما فعل أبو العلاء هنا ، وتارة ينتقلون إلى الطرف الآخر طرفة واحدة ، فيستهينون بالأخطار ، بل يرتعون في أحضانها فرحين ، كما فعل الشاعر نفسه حين قال :

وهوئلت الخطوب علىّ حتى كأنني صرت أمنحها الوداداً^(٢٢)

والشاعر لا يناقض نفسه. ولكنه يسلك نفس الطريق الذي يسلكه كل من أسرف في الاحتياط لنفسه ، ثم لم يظفر من كل ذلك بطائل. وفي هذا المعنى يقول أبو الطيب.

(٢١) يظهر من أبيات القصيدة أن الشاعر كان متأثراً حقاً بالحدث.

(٢٢) ديوانه ٣ ص ١٠.

وهان فما أبالى بالرزايا لأنى ما انتفعت بأن أبالى (٢٣)

وبعد فهل يدرى القارئ كم قرنا طواها أبو العلاء حين قال :

وموقد نيرانه فى الدجا يروم سنا برفع السنى

ناعيا على الناس اشتغالهم بأنفسهم حتى فى تلك اللحظات التى يبدو الواحد منهم فيها وكأنه مشغول بمن سواه ؛ قترهم يحسنون إلى الضعفاء ، ولكن لا يكشفوا ما بهم من ضر ، بل ليقال عنهم إنهم أجواد . إنه بذلك يذكرنا بطائفة من الكتاب المحدثين الذى ثاروا على المثل العليا القديمة من كرم ووطنية وحب بل وتدبّر ، قائلين إن الكرم نوع من الدعاية والوطنية تجر إلى الحروب . والحب إلى الزواج ومشاكله المختلفة . والدين كثيرا ما ينتهى بالتعصب البغيض . وشبيه بقول أبى العلاء مع اختلاف الهدف قول أبى الطيب :

أرى كلنا يبغي الحياة بسعيه حريصا عليها مستهما بها صبا (٢٤)
فحبّ الجبان النفسَ أوردته التقي وحبّ الشجاع النفسَ أوردته الحريا
ويختلف الرزقان - والفعل واحد إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا
وإذا كان أبو الطيب قد ذهب بمعظم ما فى الأدب العربى من أشعار تفسر
خلجات النفس ، وسلوك الناس ، فإن أبا تمام قد برز فى تصيد الغريب من الأخيلة
والطريف من المعاني (٢٥) .

وإليك طرفا من قصيدته الرائية التى يمدح فيها المعتصم ويذكر احتراق الأفشين .
كم نعمة لله كانت عنده فكأنها فى غربة وإسار
كُسِبَتْ سبائبَ لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء فى الأطمار
موتورة طلب الإله بثأرها وكفى برب النار مدرك ثار
وفيها يقول :

ما زال سرّ الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى

(٢٣) لقد سبق الكتاب الأوربيون إلى هذا اللون من التفكير .

(٢٤) ديوانه ١ - ٦٥ .

(٢٥) يشاركه فى ذلك ابن الرومى .

نارا يساور جسمه من حرها لهب كما عصفت شيقٌ إزار
 مشبوبة رفعت لأعظم مشرك ما كان يرفع ضوءها للساير
 صلى لها حيا وكان وقودها ميتا ويدخلها مع الفجار
 وكذلك أهل النار في الدنيا هم يوم القيامة جلّ أهل النار

ثم يعرج على بعض المصلوبين معه فيقول :

ولقد شفى الأحشاء من بُرحائها أن صار بابك جار مازيار
 وكأنا ابتدرا لكما يطويا عن باطس خبرا من الأخبار
 سود اللباس كأنا نسجت لهم أيدي السّموم مدارعا من نار^(٢٦)
 بكروا، وأسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مريط النجار^(٢٧)
 لا يبرحون من رأيهم خالهم أبدا على سفر من الأسفار
 كادوا النبوة والهدى فتقطعت أعناقهم في ذلك المضمار
 فالقارئ لهذه الأبيات التي اخترناها يجد في كل منها معنى جديداً ورائعا في
 الوقت نفسه ، فتراه يبرز النعم وقد أصابت غير موطنها ، تارة في صورة الغريبة أو
 الأسيرة . وطورا في صورة الحسنة وهي تتعثر في ثياب مهلهلة بالية .

ثم يشبه جسده وقد شبت فيه النيران بالثوب المعصفر ، فإذا ما أتت عليه النار
 وتفحم بدا وكأنه في ثياب سوداء . وبعد ذلك يستغل انتساب الأفشين إلى الجوسية
 أعظم استغلال فيدعى أن صلته بالنار قوية ومتصلة الحلقات ، فقد عبدها حيا ،
 واحترق بها ميتا ، وسيساق إليها في زمرة الكفرة والمفسدين . ثم يستغل انحراف
 بعض الجدوع وتقاربها ليشبه من عليها - شماتة وتهكما - بمن يسرحديثا إلى صاحبه .
 وكل هذه معان وأخيلة ما كانت لتطراً على ذهن شاعر قديم لو أنه وقف من المصلوبين
 هذا الموقف . وقد ذكر بعض الرواة أنه رأى أبا تمام يتصبب عرقا كأنما ينتزل عليه
 الوحي وهو ينشد بعض أشعاره ، ومثل هذا الجهد العنيف يتيح لهم طرق أفكار لا
 يكاد يصل إليها البدوي القديم الذي ينتقل بين الصور والأخيلة تنقل النحلة بين

(٢٦) السموم بفتح السين المهملة الريح الحارة ، وأراد بها هنا النار .

(٢٧) أراد بالضوامر الصلب وهو بضمّتين جمع صليب .

الزهور ، لا تكاد تستقر في مكان حتى تثب منه إلى غيره مكتفية منها بالرشفة السريعة . وليس أدل على قوة تصرف الفكر الحديث واتساع آفاقه مما رأيناه من اتحاد الموضوع وهو الصلب في قصيدتي أبي تمام والأنباري ، واختلاف القول عندهما اختلافا تاما ؛ حيث جعله أحدهما كرامة والثاني هوانا .

محاولة الإقناع :

كان لانتشار العلوم ، واتساع الثقافة ، واستفاضة الجدل بين العلماء واطلاع العرب على منطق اليونان ، كان لكل ذلك أثره في الشعر العربي ، بل والعقل العربي الذي أصبح ينتظر لكل شيء تعليلا ، ويتطلب عليه دليلا وكان القدامى من جاهليين وأمويين لا يجدون ضرورة لشغل أنفسهم أو السامعين بمثل ذلك التعليل أو التدليل .

على أن ميل المحدثين من الشعراء إلى استنباط كل جديد وغريب من المعاني كثيرا ما كان يؤدي بالسامعين إلى استنكار ما يأتون به فيضطر الشعراء بدورهم إلى سوق الدليل على صحة ما يقولون حتى يتمكن من نفوس السامعين . ومن ذلك ما رواه الصولي من أن أبا تمام كان ينشد قوله :

شاب رأسي وما رأيت مشيب الرأس إلا من فضل شيب الفؤاد (٢٨)
فأحس شك من حوله في صحة هذه القضية فعقب بقوله :

وكذا القلوب في كل بؤس ونعيم طلائع الأجساد
وإليك عدة نماذج من كلام القدامى والمحدثين تبين ما بينهما من فروق في هذا الصدد .

قال جرير في النظر :

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحين قتلنا (٢٩)
يَصْرُ عن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركاننا

(٢٨) أخبار أبي تمام ص ٢٣٢ .

(٢٩) ديوانه ص ٥٩٥ .

وقال فيه ابن الرومى :

نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ثم انثنت عنه فظل بهم (٣٠)
فالموت إن نظرت وإن هى أعرضت وَقَعَ السهام وَنَزَعْنِ أَلِيم
وقال الْحَرِثُ بْنُ حِلْزَةَ فى قالة السوء :-

أيها الناطق المرقش عنا عند عمرو وهل لذلك بقاء (٣١)
لا تَحَلُّنَا عَلَى غِرَاتِكَ إِنَّا قَبْلَ مَا قَدْ وَشَتْ بِنَا الْأَعْدَاءُ
فيقينا على الشناعة تَمِينَا حصون وعزة قعساء
فقال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة خَفِيَتْ أُنَاحَ لَهَا لِسَانُ حَسُودٍ (٣٢)
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيب غرس العود
وقال الفرزدق فى وفاة مولود :-

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح عليه ولم أبعث عليه البواكيا (٣٣)
وفى بطنه من دوام ذو حفيظة لو أن المنايا أخطأته لياليا
فقال أبو تمام فى صغيرين ماتا لعبد الله بن طاهر :

لهفى على تلك الخايل فيها لو أمهلت حتى تكون شائلا (٣٤)
إن الهلال إذا رأيت نُموه أيقنت أن سيصيرُ بداراً كاملا

دعك من التوسع فى المعنى والتجديد فيه حيث جعل ابن الرومى العين تصيب
حين ترسل النظر وحين تغضه ، بينما اقتصر جرير على الأول وحيث ادعى أبو تمام أن
قالة السوء تفيد المفترى عليه . على حين قنع ابن حِلْزَةَ بنى آثارها السيئة ، دعك من

(٣٠) تاريخ الأدب العربى ص ٣٧٩ .

(٣١) المعلقات العشر .

(٣٢) الموازنة ص ٦١ .

(٣٣) الموازنة بين أبى تمام والبحترى ص ٣٧ .

(٣٤) نفسه .

هذا الآن فإنه ظاهرة أخرى من ظواهر الشعر الحديث^(٣٥) وانظر إلى طريقة القدامى في إيراد القضايا خالية من الأدلة ، جريا على عادتهم في الاكتفاء من القلادة بما أحاط بالعنق ، ثم انظر إلى إصرار المحدثين على إقامة البراهين عليها .

وشيوخ التعليل على هذا النحو يعدّ ظاهرة خطيرة في الشعر العربي لأن فيه عملية عقلية مركبة ، حيث يبدأ الشاعر بذكر دعوى يكتنفها الشك لغرابتها غالباً كذبيوع ما خفى من فضل الفضلاء كلما جد الحاسدون في تسويد صحائفهم ، ثم يثني بإقامة الدليل على إمكان حدوث ذلك ، ممثلاً له بنار اشتعلت في عود طيب الرائحة فتضوع شذاه بعد أن كان فضله على غيره خافياً ، يحسبه الجاهل نوعاً من الخطب . وهذه الظاهرة خطيرة لأنها وليدة خيال جامع وفكر ثاقب متحرر يستطيع أن يتغلغل في أسرار الكون ، فيدرك ما بين أجزائه المختلفة من روابط ووجوه شبه . وهكذا ينبغي أن يدرك القائل :

وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنا بدنيانا الطغام
ولو لم يعمل إلا ذو محل تعالى الجيش وانحط القتام
الشبه بين الغبار المتعالى في الجورغم تفاهته ، والطغام الذين يتسلقون كالقردة والزواحف على أكتاف غيرهم إلى المناصب العليا رغم هوانهم على أنفسهم وعلى الله ، ثم يقفز إلى الطرف الآخر للقضية فيدرك الشبه بين تواضع الجيش وانضوائه تحت لواء الغبار من جهة . وخفاء أقدار النفوس الكبيرة من جهة أخرى فيجمع بين هذين ويضعهما بإزاء ما سبق .

والشعر العباسي ملئ بهذا النوع من التعليل وإن أردت مزيداً فاقراً قول أبي العتاهية :

يا صاحب الدنيا المحب لها أنت الذي لا ينقضى تعبه^(٣٦)
إن استهاتها بمن صرعت بقدر ما تعلو به رتبة

(٣٥) استنباط الجديد الدقيق من المعاني .

(٣٦) ديوانه ص ٣٤ .

ولو استوت للنمل أجنحة كما يطير فقد دنا عطبه
وقول أبي تمام :

لا تنكرى عطل الكرم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى^(٣٧)
وقول أبي الطيب :

أرى المتشاعرين غُرُوا بدمى ومن ذا يحمد الداء العُضالاً
ومن يَكُ ذافماً مِر مريضٍ يَجِدُ مرأً به الماء الزلالاً
وقوله :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال
ولا يعتمد المحدثون فيما يحاولون من إقناع السامع على المنطق الجاف ، بل
يسلكون إلى النفوس مسالك لطيفة ، تنهى بها إلى التسليم إن كان الموقف موقف
خصومة وجدل ، وبالرضا والهدوء عند السخط والمعاناة ويبدو ما قلناه واضحاً حين
تضع قول النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب
بجانب قول بشار بن برد :

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً صديقك لم تلقَ الذى لا تعاتبه
فعش واحداً أو صل أخاك فإنه مقاربٌ ذنبٍ مرةً وبجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربته

والبيت الأخير من أبيات بشار يجعل الإخوان كالماء يصفو تارة ويكدر أخرى
فإذا كنا نتقبل هذا الوضع فى مشاربنا ، ونسامح فيه إبقاء على حياتنا ، فلم لا نفعل
مثل ذلك بالإخوان أيضاً فتقبلهم على علاقتهم .

وينبغى ألا ننسى أن فى مثل هذا التعليل شيئاً غير قليل من المغالطة إذ ليست
هناك صلة واضحة بين الماء والأصدقاء أو بين الطعام والقتام أو النار وقالة السوء .

وكأنى بالشعراء يلتمسون أوهى الأسباب لتمكين ما يقولون من نفوس السامعين . وما أشبههم هنا بالجاحظ حين قال (٣٨) فى تفضيل السودان على البيضان « ودهم الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السود أحسن وأبهى وجلودها أنفع وأتمن وأبقى . . وكل جبل وحجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة وأشد يبوسة . والأسد الأسود لا يقوم له شىء . وليس من التمر أحلى حلاوة من الأسود . . والإنسان أحسن ما يكون فى العين إذا كان أسود الشعر وأكرم ما فى الإنسان حدقتاه وهما سوداوان وكذا كبده ، وسويداء قلبه » وكأنه يمثل هذا الإسهاب يريد أن يقول إن نواميس الطبيعة فى جانب دعواه وكذلك يفعل المحدثون من الشعراء فيما ذكرناه .

والقدماء فى موازنتهم أبعد عن المغالطة ، وأقرب لطبائع الأشياء .

اقرأ إذا شئت قول عباس بن مرداس :

ترى الرجل النحيف فتزدرية وفى أثوابه أسد مزير (٣٩)
ويعجبك الطير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطير (٤٠)
فما عظم الرجال لهم بفخر ولكن فخرهم كرم وخير
بغات الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلاة نزور (٤١)
ضعاف الطير أطولها جسوما ولم لى البزاة ولا الصقور
فسترى أن الرجل يبسط بين يديك قضية محددة ، وهى أن عظمة المرء ليست بقدر ضخامة جسمه ، ولكن بأعماله النافعة ، ثم يحاول فى البيتين الرابع والخامس الاستدلال على صدق قضيته ، فلا يذهب بك بعيدا ، كما فعل المحدثون من بعده . ولكن يوازن بين الإنسان والطيور ؛ لأنها تابعان لجنس واحد وهو الحيوان . وقوانين الطبيعة المسيطرة عليهما واحدة ، أو متقاربة .

وهناك نوع من القياس الصريح الذى لا يحتاج إلى مثل هذا المجهود ذهنى لأنه

(٣٨) مجموعة رسائل الجاحظ ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٣٩) الحماسة ج ٢ - ص ٢١ - مزير . عاقل .

(٤٠) الطير: الناعم المترف .

(٤١) بغات الطير شرارها - مقلاة نزور - قليلة الأولاد .

مأخوذ من التاريخ ، لا من نواميس الطبيعة وترى نماذجه في مثل قول أبي تمام يمدح المعتصم ، ويعتذر عنه في استعمال الأفشين رغم ما كان ينطوى عليه من خيانة للدين والدولة :

هذا النبي وكان صفوة ربه من بين باد في الأنام وقار^(٤٢)
 قد خص من أهل النفاق عصابة وهم أشد أذى من الكفار
 أو يقول مشيراً إلى أن الدين والورع لا ينبغي أن يكون أساساً يُقسَّم في ضوئه
 الناس إلى أشراف وسوقه ، بل ينبغي أن يكون الحكم في ذلك موافقهم ومآثرهم :
 إن كان بالورع ابني القوم العلا أو بالتقى صار الشريف شريفاً^(٤٣)
 فعلام قدم وهو زان عامر وأميط علقمة وكان عفيفاً^(٤٤)
 وبني المكارم حاتم في شركه وسواه يهدمها وكان حنيفاً

(٤٢) ديوانه ص ١٥٣ .

(٤٣) ديوانه ص ٢٠٩ الإشارة في البيت الثاني إلى عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة وكانا قد تفاخرا بقدوم الأول لشجاعته وكرمه . ولم يضره كثيراً ما عرف عنه من فسوق وفجور .
 (٤٤) أحيط بالبناء للمجهول . نحن وأبعد البناء للمجهول أيضاً

العنصر الثاني

التزام الحقائق : عرفنا أن التزام الحقائق كان ظاهرة من ظواهر الشعر الجاهلي . ولم يكن ذلك منهم مراعاة لدين ، أو خضوعاً لشرعية ، ولكنه أثر من آثار حياتهم الساذجة ، التي تكتفى بقدر الضرورة من كل شيء في المأكل بل والمشرب والملبس ، وتدع الفضول والمبالغات جانباً . ونتيجة من نتائج الحياة المكشوفة الصريحة التي يجوبونها . وقد تتبعنا آثار تلك الظاهرة في الشعر العربي ، فوجدنا الميل إلى الاقتصاد الشديد في المدح والفخر ، بحيث لا يكاد الشاعر ينسب إلى نفسه وقومه حين يفخر ، أو ممدوحه حين يمدح إلا ما يعتقد أنه هو قريب منه .

أما العصر العباسي فعصر الضخامة والمبالغة في كل شيء ، ضخامة الدولة وفخامتها ، وضخامة الجيوش ، وتكديس الأموال ، وأبهة الملك ، وسطوة الخلافة . مظاهر رائعة وحياة جديدة مختلفة كل الاختلاف عن حياة البادية ، بحيث صار الشعر الجاهلي الساذج المتواضع يبدو أمامها وكأنه عباءة البدو التي تحيِّفها الزمن على كفى أحد المارة في بعض شوارع لندن أو باريس .

لم يكن إذن بدء من أن يساير الشعر العربي تلك الحياة الجديدة . وإن يطرح التواضع والبساطة والقصد الذي عاد لا يلائم الظروف الجديدة . فإن تردد ، أو تباطأ حملة الناس على ذلك حملاً ، ودفعوه إليه دفعا ، دون هواده أو ملاينة . وما يذكر بهذه المناسبة أن أبا تمام وقف يمدح أحمد بن المعتصم فقال :

أبليت هذا المجد أبعد غاية فيه وأكرم شيمة ونحاس^(٤٥)
إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

قال ذلك وظن أنه قال شيئا . ولكن أبا يعقوب يوسف الكندي الذي درس كتب أرسطو وأفلاطون ، سرعان ما لاحظ البون الشاسع بين قول أبي تمام ومقتضيات العصر فقال معترضاً : وهل زدت على أن شبهت الأمير بأجلاف العرب . إذن فلا بد أن يلتبس الشاعر لغة غير تلك التي كانت تقال من قبل ، ومُثلاً عليا غير

(٤٥) أخبار أبي تمام ٢٣١ والمعنى بلغة الرياضيين أن الممدوح حطم الرقم القياسي في هذه الفضائل جميعا .

تلك التي عرفت فيما مضى . لقد كان مثل هذا البيت يمكن أن يقع موقعاً جميلاً من نفس عبد الملك بن مروان أو أشباهه من خلفاء الدولة الأموية وأمرائها . أما اليوم فلا . وقد أخذ الشعراء إذ ذلك يلتمسون رضا الذوق العام بأساليب شتى . فقال بعضهم إلى الغلو كما ترى في قول أبي نواس للرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتهابك النطف التي لم تخلق
أو قول المتنبي في بدر بن عمار .

لو كان علمك بالإله مقسماً في الناس ما بعث الإله رسولا^(٤٦)
أو كان لفظك فيهم ما أنزل الله حورا والقـرآن والإنجيلا
وسرعان ما سرت الروح الجديدة في أغراض الشعر الأخرى من هجاء وغزل وفخر وغيرها ، فإذا بابن الرومي يقول هاجيا :

لو أن قصرك يابن يوسف كله لير يضيق بها فناء المنزل^(٤٧)
وأناك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قد قصيه لم تفعل
ومن قبلهم قال بشار يتغزل :

سلبت عظامي لحمها فتركها عواري في أجلادها تنكسر^(٤٨)
وأخليت منها مخها فجعلتها أنابيب في أجوافها الريح تصفر
وإذا أحببت أن ترى مدى ما بين القدمي والمحدثين من تفاوت بصورة أدق وأوضح فوازن بين قول أبي نواس السابق في الرشيد وقول جرير في الحجاج :
وخافوك حتى القوم تنزو قلوبهم نـزوا القـطا التفت عليها الحباثل^(٤٩)
أو قول النابغة :

نبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زراً من الأسد

(٤٦) ديوانه - ح ٣ - ص ٢٤٤ .

(٤٧) تاريخ الأدب ص ٣٩٩ .

(٤٨) نفسه ص ٣٩٨ .

(٤٩) ديوانه ص ٤٤٠ .

أو وازن قول بشار فيما رماه به الحب من ضعف :
 سلبت عظامي لحمها فتركها عواري في أجلادها تتكسر
 بقول عروة بن حزام في نفس المعنى :
 متى تخلعا عني القميص تبيّنا بي الضرّ من عفراء يافتيان^(٥٠)
 وتعترفا لحما قليلا وأعظما رقاقا وقلبا دائم الخفقان
 وشبيه بهذا قول الأخطل في الخمر :
 تدب دبيبا في العظام كأنها دبّيب نعال في نقابيّيل^(٥١)
 إذا قيس بقول أبي تمام :
 إذا الروح دبّت فيه تحسب جسمه لما دبّ فيه قرية من قرى التّمل^(٥٢)
 وقول النابغة :
 وعيّرني بنو ذبيان خشيته وهل عليّ بأن أخشاك من عار^(٥٣)
 حين يوضع بإزاء قول أبي تمام :
 خضعوا لصولتك التي هي عندهم كال موت يأتى ليس فيه عار^(٥٤)
 فإنك لاشك واجد في أقوال السابقين قصداً واعتدالاً ، وربما رأيت عند
 القدماء شيئاً من المغالاة ، ولكنها نادرة ومستساعة . والسرف في ذلك إنما أن
 تجرى مجرى التهكم ، والتهكم يعنى بإضحاك الناس أكثر مما يعنى بتحريّ الحقائق .
 ومن ذلك قول الطرماح :
 ولو أن برغوئاً على ظهر قملة يكر على صفى تمم لوئت

(٥٠) ديل الأملى ص ١٥٨ .

(٥١) الموازنة ص ٣٨ . والقا . بفتح النون القطعة من الرمل

(٥٢) نفسه .

(٥٣) نفسه ص ٣٦ .

(٥٤) نفسه .

(٥٥) الوساطة ص ٤٣٦ .

وقول العيني في جوابه:

ولو أن عصفوراً يمد جناحه على طيء في دارها لاستقلت^(٥٦)
وإما لأن المرء يستطيع أن يتقبل مافيه من حقائق مع شيء من التأويل
والمغالطة ، كما ترى في قول بعض القدماء:

ألا إنما غادرت يا أم مالك
صدى أينما تذهب به الريح يذهب^(٥٧)

فالفرق شاسع بينه وبين قول المتنبي:

ولو قلم ألقيتُ في شق رأسه
من السقم ما غيرت من خط كاتب^(٥٨)

فإن الناس كثيراً ما يقولون فلان ظل لفلان ، أو صدق له . أما أبو الطيب
فقد ضيق على نفسه سبل التأويل ، ووضع نفسه بين شق قلم فلا يستطيع أحد
لذلك تخريجاً ، ولا يجد له من كلام الناس شبيها . ولسنا في ذلك نتحامل على
المحدثين بدليل أننا نعتقد أن قول أبي الطيب:

كفى يجسمي نحولا أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني^(٥٩)
أبعد عن المبالغة ، وأقرب إلى المتعارف من قوله السابق ، لأن المرء قد يكون
قيعاً ، أو نخيلاً ، بحيث يمكن أن يقول قائلًا مثلاً ، ماكدت أراه حتى تحدث
إليّ أو نحو ذلك من العبارات .

ونحن نسلم بأن القياس مع الفارق . ولكن كم من الناس يفتنون إلى مثل
هذه الفروق الدقيقة ، أليس معظم الشعر مغالطات ، ألا فليكن هذا بعضها .
ومن عجب أن الجرجاني في وساطته^(٦٠) سوى بين هذه الأمثلة من كلام القدماء
والمحدثين ، وإن اعترف بكثرتها عند هؤلاء ، وندرتها في كلام أولئك .

(٥٦) نفسه .

(٥٧) نفسه ص ٤٣٢ .

(٥٨) نفسه ص ٤٣٤ .

(٥٩) نفسه .

(٦٠) ص ٤٣٣ .

ويختلف النقاد أيضا حول هذا اللون من التجديد اختلافهم حول تجديد أبي تمام ومسلم ، ففهم من يتمسك بظاهر العبارة وحرفيتها على عادة القدماء فيرمى الشعراء بالإحالة ، ويتهممهم بالخطأ^(٦١) ومنهم من وسعت الثقافة الحديثة آفاقهم فصاروا لا يقفون عند المعنى الحرفي للعبارة ولا يرون فيها إلا نوعا من المبالغة البريئة المقبولة بل المرغوب فيها . ومامن شك في أن هذا الفهم والتساهل كان صدى لما أصاب الحياة من تطور اجتماعي جعلهم يطربون لكل طريف من المعاني وجديد من الأخيلة ، ولو كان ذلك على حساب الحقيقة التي عادوا لا يحفلون بها كثيراً . وقد قوى هذا الاتجاه شيوع الثقافة اليونانية التي تحمل آثار الخيال الخصب الشائع في آدابهم وأساطيرهم . وترى آثار هذه الثقافة في قول قدامة بن جعفر^(٦٢) « إن الغلو عندى أجود المذهبين ، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما ، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال : أحسن الشعر أكذبه . وكذلك نرى فلاسفة اليونان في الشعر على مذهب لغتهم^(٦٣) » .

ولنا في هذه القضية موقف وسط ، فلا نرفض مثل تلك المبالغات ، ونرمى أصحابها بالخطأ والإحالة ، ولا نتحمس لها تحمس قدامة . لا نرفضها لأننا لا نوافق على ما يبيده القدامى من تزمّت وتحامل على المحدثين ، لأن المحدثين لم يحاولوا مغالطة السامعين ولا قلب الحقائق ، ولا ليهام الناس بحدوث ما لم يحدث ، ووقع ما لم يقع ، وكل ما أرادوه هو إمتاع السامعين على أسلوب العصر . ومثل هذا الفهم يجعل ثورة أنصار القديم عليهم غير ضرورية .

ولا نتحمس لها تحمس قدامة لأننا نعتقد أن القصد في الفخر والمدح أوقع من الإسراف والغلو فيها . فقد تكون المبالغة عذبة وجميلة ، وقد تعطي ضوءاً ساطعاً كأنه البرق الخاطف . قبل أن يتناولها الفكر بالتحليل . ولكن هذا الضوء اللامع

(٦١) الصناعتين ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ .

(٦٢) نقد الشعر ص ١٩ .

(٦٣) إذا كان قدامة يمثل رأى المحدثين وأذواقهم هنا ، فإن الجاحظ يتحدث بلسان القدامى حين يقول : « وأنفع المدائح للمادح ، وأجداها على الممدوح ، وأبقاها أثراً ، وأحسنها ذكراً أن يكون المديح صدقا ، ولظاهر حال الممدوح موافقا وه لا تقا - بوسائل الجاحظ ص ٣٢ .

سرعان ما يتلاشى أو يضعف على الأقل حينما يظهر أنها مجرد مبالغة أحسن الشاعر صوغها ، وليس بينهما وبين الحقيقة إلا سبب ضعيف .

أما الممكن من المبالغات فإنه شبيه بنار الفحم ، بطيئة الاشتعال ولكنها مع ذلك شديدة الأثر ، طويلة الأمد . وسبب ذلك أن الحقيقة فيها تختلط بالخيال ، لجواز وقوعها ، وإمكان حدوثها ، اختلاطاً ربما أقوى في نفس السامع حتى يصير الخيال عنده حقيقة أو كالحقيقة . أما عند الغلو فقد يعجب السامع بخيال الشاعر ، أو عبقريته ، ولكن إعجابه يقف عند هذا الحد ، ولا ينفذ منه إلى الممدوح نفسه إلا القليل . وآية ذلك أني وإياك حينما نقرأ قول الأعشى في قيس بن معدى كرب :

وإذا تكون كتيبة ملمومة خرساء يخشى الدارعون نزالها
كنتَ المقدم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلماً أبطالها

بعد قول أبي تمام في نوح بن عمرو :

لو أن طول قناته يوم الوغى ميل إذن نظم الفوارس ميلا
تؤمن من حيث لا نشعر بأن صاحب الأعشى كان شجاعاً حقاً . أما صاحب الطائي فلا تؤمن ببطولته إلا بقدر ما تؤمن برحلات « جلفر » في أرض الأقرام^(٦٤) .

والقاريء للشعر العربي في العصر العباسي وما بعده يراه سلسلة من المبالغات متصلة الحلقات . يجعل وقعها على الأسماع ، وديبها إلى القلوب ، إذا أسعفها التوفيق فجاءت كما ترى في قصيدة المتنبي التي يقول في ثناياها عن أعداء سيف الدولة :

إذا صرف النهار الضوء عنهم دجا ليلان ليل والغبار
وإن جنح الظلام انجاب عنهم أضواء المشرفية والنهار
إذا فاتوا الرماح تناولتهم بأرماح من العطش القفار

(٦٤) رحلات خيالية قام بها أحد العالقة إلى أرض الأقرام فبدأ الفرق شاسعاً بينه وبينهم . وكتبها سوق الكاتب الإنجليزي المتوفى سنة ١٧٤٥ م .

ثم يقول في سيف الدولة :

وأصبح ذكره في كل أرض تُدار على الغناء به العقار
تَحَيَّرَ له الجبابر ساجدات وتحمده الأسنة والشفار
كأن شعاع عين الشمس فيه ففي أبصارنا عنه انكسار
ولعل السر في إعجابنا بهذه الأبيات واستساغتنا لما فيها من غلو ومبالغات أن
تلك المبالغات قد أحسن وضعها حتى بدت كأنها حقائق مجردة من الخيال . وربما
كان إعجابنا بشخصية سيف الدولة ، وبلائه في حرب الروم ونيله منهم رغم ضيق
رقعة دولته ، مع سخطنا على تلك القبائل العربية لتجاهلها مثل هذا المجهود ،
واستغلال إبقاء سيف الدولة عليهم ، واحتماله لهم استغلالا سيئاً ، ونكرانهم أيادية
عليهم وحمايته لهم . ولعل ذلك كله هو الذي يجعلنا نحس بما نحس به من متعة حين
نقرأ هذه القصيدة . على أن جمال أسلوبها ، وخفة عبارتها ، وجريان ماء الطبع فيها
أمر ينبغي أن تدخل في حسابنا .

أما المبالغات البغيضة فيمكن أن ترى صورة منها في قول أبي تمام يمدح نوح بن
عمرو الذي أشرنا إليه سابقاً وذلك حين يقول :

لا تدعُون نوح بن عمرو دعوة للخطب إلا أن يكون جليلاً (٦٥)
يقظ إذا ما المشكلات عرَوْنَه ألفيته المتبسم البهلولا
مازال يرمهن حتى إنه ليقال ما خلق الإله سحیلا
تَبَّتْ المقام يَرَى القبيلة واحداً ويُرَى فيحسبه القليل قبیلا
لو أن طول قناته يوم الوغى ميل إذن نظم الفوارس ميلا

وهكذا ندرك أن مدى إعجابنا ، أو نفورنا من المبالغات يتوقف على مبلغ إيماننا
باستحقاق الممدوح أو المرثى أو ما سواهما لما يقال فيه . وهذا هو السبب في أننا
لأنساء حين نقرأ قول أبي الطيب :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

أُنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاه وختصم
 وذلك لإيماننا بكثير مما يدعيه . وننفر في الوقت نفسه من قول ابن سناء الملك :
 توّقد عزمي يترك الماء جمرة وحيلة حلمي تترك السيف مبرداً^(٦٦)
 ويأبى إِبائي أن يراني قاعداً وأن أرى كل البرية مقعدا
 حيث لا نعلم الأسباب ولا الظروف التي من أجلها استحق أن يجعل من البشرية
 مقعداً يترعب عليه .

وهناك نوعان من المبالغة دارا على لسان أبي تمام أكثر من أي شاعر آخر ، وذلك
 لما قدمناه من أنه كان يهتم بتحميل أشجاره أكبر قدر ممكن من الثمار ، ولو أدى ذلك
 إلى تحطيم أغصانها . أما النوع الأول فيمكن أن نسميه المبالغة التي يقصد بها
 التأكيد ، لأنها ليست من تلك المبالغات المدوية التي تسبق إلى الأسماع ، بل فيها
 هدوء لا تكاد تصل معه إلى الأذهان إلا في النظرة الثانية ، ولهذا غفل معظم النقاد
 عنها . وما نظن أن أحداً منهم أشار إليها . وتتضح في مثل قوله :

يا منزلاً أعطى الحوادث حكمها لا مُطْلَ في عِدَةٍ ولا تسويفاً
 أرسى بعرضتك الندى وتنفست نفساً بعقوتك الرياح ضعيفاً
 ولئن ثوى بك ملقياً أجرامه ضيف الخطوب لقد أصاب ضعيفاً
 وهى الفجائع لم تزل نكباتها يألفن ربيع المنزل المألوفاً
 فاستعمال أرسى في البيت الثاني ، وثوى وملقياً أجرامه في الثالث ، ويألفن في
 الرابع ، مع إمكان الاكتفاء بنزل وزار وحل يمثل لنا ولوع المحدثين بتأكيد معانيهم
 والمبالغة فيها ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، وشبيه بذلك قوله من نفس القصيدة
 يخاطب الثغرى :

اسمع أقامت في ديارك نعمة خضراء ناضرة ترفّ رفيقا
 رّيا إذا النعم انتقلن تخيّمت وإذا نفرن غدت عليك ألوفا

(٦٦) تاريخ الأدب العربي ص ٤٠٩ .

وقوله :

جدوى أصيل العلم أن سيضيمه قصف المكارم إن رجعت قضيها (٦٧)

وقوله :

لك هضبة الحلم التي لو وازنت أجاً إذن ثقلت وكان خفيفا
فوصفه النعمة بالخضرة والنضرة والرفيف والرّى أمر لم يسبق إليه . وكلمة تخيمنت
التي احتلت مكان أقامت في شعر القدماء تكاد تكوّن مع البيت السابق وصفاً أو
تخطيطاً لجنة خيالية يرسمها الشاعر في خياله للمدوح . جنة ملتفة الأشجار دانية
الثمار ، وارقة الظلال ، تضرب فوق المدوح مرادفاً ضخماً فخماً يسعه ويسع كل
من يلوذ به أو يتسبب إليه .

وكان يكفيه في البيت الثالث أن يقول : « جدوى من يعلم كذا
وكذا » (٦٨) ولكنه يصر على أن يقول أن عطاءه هذا ليس عطاء الجامل
أو المصانع الذي لا يؤمن بما يفعل ، فيجود حياء وتورطاً ، وإنما عطاء من
يؤمن إيماناً قوياً في قرارة نفسه أن حرمان الشاعر سيؤدي إلى ضياع
المكرّمات التي أقام نفسه حارساً عليها . وفي البيت الرابع لا يكتفى بتشبيهه
حلمه في الرسوخ بالجليل كما كان يفعل القدامى ، بل يختار الهضبة لضخامتها
واتساعها . وأما النوع الثاني من المبالغة فيبدو في مثل قوله :

كانوا برود زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

أو قوله :

عاقدت جود أبي سعيد إنه بدُن الرجاء به وكان نحيفا
جدوى أصيل العلم أن سيضيمه قصف المكارم إن رجعت قضيها
واستل من آرائه الشعل التي لو أنهن طبعن كن سيوفا

(٦٧) القصف بفتح الحاء ، والقصف : النحيف .

(٦٨) وازن بينه وبين الأعشى حين قال :

وعلمت أن النفس تلقى حتفها ماكان خالقها المليك قضى لها

إن غاض ماء المزن فِضَتْ وإن قست كبد الزمان على كنت رؤوقا
خَفَضَتْ عني الدهر بعد مسلمة تركت لنايه على صريفا

ويسمى هذا النوع من التجديد عند النقاد بالتشخيص والتجسيم حيث جعل الزمان إنساناً يتكشف حيناً فيلبس الصوف ، ويقسو أحياناً فتغلظ كبده ، ثم يعن في القسوة فيصير جملاً صؤولاً ينشب أنياه في عظام الشاعر . ثم وصف الرجاء وهو أمر معنوى بالنحافة والبدانة وفعل بالمكارم مثل ذلك . وصنع من الرأي شعلاً وسيفاً .

وقد شغل النقاد أنفسهم ببيان ما في مثل تلك الأبيات من مخالفة لأساليب الأوائل ، ولم يهتموا بالبحث عن الدوافع التي دفعت بالشعراء وعلى رأسهم أبو تمام إلى الإكثار من ذلك . وقد لا نكون مخطئين إذا ادعينا أنها مظهر من مظاهر احتفال أبي تمام ومن على شاكلته للمعاني ومحاولته دائماً إيضاحها وتأكيدا والمبالغة فيها . لأن المدرك بالحواس أشد جلاء ووضوحاً من المدرك بمجرد النظر والفكر .

أما فيما يختص بجمال ما ورد في شعر أبي تمام من تشخيص أو قبحه ، فيجب أن يكون مرد ذلك إلى وجود تشابه قوى أو عدم وجوده بين المشبه به والمشبه . فإخراج الليل الطويل الثقيل في صورة البعير من قول امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تخطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

جميل ومقبول حيث إن في كل من الليل والجمال ثقلاً وامتداداً . وهذا هو السبب في أننا نرحب بمثل قول أبي تمام :

خَفَضَتْ عني الدهر بعد ملمة تركت لنايه على صريفا

حيث تشبه الملمات والكوارث بالجميل الصؤول . أما قوله :
يادهر قوم من أخدعك فقد أضجرت هذا الخلق من خرقك
وقوله :

كانوا برود زمانهم فتصدّعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا
' فغير سائع حيث لا صلة بين الإنسان والزمن ، حتى يستعار هذا
لذاك ، ويشبه به في الخرق والتكشف ، اللهم إلا إذا كان أبو تمام يحمل
بين جنبيه نقمة على بنى جنسه ، تجعله من حيث يشعر أولاً يشعر ، يرى
الإنسان صورة مجسّمة للظلم والعدوان . وليس هذا ببعيد على من كان مثله
ذا ذكاء متوقد ، وحس مرهف ، فإن أمثال هؤلاء يكونون في كثير من
الأحيان موضع حسد الأقران ، ولا يقابل الحسد إلا بالسخط والنقمة من
المحسود . ويؤكد هذا التوجيه ما نراه من كثرة حديثه عن الأخادع ،
ومطالبه الدهر بتقويمها ، فإن الأخادع في صفحة العنق ، التي يظهر فيها
العجب والصلف .

وينبغي أن يختم هذا الفصل بالإشارة إلى ما شاع عند المحدثين من قلب
التشبيهات بقصد المبالغة . وذلك كما يرى في قول البحتري يمدح المتوكل
على الله ، ويصف البركة التي شادها :

كأنها حين لجّت في تدفّقها يد الخليفة لما سال واديا
أو قول أبي نواس في مدح الأمين :

تتبه الشمس والقمر المنير إذا قلنا كأنها الأمير (٦٩)
فإن يك أشبه منه قليلا فقد أخطأها منه كثير

ووجه المبالغة أن التشبيه مبنى دائما على زيادة المشبه به على المشبه في
وجه الشبه . فإذا قلنا محمد كالأسد ، فلا بد أن يكون الثاني أعظم جراءة

(٦٩) ديوانه ١١٣ .

وإقداماً من الأول . فنحن نستغل عن طريق المغالطة ما وقر في اللاشعور من زيادة المشبه به على المشبه حين نقلب الأوضاع فنجعل الفرع أصلاً . وبذلك يتقبل السامع القضية دون مناقشة طويلة واثقاً أو كالمواثق بأن يد الخليفة في التدفق وسعة العطاء بحيث يمكن أن تجعل أصلاً يشبه به الأنهار والجداول ونحوها حين يراد تأكيد غزارة مائها وتلاطم أمواجها .

والتشبيه المقلوب على هذا النحو ، وهذا القصد ، لم يرد إلا في شعر العباسيين وأما قول ذى الرمة :

ورمل كأوراق العذارى قطعته وقد جللته المظلمات الحنادس (٧٠)

فليس مما نحن فيه ، حقاً إنه تشبيه مقلوب حيث كان ينبغي أن يعكس الأمر فتشبه الأوراق بكثبان الرمل لضخامة الأخيرة . ولكن الشاعر لم يقصد بيان ضخامة الأوراق . لأنه لم يكن لديه عذارى يتحدث عنها ، بل كان يقصد بيان عظم تلك الكثبان مع شيء من طرافة التعبير .

العنصر الثالث

التصوير :

تحدثنا فيما مضى عن الميل إلى التصوير ، وعرفنا أنه أحد الأصول الهامة في الشعر الجاهلي ، وحددنا هدفه عند الجاهليين بأنه نقل المشاهدات والتجارب التي شاهدها الشاعر أو مر بها عن طريق التشبيه أو الاستعارة محاولاً في تصويره الاقتراب من الحقيقة ما أمكن ، فإلى أى حد تطور هذا الأصل أو جمد على ألسنة المحدثين من شعراء بني العباس ؟ الجواب على هذا السؤال : أن هذا الأصل قد تلون بما أصاب الحياة العقلية والاجتماعية من ألوان إذ ذاك ، وانتهى ذلك به إلى الانحراف الواضح عن الوضع القديم الذي عهدناه عليه ، ويمكن تحديد عوامل ذلك التطور أو الانحراف وآثارها على النحو التالي :

أولاً : تأثير ما ظهر في العصر العباسي من غلو ومبالغة ، فقد كان التصوير قديماً قريباً من الواقع متأثراً في ذلك باتجاه شعراء الجاهلية إلى القصد والاعتدال ، ولكن لما جاء العهد العباسي ونشأ الغلو والمبالغة ، ترك ذلك الذوق الجديد أثره في التصوير ، فعظم الفارق بين الحقيقة التي يتحدث عنها الشاعر والصورة التي يعرضها فيها وما كان عظيماً قبل ذلك ، وإليك عدة أمثلة يظهر فيها القديم بجانب المحدث ، وبضدها تتميز الأشياء .

قال عروة بن حزام متحدثاً عن خفقان قلبه واضطرابه :

كأن قطاة علقّت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان
وقال بشار في نفس المعنى :

كأن فؤاده كرة ترمى حذار الين لو نفع الحذار^(٧١)

(٧١) الأدب العربي ص ٣٩٢ .

وما من شك في أن الأول أقرب إلى الحقيقة ، لأننا لا نشعر بأن قلوبنا تتزعج من صدورنا ويقذف بها بعيداً عنا حينما نصيبنا نوبة من نوبات الشوق أو القلق ، بل نشعر بها نتحقق وهي لا تزال حبيسة داخل أقفاصها وأمثلة هذا النوع كثيرة كقول أبي الطيب في الرماح :

جوائل بالقنْيِ مشقّفات كأن على عواملها الذبالا
بعد قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأياب أغوال
وكقوله في لبدة الأسد :

متخضب بدم الفوارس لابس في غيله من لبدتيه غيلا
بعد قول طرفة في ذيل ناقتة :

أن جناحي مضرّجٍ تكفّا حِفافيه شُكّا في العسيب بِمَسْرَدٍ
وكقوله في الخيل وما تثيره من غبار :

خافيات الألوان قد نسج النقم م مع عليها براقعا وجلالا
حين يوضع بجانب قول طرفة في ناقتة وما تثيره يديها من حصا .

فترى المرو إذا ما هجّرت عن يديها كالفراش المشقّتر

ومن مراجعة الأمثلة السابقة ترى مدى احترام القدامى لقواعد فن التصوير ، وعدم اكتراث المحدثين به . وإنما اختلفوا على هذا النحو تبعاً لاختلاف غايتهم من التصوير . فالقدامى يهدفون إلى الايضاح ، (٧٢) بينما يهدف المحدثون إلى الجدلّة

(٧٢) وازن بين قول طرفة في مغنية .

إذا رجعت في صوتها خلت رجعها تجلوت أظآر على ربع ردى
وقول بشار في حبيته :

وكان رجع حديثها قطع الرياض كسين رهرا
لنرى كيف يحاول أحدهما الاقتراب من الحقيقة جاهداً ، بينما يضرب بها الآخر عرض الحائط .

والإبداع والتفخيم والتعظيم . القدامى يحاولون الاقتراب من الحقيقة ما استطاعوا ،
ولا يبتعدون عنها إلا مكرهين والمحدثون يخلقون في سماء الخيال إلى آخر ما يمكن أن
تحمّلهم إليه أجنحتهم أليس هذا هو ما يمكن أن يفهمه المرء من قول امرئ القيس
من جهة :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العُنب والحشف البالى
وقول أبى الطيب من جهة أخرى :

شرف ينطح النجوم بروقه ه وعز يقلقل الأجبالا (٧٣)
أو قوله في أعداء سيف الدولة :

قد سودت شجر الجبال شعورهم فكأن فيه مُسفة الغربان (٧٤)
وجرى على الورق النجيع الفانى فكأنه النارج في الأغصان

أما العامل الثانى فهو تغلغل المحدثين فيما وراء ذلك الإهاب الخارجى لمظاهر
الكون نتيجة لانتشار العلوم ، وتقدم الثقافة ، واتساع آفاق الفكر بحيث صار
الشاعر يستطيع عن طريق تداعى المعانى ، وغير ذلك من العمليات العقلية المختلفة أن
يرى ويسمع ما لم يكن سلفه فى الجاهلية يستطيع أن يسمع ويرى . هذا مع قصد
شعورى إلى الابداع والتجديد . وإذا شئت أن ترى نماذج لهذا فارجع إلى قول
امرئ القيس فى الطبيعة متحدئا عن السيل وأثره فى البادية سهولها وجبالها :

كأن ثيرا فى عرانيں وبله كبير أناسٍ فى بجاد مزمل
كأن ذرا رأس الجيمر حوله من السيل والعتاء فلكة ميغل
كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل
وألقي بصحراء الغبيط بعاة نزولَ إيمانى ذى العياب المحمل (٧٥)
كأن مكّاكىّ الجواء غُدِيّة صبحنَ سلافا من رحيق مُقلقل

(٧٣) ديوانه ح ٢ ص ١٤٣ .

(٧٤) ديوانه - ح - ٤ ص ١٨٣ المسفة بتشديد الفاء المكسورة الدانية من الأرض .

(٧٥) شة صروب الأزهار الناشئة عن هذا المطر بضروب الثياب الملونة التى يعرضها التاجر الإمانى للبيع .

وضع بجانبه حديث شاعر محدث عن الطبيعة وعن المطر وآثاره في السهول والرياض ، كأبي تمام حين يقول :

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من الغضارة يمطر^(٧٦)
غيثان فالأنواء غيث ظاهر لك وجهه والصحو غيث ممطر
يا صاحبي تقصياً نظر يكما تريا وجوه الأرض كيف تُصَوَّر
تريا نهارا مشمساً قد شابه زهر الربا فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا حل الربيع فأتما هي منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها نورا تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة تَرَقَّرُقُ بالندى فكأنها عين إليك تَحَدَّر
تبدو ويحجبها الجيم كأنها . عذراء تبدو تارة وتَحْفَر^(٧٧)

فأأظنك إلا مدركا عظم الفرق بين الشعيرين والفكرين ، فامرؤ القيس مصور ، وأبو تمام مفكر ، الأول قد أعاد المناظر الطبيعية بعينها أو بعبارة أخرى نقلها إلينا بأمانة عن طريق تلك التشبيهات المتوالية .

أما الثانى فركب أجنحة الخيال وابتعده كثيرا عن أرضنا وسمائنا ، فتخيل الصحو وكأنه مطر لغضارته ، والنهار المشمس وكأنه مقمر لبهائه ورقته والزهرة حين تسفر ثم تحتجب خلف الحشائش وكأنها عذراء خجول تظهر ثم تختفى خلف الحجب والأستار .

وإن شئت فوازن بين قول امرئ القيس:-

كأن ثيبا في عرائن وبله كبير أناس في بجاد مزمل
وقول ابن خفاجة عن جبل آخر مرّبه :

وقور على ظهر الفلاة كأنه . طوال الليالي مُفَكِّر في العواقب^(٧٨)
يلوث عليه الغيم سودَ عائم لها من وميض البرق حمر ذوائب^(٧٩)

(٧٦) ديوانه ص ١١٨ .

(٧٧) الجيم: نبات ارتفع عن الأرض ولكن لم يتم نضجه .

(٧٨) ديوانه ص ٢٧ .

(٧٩) يلوث: يعصب - ذوائب: جمع ذؤابة وهي الشعر الثابت على الناصية .

أصحت إليه وهو أخرس صامت فحدثني ليل السرى بالعجائب
فقال: ألاكم كنت ملجأ قاتل ومواطن أوأو تبثل نائب^(٨٠)
وكم مرقى من مدلج ومؤوب وطارت بهم ريح النوى والنواب

فامرؤ القيس قد وقف عند حدود الشبه الظاهري بين جبل ممتد على جوانبه خطوط
ملونة من أثر الزبد والغناء وشيخ كبير قد تزل في ثوب مخطط ، ولم يفكر أو يُعن بما وراء
ذلك ؛ لأنه مصور يرى أن واجبه قد انتهى عند هذا الحد . أما ابن خفاجة فقد تغلغل إلى
ما وراء تلك الثياب الخارجية ، وتعمق فكر الشيخ ودرس ما يحول به من خواطر وعبر ، أو
يبدو عليه من وقار وتعقل ، وأخذ يستعيد معه أخبار من لجأ إليه من أخيار وأشرار . ومن
المثاليين السابقين نستطيع أن ندرك ما بين العقليتين من خلاف أما امرؤ القيس فأشبه بالمرأة
المصقولة تعكس الحياة والطبيعة في دقة وأمانة . وأما أبو تمام وابن خفاجة - والمحدثون من
خلفهم - فقد سلطا عليها أضواء قوية من فكرهما وخيالهما ، فكشفا عن جوانب خفية ،
لا يفتن إليها الفكر الجاهلي الساذج الذي لا عنى إلا بالجوانب الظاهرية للحياة^(٨٢) وإن
شتت مزيدا من تلك الموازنات فاقرأ قول امرئ القيس أيضا في ليل طويل :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على أنواع الهموم ليبتلى^(٨٣)
فقلت له لا تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل
وقوله في وميض البرق :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كسمع اليبدين في حبي مكلل

(٨٠) آواه: كثير الدعاء .

(٨١) مدلج: سائر بلبل - المؤوب: الذي يقضى النهار سائرا قال بظلي . استظل به وقت الظهيرة .

(٨٢) يؤيد ذلك عدم تغلغل الخرافة في آدابهم وعقائدهم ، كما ترى مثلاً في الأمة اليونانية ، ولعل السبب
في ذلك وضوح الصحراء العربية مع غموض البحار المحيطة باليونان ، والتي تثير كثيراً من الفروض والأوهام كلما
ابتلعت طائفة من الراكبين على ظهرها . ومن آثار تلك النظرة السطحية عدم إيمانهم بالحياة بعد الموت ، كما ترى
في قول طرفة بن العبد :

أرى قبر نحام بنحسل بماله كقبر غوى في البطالة مفسد
ترى جنوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد

(٨٣) هذان اليتان ، وبيتا البرق من المعلقة ، وهي مشروحة شرحاً جيداً .

يضىء سناه أو مصابيح راهب أمال السيط بالذُّبَال المقتل

ثم اقرأ بعقب ذلك قول القاضي التنوخي من رجال القرن الرابع :

رُبَّ لَيْلٍ قَطَعَتْهُ بِصُدُودٍ وفراق ماكان فيه وداع^(٨٤)
 موحش كالثقليل تقذى به العيد ون وتأي حديثه الأسماع
 وكأن النجوم بين دُجَاه سنن لاح بسينهن ابتداع
 مشرقات كأنهن حجاج تقطع الظلام والحضم انقطاع

فامرؤ القيس حين صور طول الليل ولمعان البرق عرض ذلك عرضا حسيا فشبه الأول
 بموج البحر حيناً ، ويجعل جاثم على صدره حيناً آخر ، وشبه الثاني بمصباح راهب . أما
 التنوخي فقد ارتاد سماء جديدة ، وحلق في آفاق بعيدة ، وترك الحسيات جانباً .

شبه الضوء الصادر من النجوم بالسفن حيناً وبالبحجج المشرقة حيناً آخر . ولسنا الآن
 بصدد بيان أجود الشعراء ، ولكننا نلفت الأنظار فقط إلى الفرق بين العقليتين والمنهجين .

وما أشبه الفرق بين الفريقين بالفرق بين الرجل الناضج والطفل الغرير^(٨٥) أو بين العالم
 المثقف والأُمِّي الساذج . ولا عيب في ذلك فالعصر الجاهلي يمثل مرحلة أولية من مراحل نمو
 الفكر الإنساني ، بينما تمثل الحياة العباسية مرحلة أكبر نضجاً ورقياً ، وطبعي أن يترك ذلك
 أثره في الشعر ، ولكن ليس معنى هذا دائماً تفوق الحديث على القديم إذ ربما مال بعض
 الناس إلى رؤية الطبيعة في أثوابها الأولى دون تغيير أو تبديل^(٨٦) وأمثال هؤلاء يطربهم الشعر
 الجاهلي .

(٨٤) يتيمة الدهر ٣٣٦/٢

(٨٥) أعتقد أن الشبه قوى بين مايوصى به علماء التربية من استخدام وسائل الإيضاح في تعليم الطفل ،
 وبين ماشاع في العصر الجاهلي من تصوير يقصد به الإيضاح كما ترى في قول طرفة (ديوانه ٤٨)
 أبا منذر رمت الوفاء فهبته وجدت كما حاد البعير عن الدحض

(٨٦) بالقرب من لندن منطقة واسعة تركت للطبيعة تعمل فيها ماتشاء دون تدخل من جانب البشر ولما كانت
 تلك البلاد كثيرة الأمطار فلذلك ترى فيها الأشجار الضخمة بجانب الحشائش القصيرة ، وربما رأيت شجرة تفاح
 أو كمثرى هنا وهناك ويقصد الناس تلك المنطقة لرؤية الحياة في ثيابها الطبيعية ، ولكن يجب ألا ننسى أن
 للجانب الآخر شيعته الذين لا يرون في عبث النسيم بأطراف الأغصان ، وما يصحب ذلك من موسيقى عذبة -
 شيئاً يلفت الأنظار ، أو يستهوي الأسماع .

فإذا ما انتقلنا إلى ميدان التجارب النفسية وجدنا دقة التصوير أشد إمتاعاً من الجرى وراء الخيال كما ترى في قول عروة بن حزام .

كَأَن قِطَاةً عُلِّقَتْ بِجَنَاحِهَا عَلَى كَبَدَى مِنْ شِدَّةِ الْخَفَقَانِ
حين يوضع بجانب قول بشار:

كَأَن فَوَّادَهُ كُرَّةٌ تَرَامَى حِذَارَ الْبَيْنِ لَوْ نَفَعَ الْحِذَارُ
أو كما ترى في قول طرفة بن العبد يصف حبيبته ونعومتها وإدلالها:

تَحْسِبُ الطَّرْفُ عَلَيْهَا نَجْدَةً يَالْقَوْمَى لِلشَّبَابِ الْمُسِيكِرِ
حين يوازن بقول إبراهيم بن سيار في نفس المعنى:

تَوَهَّمَهُ طَرْفِي فَلَمْ خُدْهِ فَصَارَ مَكَانَ الْوَهْمِ مِنْ نَظَرِي أَثَرُ
والسبب في ذلك أن عروة وطرفة قدما لنا في عبارة عذبة جميلة تجربة طالما أحسنا بها وعجزنا عن تصويرها ، وأعاد إلى أذهاننا ذكريات عزيزة ، وطرفة مثلاً قد أعاد إلى ذاكرتك صورة لفتاة مدللة أو كالمدللة ، مترفة أو كالمترفة ، طالما رفعت طرفها إليك في تناقل فعل المتأذى حتى بتلك الحركة الهيئته ، والمجهود اليسير . أما بشار وابن سيار فلم يفعلوا شيئاً سوى الجرى وراء الأوهام .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن التصوير كما عرفناه في العهد الجاهلي نادر جداً في العصر العباسي ، ولا يأتي حين يأتي إلا وعليه مسحة من الحضارة الحديثة تجعل الفرق بينه وبين الجاهلي كبيراً . وتستطيع أن تطمئن إلى صواب هذا الحكم حين تضع قول أبي الطيب مخاطباً سيف الدولة ومشيراً إلى أعدائه .

نَثَرْتَهُمْ فَوْقَ الْأَحْيَادِ نَثْرَةَ
كما نثرت فوق العروس الدراهم
أو قوله في الأسد:

يَطْأُ الثَّرَى مَتْمَهلاً مِنْ تَيْهٍ فَكَأَنَّهُ آسٌ يَحْسُ عَلِيلاً
يجانب قول طرفة:

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ خَشَاشُ كِرَاسِ الْحَيَّةِ الْمَتَوَقَّدِ
أو بقوله:

أَبَا مَنْذَرٍ رَمَتْ الْوَفَاءُ فَهَبْتَهُ وَحَدَّتْ كَمَا حَدَّ الْبَعِيرُ عَنِ الدَّحْضِ

فطرفة قد انتزع من بيته أقرب صورها لتمثيل الحقة والنشاط أو الإحجام والتردد غير متائق ولا متوقف . أما أبو الطيب فيختار أجمل الصور وأعذبها (٨٧) .

ومن هذا النوع القديم الذى يلتزم فيه أمانة النقل عن الطبيعة معظم ماجاء لأبى عبادة البحترى فى التصوير ، فهو من هذه الناحية بدوى يعيش فى المدينة أو جاهلى تأخر به الزمن إلى عهد بنى العباس (٨٨) ووصفه للبركة التى بناها المتوكل خير شاهد على ذلك . وإليك أبياتا منه :

ننصبُ فيها وفود الماء مُعْجَلَةً كالخيل خارجة من جبل مجريها (٨٩)
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا غلّتها الصبا أبدت لها حُبْكًا مثل الجواشن مصقولا حواشيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلا حسبت سماء رُكِبَتْ فيها

وما أظنك إلا ملاحظا تلك البساطة والسذاجة البادية على تشبيهاته فخياله فى البيت الأول أيسر متالا حتى من قول امرئ القيس :

كأن ذرا رأس المجمر حوله من السيل والغشاء فلكة مغزل

أما فى البيت الثانى فهو يعيد عبارة يعرفها العامة قبل الخاصة حيث يشبهون الماء النقى دائما بأسلاك الفضة . وفى الثالث لم يزد على أن قلب قول عمرو بن كلثوم فى الدروع :

كأن غضونهن متون غدر تصفقها الرياح إذا جرينا (٩٠)

أما من حيث البيت الأخير فلا فضل له إلا فى إقامة الوزن فأن قوة الشبه بين

(٨٧) قد ذهب عبد الله بن المعتز بأحمل مائى الشعر العباسى من تشبيهات تقترب فيها الصور من الأصل المقول عنه . وللمؤلف فيه بحث مفصل .

(٨٨) ومن هذا ترى أنه إعجاب أنصار القديم من القاد به وقولهم فيه « إنه يحافظ على عمود الشعر » لم يكن لإقلاقه من البدیع ، ويعدّه عن عريب المعانى فقط بل لأسباب كثيرة .

(٨٩) ديوانه ص ٣١٩ .

(٩٠) المعلقات .

الأجسام وخيالها في الماء أمر يدركه من لديه أدنى حظ من سلامة الملاحظة ولا أقول دقتها . ولا يسعنا أن نترك هذا الموقف دون أن نشير إلى ما كان من شأن التصوير في العهد الأموي . وأظننا لن نكون بمعزل عن الحقيقة إذا قلنا إن شعراء هذا العهد كانوا يسرون في أعقاب الجاهليين . وقد اخترنا لك إحدى نقائض جرير ل ترى مدى إكثاره من ذلك التصوير الجاهلي الذي يهدف إلى نقل الحقائق دون مبالغة أو تزيد إلا ما تقتضيه ضرورة الإيضاح ، ودون جرى وراء الخيال ، أو تعمق لمظاهر الكون . وإليك بعض الأبيات التي اخترناها على غير ترتيب :

حور العيون يمسن غير جوادف	هزًا الجنوب نواعم العيّدان ^(٩١)
عطر الثياب من العبير مدّيل	يمشى الهوينى مشية السكران
صدع الطعائن يوم بنّ فؤاده	صدع الزجاجاة ما لذلك تدان
من كل منتفخ الوريد كأنه	بغل تقاعس فوقه خرجان
لاقوا فوارس يطعنون ظهورهم	نشطّ البزاة عوائق الخربان ^(٩٢)
ولقيت راية آل قيس دونها	مثل الجبال طلين بالقطران
هزوا السيوف فأشرقوها منكم	وذوابلا يخطرن كالأسطوان

(٩١) ديوانه ص ٥٧٠ - الجوداف - القصار - العيّدان: جمع عيدانة ، وهى النخلة الطويلة .
 (٩٢) النشاط : الجذب - البزاة الصقور - الخربان : جمع خرب وهو الحيارى الذكر ، وعوائقها صغارها .
 أى فعلوا بهم كما تفعل الصقور بالخربان .

العنصر الرابع

الموسيقية : إعرفنا أن الشعر الجاهلي يمتاز بالموسيقية ، وأن السبب الأول في ذلك أنه كان مسموعا ، فوجب أن يكون كذلك حتى يخف على الأسماع والقلوب . ومن الحق أن نقول : إن الشعر العربي في مجموعه قد احتفظ بهذه الموسيقية دون تغيير كبير إلا عند إمامي مذهب الطبع والصنعة ومن لف لفها ؛ حيث حرص الأول منها على تجويد موسيقى الشعر وتهذيبها ، بينما اضطر ثانيها إلى التضحية بها كما ضحى بالطبع في سبيل الصناعة اللفظية . وتفصيل ذلك أن البحترى وقد تخلف عن أستاذه ومعاصره أبى تمام في ميدان الفكر ، ولم يستطع أن يخلق معه في تلك السماء التي طالما خلق فيها ، أحب أن يحدث نوعا من التوازن بينه وبين ذلك العملاق ، فلم يجد أمراً أقرب إلى متناول يده ، أو أحب إلى نقاد عصره من تهذيب موسيقى الشعر ، فصرف إلى ذلك الأمر همه ، ومازال بشعره حتى بلغ في تلك الناحية شأوا عظيما .

وكان يعتمد في تحقيق تلك الموسيقية على اختيار أعذب البحور وأخفها . وكثيراً ما كان يجمع إلى ذلك خفة القافية وجمال حرف الروى فيختار قوافيه من بين المفردات التي تشتمل على حرف أو أكثر من حروف اللين ، حتى يسهل مرورها في الحلق ، ويحسن وقعها على الأذن . ثم لا يشغله شيء من ذلك عن بقية البيت بوجه عام ، فيختار مفرداته من أعذب الألفاظ وأرقها . ولا يكتفى بذلك حتى يتأكد أن كلا منها جديرة بأن تحسن جوار زميلتها حين تلتقي بها في عبارة ، أو تقيم معها في بيت . ونحن لا نشك في أنه كان يتمتع بأذن ذوافة ، وأنه كان يستغل تلك الموهبة إلى أبعد حدود الاستغلال ؛ وذلك بترديد البيت عدة مرات على مسامعه حتى يتأكد من خفته وسلاسته .

ومع أن الكلمة الأخيرة في عذوبة الألفاظ وثقلها ينبغي أن تترك لعلماء الأصوات الذين يستطيعون أن يبنوه على قواعد علمية تجريبية مفصلة ، فإن ذلك لا يمنعنا من القول بأن شيئاً غير قليل من ذلك تستطيع الفطر السليمة أن تدركه دون

عناء ، وإن لم تعرف له اسما ، أو تحفظ له قاعدة . وقديما لاحظ النقاد شيئا من ذلك ، ومثلوا لتنافر الحروف والمفردات بقول امرئ القيس في شعر حبيته :
غداثه مستشزرات إلى العلا تضل العقاص في مُثْنَى ومرسل
وقول الآخر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر
وإليك أبياتا من إحدى مدائح البحتري في المتوكل على الله ، يتمثل فيها ما قدمنا من خصائص شعره . وفيها يقول وقد بدأ مشبهاً :

عذيري فيك من لاح إذا ما	شكوتُ الحبَّ حرقى ملاما
فلا وأبيك ما ضيّعت عهدا	ولا قارفت في حبيك ذاما
ألام على هواك وليس عدلا	إذا أحيت مثلك أن ألاما
لقد حرّمت من وصلى حلالا	وقد حلّلت من هجرى حراما
أعبدى في نظرة مستثيب	توخى الأجر أو كره الأثاما
ترى كيدا محرقة وعينا	مؤزقة وقلبا مستهاما
تناءت دار علوة بعد قرب	فهل ركب يبلغها السلاما
وجدّد طيفها عتبا علينا	فما يعتادنا إلا لاما
وربة ليلة قد بت أسقى	بعينها وكفيها المداما
قطعنا الليل لثما واعتاقا	وأفنينماها ضما والتزاما

ويترك النسب إلى المديح فيقول :

مخالف أمركم لله عاصي	ومنكر حقكم لاق أثاما
وليس بمسلم من لم يقدم	ولا يتكم وإن صلى وصاما
شهرتم في جوانب كل ثغر	ظبات البيض والأسل المقاما
وأقدمتم وفي الإقدام كره	على الغمرات تُقْتَحَمُ اقتحاما
أمين الله دمت لنا سلما	وملّيت السلامة والدواما
أرى المتوكليّة قد تعالت	محاسنها وأكملت التماما

قصور كالكواكب لامعات يكدن يضئن للسارى الظلاما
أما أبو تمام فيصدر عن ذوق وعقلية مغايرة تمام المغايرة لصاحبه ؛ فقد وضع
نصب عينيه جودة المعانى وغرابتها من جهة وازدحام المحسنات البديعية التى قد تجف
حتى تشبه العمليات الحسابية من جهة أخرى ، وترك عذوبة اللفظ وجمال الموسيقى
تأتى فى المؤخرة ، وهكذا يمكن أن تقول إنه لم يكن يحفل بها إلا بقدر ما كان أهل
الطبع يحفلون بالمحسنات البديعية ولذا جاءت معظم أشعاره ثقيلة على الأسماع
والألسنه . وسنذكر لك هنا أبياتا من إحدى قصائده المشهورة ، قالها فى رثاء محمد
بن حميد الطوسى :

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفَضْ ماؤها عذر (٩٣)
تُوفِّيت الآمال بعد محمد وأصبح فى شغل عن السَّفر السَّفر
وما كان يدري مجتدى جود كفه إذا ما استهلت أنه خُلِقُ العسر
ألا فى سبيل الله من عَطَلَتْ له فجاج سبيل الله واثغر الثغر
وفىها يقول :

وقد كانت البيض المآثر فى الوغى بواتر فهى الآن من بعده بُتر
أمن بعد طىّ الحادثات محمدا يكون لأثواب الندى أبداً نشر
إذا شجرات العرف جُدَّتْ أصولها فى أى فرع يوجد الورق النضر
لئن أبغض الدهر الخثون لفقده لعهدى به يُحَبُّ له الدهر
والأبيات تعلن عن نفسها فى وضوح فكثرة الجناس والطباق مع البناء
للمجهول ، قد أساء إلى الموسيقى كثيراً :

على أن لأبى تمام أبياتا تجعل المرء يجزم بأنه كان يتحدى الذوق العام والأوضاع
الموسيقية أحيانا كقوله فى ابتداء إحدى قصائده :

قَدْكَ انْتَبُ أربيت فى الغلواء كم تعذلون وأتم سجرالى (٩٤)

(٩٣) ديوانه ص ٣٦٨ .

(٩٤) ديوانه ص ٢ .

وكقوله :

قوت بقرآن عين الدين وانشرت بالأشترين عيون الشرك فاصطلما^(٩٥)

وكقوله لبعض ممدوحيه :

جاءتك من نظم اللسان قلادة سمطان فيها اللؤلؤ المكنون^(٩٦)
حُذِيَتْ حذاء الحضرمية أرهفت وأجابها التخصير والتلسين

وقد تعجب حين تراه يشبه قصائده بالأحذية ، كأنما عجز عن أن يجد لها شبا
خيراً من ذلك ، لكن رويداً فإنه يشبهها في مكان آخر بما هو شر من ذلك ، وأشد
وقعا على أذن الممدوح فيقول :

فكأنما هي في السماع جنادل وكأنما هي في القلوب كواكب^(٩٧)
ويقول في رثاء بني حميد :

لو خر سيف من العيوق منصلتا ما كان إلا على هاماتهم يقع
وما أعظم الفرق بينه وبين قول كعب بن زهير الذي نسج على منوال قوله :
لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل
ويقول في أحد ممدوحيه :

هو الهام هو الموت المريح هوال م حشف الوحي هو الصمصامة الذكر^(٩٨)
أخذه من قول مسلم بن الوليد :

موف على مهج واليوم ذورهج كأنه أجل يسعى إلى أمل
وتورط أبي تمام في هذه الغرائب وغيرها من أمور يأبأها الحس المرهف يرجع إلى

(٩٥) ديوانه ص ٢٢٩ .

(٩٦) ديوانه ص ٣٣٠ .

(٩٧) ديوانه ص ٢٩ .

(٩٨) ديوانه ص ١٥٠ . والوحي على وزن غني السريع .

تغلب الناحية الفكرية على غيرها من نواحي الشعور ؛ فإن قوة إحدى هذه النواحي كثيراً ما يكون على حساب الأخرى (٩٩) .

واستخفاف أبي تمام بالذوق العام ، على نحو ما بدا في الأبيات السابقة ، ومخالفته طريقة الأوائل ، وإسرافه المزرى في المحسنات ، يهديننا إلى الفكرة المسيطرة عليه وعلى كثير من شعراء العصر العباسي ، ألا وهي الاعتماد على الرأي الشخصي ، وعدم التقيد بالتقاليد الموروثة ، أو الوقوف عند السماع .

وهو وأصحابه في هذا يشبهون أهل الكوفة بين النحويين ، والمعتزلة في المتكلمين ، وأبا حنيفة مع الفقهاء . ومن هذا نرى أن التقليد والتجديد أو التبعية والتحرر لم تظهر آثاره في ميادين الأدب وحدها ، بل شملت أنواع النشاط الفكري المختلفة . فهي إذن ثورة فكرية عامة أعان عليها ، ومهد لها تطور المجتمع . وهي لذلك تذكرنا بالثورة الرومانتيكية في الآداب الأوروبية ؛ فهي تشبهها من حيث إنها صدى لتطور الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية ، وتشبهها من حيث إن كلا منها حاولت التحرر من كل ما هو قديم ، سواء في ذلك لغة الشعر ومعانيه ، أو دوافعه وأغراضه .

وإذا كان أبو تمام قد مثل الذروة العليا لتلك الثورة ، فإن له سلفاً مهدوا لها . وكان لكل منهم لونه الخاص . فبشار بن برد أول من أصاب عناصر الشعر القديم في الصميم ، فلم يحفل بدقة التصوير ، ولم يلتزم الحقيقة فيما يقول ، ثم ذهب بعد ذلك بوقار الشعر العربي في غزله وهجائه .

وقد كان أبو نواس يشبهه في مهاجمة الذوق العام ؛ حيث أسرف في الحديث عن الخمر والغلمان ، ثم رفع لواء الثورة على بناء القصيدة العربية أما أبو العتاهية فحاول تيسير لغة الشعر والميل به نحو العامية .

ومسلم بن الوليد هو واضح أسس الطريقة التي انتهجها أبو تمام فيما بعد ، وأهم

(٩٩) ينقسم الشعور إلى فكر ووجدان وإرادة . وموقف أبي تمام هنا شبيه بموقف شوقي في ذكرى شكسبير ، حيث شبه جمجمته بأبيض أزهار ، ولسانه بذهب عقرب إلى آخر ما ذكره هناك .

ما تمتاز به العناية بالبديع من جهة ، والغوص على المعاني من جهة أخرى .
وهذا الاختلاف بين قادة الثورة هو سر ما نراه من خلاف بين مؤرخي الأدب
حين يحاولون البحث عن زعيمها ، ومرسل الصيحة الأولى فيها ، قترامهم يجعلون
بشارا زعيم المحدثين جميعاً حيناً ، وأبا نواس حيناً آخر ، أو يتخطونها معاً إلى مسلم
وأبى تمام ، لأن مذهبها متشعب النواحي ، واضح المعالم والرسوم .

ولعل السرفى إغفالهم بشاراً أحياناً أن نواحي التجديد عنده لم تكن واضحة في
أذهان معظم النقاد الذين لم يحاولوا أن يتعرفوا على عناصر الشعر القديم ، ويعرفوا
موقف زعماء المحدثين منها .

ومن هذا أيضاً تعرف السرفى تعصب أنصار القديم للبحثرى ، رغم تأخر الزمن
به ، وجعلهم آياه زعيم أهل الطبع ، مع أن أبا العتاهية وبشاراً يشاركانه فيه . وما
ذلك إلا لأن كلا من الأخيرين وإن حافظ على أهم عناصر الشعر القديم ، وهو
الجريان مع الطبع ، قد خالفها في أمر أو أكثر ، أما البحتري فكان صورة من
القدماء ، لا تكاد تختلف عنهم إلا بقدر ما تمليه الضرورة من أمور لا تمس أصول
الشعر العربي التي أشرنا إليها .

وكأنى بالقارئ يسأل نفسه - وقد فرغ من أمر القدامى والمحدثين - عن أشعر
الفريقين ، وأعذب الشعريين . ومن حقه أن يسأل هذا السؤال . ومن منا لا يسأل
نفسه من حين لآخر ، ومناسبة أو أخرى عن أشد عصور الشعر العربي ازدهاراً ،
وهل هو الجاهلي ، أم الأموي ، أم العباسي . وعن أمير شعراء العربية ، وهل هو
امرؤ القيس ، أم جرير ، أم المتنبي .

وجواب هذا السؤال أن لكل من القديم والجديد مزاياه ، والفرق بينهما أشبه
بالفرق بين فن البناء قديماً وحديثاً . فالأول يمتاز بالبساطة والرحابة ، والثاني بالدقة
والتعقيد . وكل طراز صالح لعصره ، مناسب لظروف أهله . فنحن نعجب ببساطة
الشعر القديم وقصده ، ووضوحه وتناوله الأمور من أقرب الطرق وأيسرها على
القارئ والسامع ، وقارئ الشعر الجاهلي أشبه براكب المطية الذلول ، أو البحر
الهادئ .

أما الشعر الحديث فإنه يهز نفوسنا ، ويهز أعيننا بما فيه من معان بديعة ، ونظرات عميقة ، وفهم تام للحياة والأحياء حين تتوفر له جودة العبارة ، وعذوبة اللفظ ، ويسعفه الطبع السليم . ترى شيئاً من ذلك لبشار وابن الرومي وأبي نواس وأضرابهم كما ترى كثيراً منه عند أبي الطيب ، وقدراً صالحاً عند أبي تمام ، فإذا تعقّد لفظه ، واضطربت عبارته ، وخنق أنفاسه كل غث ومتكّلف من البديع ، ذهب حلاوة المعنى وجمال الفكرة .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن شعر القدامى ومعهم أهل الطبع من المحدثين كالبحتري ، يخلق فوق رؤوسنا حتى نكاد نلمسه بأيدينا ، ولكنه لا يتهافت تحت أقدامنا . أما أبو تمام وأشباهه فيصعدون أحياناً إلى أوج السماء ، ويسقطون أطواراً إلى أعماق الأرض .

والآن وقد استعرضنا عناصر الشعر الأربعة ، وعرفنا أهم ما أصابها من تطور في العصر العباسي ، نحب أن نلفت الأنظار إلى أحد الأمور الهامة التي يمكن بمساعدتها أن نميز بين القديم والحديث من الشعر . ونعني به شيوع مظاهر الترف والحضارة في الشعر الحديث ، ويقابل ذلك في القديم سيطرة الحياة البدوية عليه . بحيث لا يكاد القارئ يخطئ وهو يقرأ في الشعر العربي ما إذا كان يقرأ للقديم أم محدث .

وإذا أحببت أن تتأكد من هذا ، فاقراً قول الفرزدق :
وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ثرة من جذبها بالعصائب
ثم اقرأ بعقبه قول ابن المعتز في موقف مشابه للسابق :
والريح تجذب أطراف الرداء كما أفضى الشفيق إلى تنبيه وسان (١٠٠)

فالظروف التي أوجت باليتين واحدة . ألا وهي عبث الريح بأطراف ثياب هذا الشاعر أو ذاك . ولكن كلا منها يفسر هذا العمل في ضوء تجاربه الخاصة . فالفرزدق الذي قضى حياته في منازعات مستمرة مع جرير وغير جرير من الشعراء . بل واشترك بطريق مباشر أو غير مباشر في حروب تميم مع غيرها من

قبائل البدو يرى في جذب الريح لطرف عصابته نوعا من الخصومة . أما ابن المعتز فيتذكّره موقفا كريما ، وهو موقف الخواضن والخدم وهم يوقظونه في رفق ولين .

وشبيه بهذا قول طرفة ويشار في الغناء والحديث . قال الأول في قينة :
إذا رَجَعْتُ في صوتها خلتَ رَجْعُهَا تجاوب أظَارَ على رُبُع رَدِي
وقال الآخر :

وكان رجع حديثها قِطْعَ الرياض كُسِين زهرا
فطرفة يتخير أقرب الأشياء إليه وأشدّها شبيها بترجيع القينة ألا وهو تجاوب النوق المرضعات حين تفقد أحد فصلاتها . بينما رأى بشار في أحاديثها شبيها من الرياض والأزهار ؛ لما في كل منهما من جمال وملكة .

وينبغي ألا تنسى أن سلطان الزمن والبيئة على الشاعر أقوى من أن يقاوم ؛ فهذا عبد الله بن المعتز يحاول في بعض قصائده أن يتشبه بالأوائل فيقول معارضا لبيدا :

أذلك أم قَرَد بقفصر أجاده من الغيث أليك فرع قد تهللا^(١٠١)
لدى ليلة خوار المزن كلما تنفس في أرجائها البرق أسبلا
كان عليه من سقيط قطارها جانا وهت أسلاكه ففتصلا
فبات بليل العاشقين مسهدا إلى أن رأى صبحا أغر محجلا
فتنفض عن سرياله لؤلؤ الندى وآيس ذعرا قلبه فتأملا^(١٠٢)

وأظن أن البون شاسع بين هذه الأبيات وتلك التي قالها لبيد في ناقته فاللؤلؤ والجمان وليل العاشقين الطويل وسهادهم أمور ما كان لها أن تعرف الطريق إلى نور الوحش الذي يتحدث عنه ابن المعتز ، فالوقوف عصيب لا يَحتمل كل تلك الرقة ،

(١٠١) ديوانه ص ٢٨١ .

(١٠٢) وأزن بين هذه الأبيات وبين قول لبيد في معلقته :

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها

وما بعده .

خشن لا يتسع لكل ذلك الترف ولكن الأمير العباسى رجل مترف ، فلا بد أن نخونه عباراته ، ويتم عنه لغته شاء أم لم يشأ .

وإذا كانت شخصية ابن المعتز وعصره بأبيان أن يستترا حتى حين يريد أن يخفيها ، فأنهما يظهران بوضوح تام حين يرسل نفسه على طبيعتها . وهذا هو السبب فيما اشتهر به من جبال التشبيهات ونبلها . فالقارئ لقوله :
انظر إلى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الهندسا
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجا الترجسا

لا يشك في أنه يقرأ لشاعر عباسى . كما أن القارئ لمثل قول زهير :
ومن لم يصانع في أمور كثيرة يُضَرَّسُ بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن لم يند عن حوضه بسلاحه يُهدَّم ومن لا يظلم الناس يُظلم
يدرك من أول نظرة أنها لشاعر بدوى :

وما ذلك إلا لأن المناجل الفضية لا يمكن أن تخطر ببال البدوى ، كما أن الأنياب والمناسم ، وأحواض المياه والدفاع عنها بجذ السيوف والدعوة إلى التظالم من شأن الجاهلية الأولى وضرورتها .

الفصل الرابع

استرداد الشعر العربي لحرته

خرج أبو تمام من المعركة التي نشبت بينه وبين أنصار القديم منتصرا أو كالمنتصر وصار له مذهب عرف به ، ونسج على منواله بعض فحول الشعراء كابن المعتز ، بل والمتنبى في مبدأ حياته الشعرية ولكن الأخير لم يلبث أن ثار عليه ، وحرر نفسه ، بل والشعر العربي منه أيضا .

وقد أدهشنا^(١٠٣) أن نرى صاحب «الفن ومذاهبه» قد وضعه في مكان غير لائق به ، حيث جعله رأس جماعة من الشعراء ظهرت في القرن الرابع الهجري «وأخذت تعبد وتبدئ في الخواطر المسبوقة والأفكار المطروقة ، ثم هي تعقد في الألوان والأصباغ القديمة ؛ إذ تستعين بوسائل من التكلف للثقافة . فليس فيها نقش ولا زخرفة إنما هي أشياء غريبة عن الفن لانفصح عن وجدان ، ولا ثراء في الألوان ، ولذا جاء جملها مملأً ينقصه الروعة الفنية^(١٠٤) .

وقد استدل الزميل على دعواه بعد أبيات تثبت تصنعه للثقافات المختلفة كمصطلحات الصوفية وعبارتهم ، وللأفكار الفلسفية . ومن ذلك قوله مشيرا إلى فكرة التجلي :

تجلّى لنا فأضآنا به كأننا نجوم لقينا سعودا
أو فكرة الحال كما في قوله :

وحالات الزمان عليك شتى وحالك واحد في كل حال
وكقوله مثيرا إلى قول أرسطو في الحكمة : «قد يفسد العضو لصلاح أعضائه» .
لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

(١٠٣) قد يعجب القارئ لطول تتبعنا للزميل الدكتور شوقي وإشارتنا الكثيرة إلى كتابته ولكن ماذا نفعل ، وقد كتب خير ما كتب في الموضوع وإن خالفنا ونخالفناه أحيانا ؟ والمرء يشعل نفسه دائما بأهم ماسبقه من بحوث أو باحثين .

(١٠٤) الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف ص ١٧٨ .

ثم يأخذ عليه أبياتا أخرى مثل قوله:

ولك الزمان من الزمان وقابة ولك الحمام من الحمام فداء
وقوله:

أسنى على أسنى الذى دهنتى عن علمه فيه على خفاء
ورأيت أبا الطيب رغم هذه الأبيات وغيرها أقل تصنيعا وتصنعا من أبي تمام
فشعره ليس تليقا أو تعقيدا ، بل ولا امتدادا لشعر أبي تمام ، وإنما أبي الطيب
يرجع الفضل الأول في وقف تيار هذا المذهب الغريب على الشعر العربي والعقلية
العربية .

وتسألني بعد ذلك . ما بال هذه الأبيات التي مرت منذ قليل ، وظاهرها
التصنع والتعقيد ، ويجانبها عدد غير قليل لمن تتبع شعر أبي الطيب ؟ والجواب
على ذلك أن هذه الأبيات لا تمثل شعر المتنبي ، فقد قالها محاكيا أبا تمام ؛ لأن
الاخير كان أقرب الفحول المحدثين إليه وأعظمهم ذكرا^(١٠٥) ولكن طبيعة المتنبي
المتنمر الجاحمة ما كانت تستكين لقيود الصنعة أو تصبر على الرسف في سلاسلها
طويلا ؛ ولذا كانت تثور عليها فتحطمها ثم تنطلق على طبيعتها غير حافلة إلا بما
جاء عفوا ودون عناء .. ويذكر الدكتور عبد الحميد يونس أن أبا الطيب حاول
أن يسلك مسلك أبي تمام فوجده صعبا وعمر المسالك فتحول عنه إلى
غيره^(١٠٦) وليس الأمر كما ذكر ، بل أعرض عنه للأسباب التي أشرنا إليها .
فن الظلم إذن لأبي الطيب ، بل ولأبي شاعر آخر ، أن نأخذ البيت أو
البيتين نتصيدا من هذه القصيدة أو تلك ، ألا ترى أن بالعاهة يقول:
الدهر ذو دول ، والموت ذو علل والمرء ذو أمل والناس أشباه^(١٠٧)

(١٠٥) ربما كان من تمام الفائدة أن تذكر أن القصيدة الهزلية التي أكثر حصوم أبي الطيب من الإشارة
إليها ، والتي ذكرنا بعض أبياتها منذ قليل قد أرسل بها الشاعر إلى أديب مثله هو أبو علي هرون بن عبد العزيز
الأوارجي الكاتب . ولغة العلماء والأدباء فيما بينهم دائما غير لغتهم حين يتحدثون إلى الجمهور ومن يدرى لعل
الأوارجي هذا كان مولعا بالتعقيد مفتونا بهذا النوع من الشعر فأحب أبو الطيب أن يزيده مه .

(١٠٦) مقدمة ديوان أبي تمام لإخراج مطبعة صبيح .

(١٠٧) ديوانه ص ٢١٢ .

ولم تنزل عبر فيهن معتبر يجرى بها قدر والله أجراه
يبكى ويضحك ذو نفس مصرفة والله أضحكه والله أبكاه
ومع ذلك لاندخله في رجال الصنعة ، لأنه قالها لغرض خاص (١٠٨) وخرج
فيها عن طبعه وطابعه العام .

والمنهج السليم إذن أن نتخير قصيدة أو بعض قصيدة لكل من الشاعرين تمثل
طابعه العام ثم نوازن بينهما من حيث شيوع البديع وغير البديع من خواص
المذاهب الحديثة فيها وعدم شيرعه .

وقد استعرضنا نتاج كل من الشاعرين لاختيار نماذج للموازنة فوجدنا أن
شعر أبي تمام يكاد يكون في مستوى واحد من حيث الحرص على تقاليد مذهب
الصنعة والتكلف ، أما المتنبي فيمكن تقسيم شعره إلى قسمين أحدهما على مذهب
أبي تمام ، وثانيهما قاله وهو مشغول بنفسه أو كالمشغول ، معني^١ بآماله وآلامه أو
كالمعني ، وهو قدر لا يقل عن سابقه ، وقد أرخى فيه لنفسه العنان وابتعد كثيراً
عما تقتضيه الصنعة من تكلف وتعقيد وتصنع وتصنيع ، فكان كالبركان الثائر
يرسل الحمم دون طويل فكر أو مراجعة . وسنبداً بذكر أبيات له تمثل النوع ،
وتضع بإزائها أبياتاً لأبي تمام كي يتضح وجه الشبه أو الخلاف بينهما . ثم نذكر
بعد ذلك هذا النوع الذي انفرد به أبو الطيب .

وقد أخترنما لهما قصيدتين حيث قيلت كل منهما في مدح ملك أو أمير مع
التعرض لتنكيله بخارج عليه وكافر بنعمته مكتفين بقدر كاف من كل منهما .
قال أبو الطيب يمدح سيف الدولة ويذكر إيقاعه ببعض الخارجة عليه .
طوال قناً تطاعنها قصار وقطرك في ندى ووغى بحار^(١٠٩)
وفيك إذا جنى الجاني أناة تُظن كرامةً وهى احتقار
وَأَخَذُ لِلْحَوَاضِرِ وَالْبَوَادِي بَضْبَطٍ لَمْ تُعَوِّدْهُ نَزَارُ

(١٠٨) يظهر أنه كان يعارض بها قول مسلم بن الوليد :

موف على مهج واليوم ذو رهج كأنه أجل يسى إلى أمل

حيث تحده أن يقول مثلها كما ورد في الأغاني ج - ٣ - ص ١٣٩ .

(١٠٩) ديوانه - ٣ - ص ١٠٠ .

تَشَمُّهُ شَمِيمَ الوحش إنسا
وما انقادت لغيرك في زمان
فقرحت المقاد ذفريها
وأطعم عامر البُقينا عليها
وغيَّرها التراسل والتشاكي
وكانت بالتوقف عن دارها
وكنَت السيف قائمه إليها
فأُمرت بالبُدَيَّة شفر تاه
وكان بنو كلاب حيث كعب
تَلَقَّوْا عَزَّ مولاهم بذل
فأقبلها المروج مَسوماتٍ

وتنكره فيعروها نفار
فتدرى ما المقادة والصغار
وصعَّر خدَّها ذاك العذار^(١١٠)
ونزَّقها احتمالك والوقار
وأعجبها التلبُّب والمغار^(١١١)
نفوسا في رداها تستشار
وفي الأعداء حدك والغرار
وأُمسى خلف قائمة الحيار
فخافوا أن يصيروا حيث صاروا
وسار إلى بني كعب وساروا
ضوامر لاهزال ولاشيار^(١١٢)

أما أبو تمام فيقول مادحا المعتصم ومشيراً إلى حرق الأفشين .
الحق أبلج والسيوف عوار
ملك غدا جار الخلافة فيكم
يارب فتنة أمة قد بَرَّها
جالت بخيذر جولة المقدار
كم نعمة لله كانت عنده
كُسيَتْ سبائب لؤمه فتضاءلت
موتورة طلب الإله بثأرها
صاды أمير المؤمنين بزبرج
مكرا بني ركنيه إلا انه
حتى إذا ما الله شق غباره

فحذار من أسد العرين حذار
والله قد أوصى بحفظ الجار
جبارها في طاعة الجبار
فأجله الطغيان دار بوار
فكأنها في غربة وإسار
كتضاؤل الحسناء في الأطمار
وكفى رب النار مدرك ثار
في طيه قة السجاع الضاري^(١١٣)
وطد الأساس على شفير هار
عن مستكن الكفر والإصرار

(١١٠) ذفريها: مثنى ذفري وهي العظم الذي خلف الأذن .

(١١١) التلبُّب: التشمُّر للحرب .

(١١٢) الشيار ضد الهزال .

(١١٣) صدى: دارى . زبرج: زينة: حمة: الإبرة التي يلدغ بها قطب العقرب الشجام: الثعبان .

ونحنا لهذا الدين شفرتة انثنى
هذا النبي وكان صفوة ربه
قد خص من أهل النفاق عصابة
واختار من سعد لعين بنى أبى
حتى استضاء بشعلة السور التي
أما أبيات المتنبي التي تمثل الشطر الثاني من شعره فهي :

عيد بأية حال عدت يا عيد
أما الأحبة فالبيداء دونهم
لولا العلا لم تجب بي ما أجوب بها
وكان أطيب من سنى مضاجعة
لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى
ياساقبى أخمر فى كئوسكما
اصخرة أنا مالى لا تحركنى
إذا أردت كميت الخمر صافية
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها
أمسيت أروح مثر خازنا ويدا
إنى نزلت بكذايين ضيفهم
جود الرجال من الأيدى وجودهم
ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم
من كل رخو وكاء البطن منفتق

بما مضى أم لأمر فيك تجديد
فليت دونك بيذا دونها بيد
وجناء حرف ولا جرداء قيدود
أشبه رونقه الغيد الأماليد
شيئا تيممه عين ولا جيد
أم فى كئوسكما هم وتسويد
هذى المدام ولا تلك الأناشيد
وجدتها وحيب النفس مفقود
أنى بما أنا باك منه محسود
أنا الغنى وأموالى المواعيد
عن القرى وعن الترحال محدود
من اللسان فلا كانوا ولا الجود
إلا وفى يده من تنها عود
لا فى الرجال ولا النسوان معدود

وأظن أن القارى الكريم بعد الموازنة بين الشعرين سيوافقنا على أن أتهم أبى الطيب بالتلفيق والعيش على تراث الأوائل مع الخلو من الروعة الفنية فيه حيف شديد عليه ، ومع أن قى قصيدته الأولى بديعا لا يقل عما لصاحبه ، فإن بديع أبى الطيب تتطلبه المعانى فى إلحاح . ألا ترى أن وضع طوال القنا مع القصار ، والكرامة بجانب الاحتقار وقائم السيف بأزاء حده والغرار ينسجم انسجاما تاما مع غرض القصيدة وهو الحرب والنضال .

فأين من هذا ما تراه عند أبى تمام من وضع الجبار بجانب الجبار والثار بعد الثار ماذا يقصد بهذا ، أيريد أن يجعل منها جناسا ؟ لقد رجعنا إلى شرط الجناس قرأينا أن

تكرار الكلمة بلفظها ومعناها كما هي الحال هنا ليس من الجناس في شيء ، بل لا بد أن يختلف المعنى إذا اتحد اللفظ كما هو الحال في كلمة إياه من قول المعري . فإن إياه الليث ما حل أنفه بأن محلات الليث إياه أو يختلف اللفظان في الاشتقاق إذا اتحد المعنى كما ترى في لفظي حل ومحلات من البيت السابق .

أما هذا التكرار فليس من الجناس في شيء^(١١٤) ومع ذلك يصبر عليه أبو تمام ويكثر منه كأن ولوعه بالصورة اللفظية أغراه بالاكثار حتى مما لا خير فيه وقد كان العرب يفعلون ذلك ولكن لفائدة كما في قول مالك بن الربيع لقد كان في أهل الغضى لودنا الغضى مزار ولكن الغضى ليس دانيا فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه وليت الغضى ماشى الركاب لياليا فإنه إنما فعل ذلك حين حضرته الوفاة فحن إلى موطنه في بلاد العرب . ولهذا الكلمة في قلبه وحياته وضع خاص وارتباطات كثيرة وذكرات عزيزة لأنها موطنه ، وطبيعي أن يحن إليه في اللحظات الأخيرة من حياته ولذا لا نجد بأسا في تكرارها . ومع أن النقاد يأخذون على الأعشى قوله^(١١٥) وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاو مثل شلول شلشل شول لائحاد منى الصفات الأربعة الواردة بعد شاو وتقارب لفظها ، فأنا نعتقد أنه فيها خير ألف مرة من أبي تمام في قوله :

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمل فيك إلا بالرضا لأن التكرار عند الأول له دوافعه النفسية فالأعشى سكير وحريص على أن يكون الشواء نشيطاً خفيفاً ، الحركة حتى لا ينغص عليه لذة الخمر بطول انتظار الشواء . أما أبو تمام فلا هدف له من هذا التكرار سوى الزخرف اللفظي . ويمتاز الأعشى بأمر آخر ، ذلك أن التكرار عنده استوفى شرط الجناس ، وهو اختلاف الألفاظ من حيث الاشتقاق .

فإذا ما ولينا وجهنا شطر النوع الثاني من شعر أبي الطيب وجدنا له قصائد كثيرة يمكن أن توضع بجانب الدالية السابقة ونذكر على سبيل التمثيل :

(١١٤) المثل السائر لابن الأثير ص ١٥٦ .

(١١٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٢ .

واحر قلباه ممن قلبه شم ومن بجالى وجسمى عنده سقم
 وقوله :
 ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام
 وقوله :
 فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثلاً تهب اللثام
 وقوله :
 على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم
 وقوله :
 فدينك من ريع وإن زدتنا كرباً فأنت كنت الشرق للشمس والغربا
 وقوله :
 كم قتيل كما قتلت شهيد بياض الطلى وورد الحدود
 على أن هناك أمراً خطيراً ينبغى أن نفطن إليه ، وذلك أن قصائد أبى الطيب حتى
 المعروفة بغرابتها لا تخلو من أبيات وهاجة ترسل ضوءاً قويا يشغلنا عما حوله من غرابة
 ويغرينا بمتابعة القراءة حتى النهاية . ومثال ذلك قصيدته الحمزية التى يرى فيها الدكتور
 شوق صورة واضحة للتعقيد ، ألا ترى أن قوله :
 مثلت عينك فى حشاي جراحة فتشأها كلتاهما نجلاء
 كاف لأن يدفعنا لاغتفار ما عساه أن يأتى بعده من سيئات . بل دعنى أتقدم
 معك إلى هذه الأبيات التى نأخذها عليه مثل قوله :
 ولك الزمان من الزمان وقاية ولك الحمام من الحمام وقاء
 قل فيها ووخذ عليها ما تشاء ، ولكنك لن تستطيع أن تقول إنها ميتة ينقصها
 الحياة والحركة ، وهذا يكفينى . دعها تثيرنا ضد الشاعر أو ضد أنفسنا ، أو تثير
 الخصومة بين بعضنا وبعض كما توقع هو ، فأنها فى جميع هذه الحالات ستبعث فىنا
 الحياة والنشاط . ومهما يكن من أمر فأنها خير من قول أبى تمام فى عياش بن لهيعة :
 مقابل فى ذرا الأذواء منصبه عيصا فعيصا وقد موسى فقد موسى
 الواردين حياض الموت متأقة ثباً ثباً وكراديسا كراديسا
 نموك قنعاس دهر حين يحزنه أمر يشاكه آباء قناعيسا
 وبعد فهل آمنت معى بأن الحكم على الشاعر اعتماداً على عدة أبيات متزعة من
 أماكنها انتزاعاً قد لا يؤدى إلى سلامة الأحكام وسدادها . بل أرجو ألا أكون متها

بالتطرف والاسراف إذا قلت : إنه لا يصح إصدار حكم من الأحكام العامة على شاعر من الشعراء اعتمادا على قصيدة بعينها ، بل ينبغي أن نختار قصيدة تمثل مذهب الشاعر أتم تمثيل . ألا نرى أننا لو اخترنا للموازنة بين مذهب أبي تمام وأبي الطيب قول الأول بمدح عياش بن لهيعة^(١١٦)

أحيا حشاشة قلب كان مخلوسا ورم بالصبر عقلا كان مألوسا ووضعنا بأزائه قول أبي الطيب في مدح سيف الدولة وعتابه :

واحر قلباه ممن قلبه شم ومن بحالى وجسمى عنده سقم
لكان تزيدا على أبي تمام لأنه أكثر من البديع فيها إلى حد الابتدال
ويؤكد ما ذهبنا إليه من أن الأحكام ينبغي أن تبنى على الكثير الغالب ، وأن الاعتماد على الأبيات المفردة يؤدي إلى فسادها ، أن العمل بغير ذلك يكاد ينقض رأى الزميل نفسه ، ألا تراه يجعل قول المتنبي :

أعدى الزمان سخاؤه فسخابه ولقد يكون به الزمان بخيلا
بعد قول الطائي :

هيئات أن يأتي الزمان بمثله إن الزمان بمثله لبخيل
دليلا على جمود الشعر ونضرب معينه ، بحيث صار الأواخر يعيشون على تلفيق أشعاد الأوائل ، مع أن لأبي تمام ما هو شر من ذلك ألا تراه يقول متغزلا .
ملطومة بالورد أطلق طرفها في الخلق فهو مع المنون محكم^(١١٧)
بعد قول إبي نواس :

تبكى فتندى الدر من نرجس وتلطم الورد بعنان^(١١٨)
إلى غير ذلك من الأمثلة التي لا يتسع لها المقام . وتختلف الطائي ظاهره ، فاستعمال ملطومة على هذا الوجه ، والربط بين طرف الحبيبة والموت على هذه الصورة بأباهما اللوق السليم . فهل يفهم من هذا أن أبا تمام أيضا كان ملفقا ، أم أن للشعراء سقطات من حين لآخر ، لا يختص بها أحد دون سواه^(١١٩) .

(١١٦) ومع ذلك لمانع من ذكرها حين نذكر للمتنبي أسوأ شعره .

(١١٧) الموازنة ص ٤٣ .

(١١٨) نفسه .

(١١٩) إن خير وسيلة لإصدار أحكام دقيقة على الشعراء ، هي اتباع طريقة الإحصاء التي يدعو إليها الأستاذ رجب ، أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعة أكسفورد . وقد طبق أصول هذه الطريقة زميلنا الدكتور عبد العزيز عتيق على أبي فراس الحمداني في رسالة الدكتوراه التي تقدم بها إلى جامعة أكسفورد .

أما أبو العلاء فشعره نوعان ، قال أولها في صباه ، واحتذى فيه أبا الطيب حتى يكاد يكون صورة منه في كل شيء وبخاصة في الفخر بنفسه والتحامل على المنافسين من الشعراء . وأكبر الظن أن هذا التحامل ليس إلا عدوى وصلت جراثيمها إليه من أستاذه ومثله الأعلى ، والقارىء لقوله :

رويدك أيها العاوى ورأى لتخبرنى متى نطق الجهاد^(١٢٠)
سفاه ذاد عنك الناس حلم وغى فيه منفعة رشاد
أأخمل والنباهة في لفظ وأقتر والقناعة لى عتاد
أو قوله :

باى لسان ذامنى متجاهل على وخفق الريح فى ثناء^(١٢١)
تكلم بالقول المضلل حاسد وكل كلام الحاسدين هراء
ومن هو حتى يحمل النطق عن فى إليه ويمشى بيننا السفراء
وإنى لثمر يابن آخر ليلة وإن عزّ مال فالقنوع ثراء
والقارىء لها ولأمثالها يدرك قوة الشبه بينها وبين شعر أبى الطيب وقد جمع كتابه سقط الزند هذا القسم من الشعر .

وهناك نوع آخر قال بعد أن زهد في الناس واعتزلهم في بيته وضمّنه تأملاته في الحياة ، ونصائح للآحياء ، وإن شئت فقل ثورته عليهم . وفي هذا الشطر يقوى الشبه بينه وبين أبى تمام ، وذلك لأن الصنعة هنا من جناس وطباق ونحوها لا تطفى عليها العاطفة الجياشة أو الخيال الجامح كما ترى في سقط الزند ، بل تظل بارزة واضحة وسط ما يحيط بها من فكرة هادئة ، أو نصيحة متعقّلة ، وهذا يذكرنا بأبى تمام الذى يطفى الفكر عنده على العواطف . ولكن رغم كل ذلك لم يبلغ مبلغ أبى تمام في الاحتفال للبديع أو التعقيد فيه . وأظهر أنواع البديع عنده الجناس . ومن الطريف أن تعلم أنه التزم فيه أيضًا ما لم يلتزمه أحد من الشعراء ونشر بذلك إلى رأى دعا إليه الخليل بن أحمد الفراهيدى في الجناس^(١٢٢) وأوجب فيه أن يتفق المتجانسان في اللفظ دون المعنى . ومع أن هذا الرأى ظل مطرَحًا لا يهتم به الناس

(١٢٠) سقط الزند - السفر الثانى - القسم الأول ص ٢٨٦ .

(١٢١) نفسه ص ٣٩٥ .

(١٢٢) راجع الصناعتين الخانجى ص ٢٥٠ .

كثيرًا ، فقد كان المعرى من أسرع الشعراء إلى الاستفادة منه وإليك إحدى قصائده لترى مدى نجاحه في ذلك .

تكرم أوصال الفتى بعد موته وأرواحنا كالراح إن طال حبسها
يُعبّرنا لفظ المعرفة أنها فلان إباء الليث ما حلّ أنفه
وهل لحق الثريب سكان يثرب هم ضاربوا أولاد فهر وجالدوا
ضرابا يطير الفرج عن وكر وذو نجب إن كان ما قيل صادقاً
هل الدين إلا كاعب دون وصلها وما قبلت نفسى من الخير لفظة
تفرج أعراية أن جرت لها وما الأرى للحي إلا مسفة
تعادت بنو قيس بن عيلان بالغى ولولا القضاء الحتم أنجى واقد
وعادوا إلى ما كان إن جاء عارض يبيثون قتلاهم بأكثر منهم

وهن إذا طال الزمان هباء (١٢٣)
فلا بد يوماً أن تكون سباء من العرّ قوم في العلا غرباء
بأن محلات الليث أباء من الناس لا بل في الرجال غباء
على الدين إذ وشي الملوك عباء أمه ويترك درع المرء وهى قباء
فما فيه إلا معشر نجباء حجاب ومهر معوز وجباء
وإن طال ما فاهت به الخطباء نواعب يستعرضنها وظباء
على أنهم في أمرهم أرباء فثابوا كأن العسجد الثوباء
ولم بين حول الرافدين خباء رأوا أن رعيا في البلاد رباء
وإن قتلوا حرّاً فليس يباء

والقارىء لهذه القصيدة يجد فيها عددًا وفيرًا من الجناس معظمه على شرط الخليل بن أحمد ، أما قليله فيتبع مذهب الجمهور الذى يميل إلى التساهل والرفق بالنفس وبالناس . وما من شك في أن الخليل وأبا العلاء كانا يدركان أن اختلاف المعنى أدق في الصناعة لأنه يذكرنا بما بين المفردات من تباين في معانيها رغم اتحاد لفظها ، فهو كما أشرنا سابقًا نوع من التلاعب بالألفاظ يحسن أو يقبح تبعاً لبراعة الشاعر واستعداده الشخصى .

خاتمة

أظن أنه لن يضير هذا البحث أن نقف به عند هذا الحد ، معترمين أن نعمل على إتمامه ، إن شاء الله تعالى بعد قليل . وإنى لأعرف الناس بما فيه من فجوات يجب أن تملأ ، وإجمال ينبغى أن يفصل .

ألست ترى أن ما نذهب إليه من أن الشعر القديم يميل إلى الصدق والقصد يمكن أن يكون موضع جدل ومناقشة ؛ وأن من حق أى إنسان أن يعترض فيدعى أن المبالغة والغلو عرفا في كل العصور . وأن من ذلك في الجاهلية قول المهلهل بن ربيعة :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تفرع بالذكور
وفي العهد الأموى قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول
وسيكون من حق هذا المعترض علينا أن نجري له بعض الإحصائيات ، كى نثبت أن ما ورد من ذلك فى الشعر القديم نادر ومستساغ وبذلك يطمئن إلى سلامة النظرية التى بين يدينا .

وسيكون الموقف فى التصوير أشد دقة وتعقيداً ؛ لأن بعض المحدثين كالبحتري يكاد يكون صورة من الأوائل فى هذا الصدد . ولبعض آخر مذاهب جديدة ، كابن المعتز ، الذى يحاول الاقتراب من الأصل المنقول عنه ، كما كان يفعل القدماء ، ولكن بعد أن يخلق عليه جمالا جديداً ، ويعرضه فى ثياب أنضر وأزهى^(١) . وربما برهنت الأيام على أن كتابنا الحالى سيكون مختصا بتحديد النظريات مع ذكر نماذج محدودة عليها ، بينما يهتم الكتاب المرتقب بالتطبيق المفصل على تلك النظريات

وهناك أمر آخر لم يحظ بالعناية التامة هنا ، ونرجو أن نتمكن من أن نوفيه حقه فى المستقبل ، وهو موقف القرآن من العقليتين القديمة والحديثة . ولن نكون قد قننا

(١) اقرأ ما كتبه المؤلف عن ابن المعتز .

بواجبنا على الوجه الصحيح حتى نعرف موقف شعراء العربية على اختلاف بيئاتهم وعصورهم من المذهبين .

وإذا كان لنا أن نذكر للقارئ قاعدة عامة تعينه على التميز بين القدامى والمحدثين ؛ فذلك أن يتذكر كلما قرأ لهؤلاء أو أولئك أن الأوائل كانوا يعتمدون دائما على حواسهم ، بينما يستعين الأواخر كثيرا بعقولهم . وإذا قرأت هذا البحث في ضوء هذه النظرية فستطمئن إليه . وربما فتحت أمامك آفاق لم تفكر فيها بعد

وأخيرا أرجو أن أكون بهذا البحث قد بذلت مجهودا متواضعا في سبيل إعلاء ذلك البنيان الضخم الذي أرسى زميلنا الفاضل الدكتور شوقي أساسه ولن نخطئ إن شاء الله تعالى إذا وقف منا بعض الباحثين نفس الموقف الذي وقفناه من الدكتور شوقي مسددين أو معارضين ؛ فإننا لم نقل آخر كلمة في الموضوع ، كما أن الحق أحب إلينا ، وأكرم عندنا من أى شئ آخر والحمد لله أولا وأخيرا . والسلام عليكم ورحمة الله

محمد عبد العزيز الكفراوي

طيبة الجديدة ش الأهرام

١٨ نوفمبر سنة ١٩٥٨

مراجع البحث

- أخبار أبي نواس مطبعة الاعتماد سنة ١٩٢٤
أخبار أبي تمام
الأغاني - مطبعة التقدم
الأمالي - دار الكتب سنة ١٩٢٦
الأوراق - مطبعة الصاوي سنة ١٩٣٤
ابن الرومي - للأستاذ العقاد - مطبعة حجازي . الطبعة الثانية
البيان والتبيين للجاحظ -
البيان المغرب لابن عذارى - إخراج ليثي بروفنسال
التطور والتجديد في الشعر الأموي للدكتور شوقي ضيف
تاريخ الأدب العربي للأستاذ السباعي بيومي . مطبعة العلوم سنة ١٩٣٧
تهذيب الكامل للسباعي بيومي
حديث الأربعاء للدكتور طه حسين
ديوان - عبيد بن الأبرص - لندن - ١٩١٣
ديوان - امرئ القيس - شرح السندوني مطبعة الاستقامة سنة ١٩٢٠
ديوان طرفة - شرح الشنقيطي
ديوان أبي الطيب المتنبي - شرح العكبري . مطبعة الحلبي سنة ١٩٣٦
ديوان أبي العتاهية - بيروت سنة ١٨٨٢
ديوان ابن الرومي - كامل كيلاني - مطبعة التوفيق الأدبية
ديوان زهير بن أبي سلمى
ديوان الأعشى - المطبعة النموذجية
ديوان جرير - مطبعة الصاوي . الطبعة الأولى
ديوان أبي نواس - المطبعة العمومية الطبعة الأولى
ديوان بشار بن برد
ديوان البحتري مطبعة هندية . الطبعة الأولى
الذخيرة لابن بسام . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٩

- زهر الآداب . المطبعة الرصافية سنة ١٩٢٥
- سقط الزند - مطبعة دار الكتب سنة ١٩٤٦
- سيرة ابن هشام . مطبعة حجازى ١٩٣٧
- الشعر والشعراء . مطبعة المعاهد سنة ١٩٣٢
- الشعر الأندلسى - ترجمة الدكتور حسين مؤنس . مطبعة لجنة التأليف والنشر
شعراء النصرانية
- الصناعتين - لأبى هلال العسكري الآستانة . الطبعة الأولى
- ضحى الاسلام . مطبعة التأليف والنشر . الطبعة الثانية
- طبقات الشعراء - مطبعة سعادة
- عصر ما قبل الاسلام للأستاذ مبروك نافع - مطبعة وادى النيل
- الفن ومذاهبه - مطبعة لجنة التأليف والنشر - الطبعة الأولى
- فى علم النفس - للأستاذ حامد عبد القادر والأستاذ الأبراشى
- الزوميات مطبعة الجالية الطبعة الأولى
- ليلي والمجنون . الدكتور هلال . مكتبة الأنجلو المصرية . الطبعة الأولى
- معجم الأدباء . مطبعة دار المأمون سنة ١٩٣٨
- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر مطبعة بولاق سنة ١٢٨٢هـ
- المفضليات مطبعة المعارف سنة ١٣٦١هـ
- الموازنة بين أبى تمام والبحترى . مطبعة صبيح .
- مجموعة رسائل الجاحظ . مطبعة التقدم . الطبعة الأولى
- نيكل - مختارات من الشعر الأندلسى
- نقد الشعر لقدامة بن جعفر . القسطنطينية . الطبعة الأولى
- النابعة الديباني للأستاذ عمر الدسوقي
- نفح الطيب . المطبعة الأزهرية . الطبعة الأولى
- الوساطة بين المتنبي وخصومه . دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٤٥
- يتيمة الدهر للثعالبي مطبعة الصاوى . الطبعة الأولى

الفهرس

الموضوع	صفحة
الباب الأول :	
العاصر الأصلية للشعر العربى	٧
الطبع	٧
الصدق	١٢
التصوير	١٦
الموسيقى	٢٣
بناء القصيدة	٢٧
الباب الثانى :	
عصر صدر الإسلام	٤١
العصر الأموى	٤٥
مظاهر تشابه الشعر فى العصرين الأموى والجاهلى	٥٢
القائص والعزل سوعيه امتداد للشعر الجاهلى	٥٥
الباب الثالث :	
العصر العباسى - مقدمة ..	٦٧
الفصل الأول - بناء القصيدة	٧١
الفصل الثانى - أغراض الشعر وما أصابها من تطور	١٠٧
العرل بالمدكر	١٠٧
شعر الزهد أو التزاهد	١١٠
الحمر والمجون	١١٥
الطبيعة	١٢١
الخصومات	١٢٤
العزل	١٣٦
الهجاء	١٣٧
المدح	١٤٤
الفخر	١٤٦
جولات الشعراء فى جوانب النفس الشرية	١٤٨

الفصل الثالث .

عناصر الشعر وما أصابها من تطور أو حمود	١٥٧
الطبع	١٥٧
استفحال الثورة وتسعها	١٦٨
النرام الحقائق	١٧٧
النصوير	١٩٠
الموسيقية	١٩٩

الفصل الرابع .

استرداد الشعر العربي لحرية	٢٠٨
----------------------------	-----





